

دار الكتب [www.dar-alkotob.com](http://www.dar-alkotob.com)

دار الكتب [www.dar-alkotob.com](http://www.dar-alkotob.com)

خاصة الناشر  
الدكتور عبد الناصر صالح

# لسان الدعوة

بين

## الإعداد والإنطلاق

للدكتور / عبد الناصر أحمد حسيب صالح

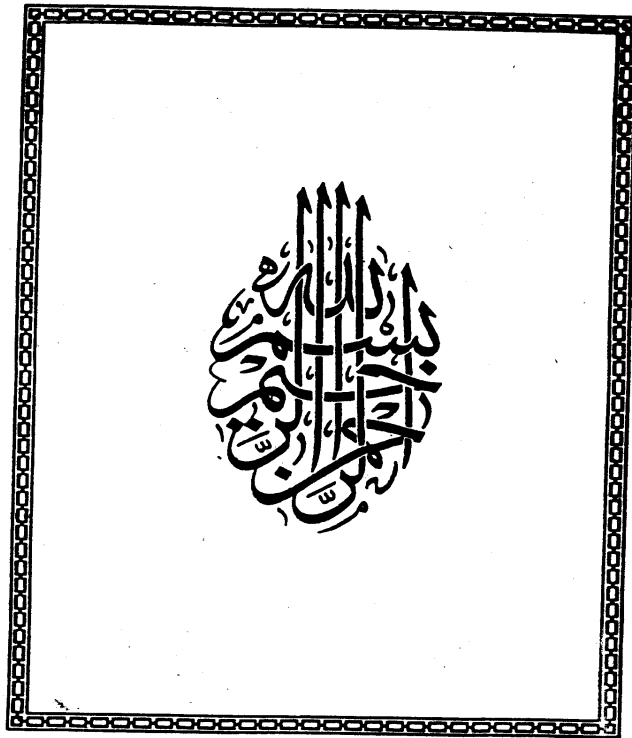
أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية المساعد  
بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا

الطبعة الثانية

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

دار الكتب [www.dar-alkotob.com](http://www.dar-alkotob.com)

دار الكتب [www.dar-alkotob.com](http://www.dar-alkotob.com)



دار الكتب [www.dar-alkotob.com](http://www.dar-alkotob.com)

### النتيجة

" رب اغمسنى فى بحر من نور هيبتك ، حتى أخرج منه وفى وجهى شعاعات هبية ، تخطف أبصار الحاسدين من الجن والانس ، فتعميهم عن رمى سهام الحسد فى قرطاس نعمتى ، وأحجبني عنهم بحجاب النور الذى باطنه النور وظاهره النار .

أسألك باسمك النور أن تحجبني فى نور اسمك بنور اسمك حجاباً يمنعني من كل نقص يمازج منى جوهراً أو عرصاً إنك نور الكل ومنور الكل بنورك "

أمين .

### "المقدمة"

الحمد لله الذى مزق بنور الإسلام حجب وكثافات غياهب الجهل والاضلام ، واختار لهذه المهمة على مر الزمان من خلقه صفوة الانام ، فأوحى به إلى أنبيائه ورسله الكرام ، عليهم جميعاً أزكى صلاة وسلام حتى كان بسيدنا محمد - ﷺ - مسك الختام ، فحقى الله به غاية المراد بظهوره ويعتته للقضاء على كل مظاهر الظلم والاضلام ، فأكمل الله به الدين ، وأسدى على الاحياء نعمة التمام إذ كان لسان الحق الصادع بالحقيقة فى دنيا اللئام ، المفعم بأرجاس الشيطان من الخمر والميسر والانساب والازلام ، والافتراء على الله كذباً بتحريمهم السائبة والوصيلة ، فحرموا الحلال وأحلوا الحرام .

وكم لاقى - ﷺ - ابان انطلاقة البيان بالدعوة إلى الملك العلام والايامن بالآيات والاحكام ، فما وهن لما أصابه فى سبيل الله ، وما ضعف وما استكان إلى واحد من قومه نوى الآثام ، وعلم أصحابه الجلد والثياب والصبر فى الإيمان بالله وحدك لا شريك له فكانوا بذلك خير أمة أخرجت للناس ، وأعظم جيل جاد به الاسلام ، كما شهدت بذلك صفحات الأيام . فصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان من أئمة المسلمين وعامتهم إلى يوم تزول الأقدام وينفخ فى الصور فيخرج الناس جميعاً من الإجدات مسرعين إلى الله - تعالى - بالأقدام ..... ويعد

فهذه دراسة وجيزة في علم الخطابة أقدمها زلفى بين يدى الله - عز وجل - مبتغياً لديه حسن المثوبة فى الدنيا ، والمتب فى الآخرة ، وقد كتبت هذه الصفحات القليلة - فى عجلة سريعة - أنا فى أغلبها كل على أفاضل سبقونى فى هذا المجال - خصيصاً لطلاب كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا راعيت فيها معالجة مشكلات الاعداد التى تواجه الجيل الجديد من شباب الدعوة الإسلامية وكذا مشكلات الواقع العملى المعاصر التى تصيبنا بوصمة شديدة يندى لها الجبين لما تراه من ترد سافر فى كثيرين ممن وكل اليهم أمر قيادة الأمة إلى الله ، أحياناً بالهروب والتصل ، وأخرى بالرضوخ للواقع من أجل لقمة العيش الميرى ، واتخاذ الدعوة كمهنة ووظيفة لا كرسالة وأمانة .

كما تحدثت عن تاريخ الخطابة وعصور ازدهارها ، وأسباب ازدهارها ، مضمناً حديثى التركيز الشديد على الخطابة فى العصر النبوى وأبرز قسماتها وسماتها مع ذكر بعض النماذج من خطب النبى - ﷺ - ، ثم تابعتها بالكلام على الخطابة فى عصر الخلفاء الراشدين ، وكذا عصر بنى أمية ، والعصر العباسى مبيناً ركائز ارتقاء الخطابة أو انحطاطها فى كل عصر من هذه العصور ، وبيان أقسامها . ثم تحدثت عن الخطبة الدينية وأحكامها وتاريخها ، وغصصت الطرف عن غيرها من أنواع الخطابة الأخرى كالخطابة السياسية والقضائية والمحفية وغيرها



من الأنواع الأخرى .

ثم بينت المنابع الأصلية للخطبة الدينية بإبراز مصادرها الرئيسية ومؤكداً على ضرورة البعد الكامل عن الاسرائيليات مبيناً خطرها على الدعوة إلى الله عز وجل .

ثم تحدثت عن حاجة الدعوة إلى السنة جديدة ذات طاقات خلاقة جديدة تواكب عصر التلفزيون والفيديو ، وتناهض لغته ووسائله الشيطانية - أو كما يسمونها الإبداعية الأدبية .

ثم بينت ما بين الخطابة والدعوة إلى الله من روابط وأواصر وعلاقة كليهما بالأخرى مؤكداً على إظهار البواعث الذاتية التي يمكن أن تجعل من الخطيب داعية أو بمعنى أدق تصنع . ثم ركزت على بيان مسقطات الخيب الداعية منبها إياه عليها لخطورتها واضعاً إياه صوب المسؤولية الذاتية إبان الحديث عن كل واحدة منها، إلى آخر ما تناولته من مقومات اعداد الخطيب وغيرها .

وهكذا جاءت هذه الدراسة على هذا النحو المتعجل في ثوبها القشيف ولولا ضيق المقام وعجلة الاخوان لكنت أسعد حظاً باستخراج ما في خزانتي مما يمن الله تعالى به علينا من الفضل ولكن ليس كل ما يتمنى المرء يدركه .

فلتقبلوا منا هذه العجالة ، وأملنا غاية الانتفاع والانفاع بها والله من

وراء القصد هو حسبنا وملاننا ، وغاية مبتغانا ومعتمدنا .

والحمد لله أولاً وآخراً .

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

فى ١ / رجب ١٤٢٥ هـ

الموافق ٣٠ / ديسمبر ١٩٩٤ م الموافق ١٧ / ٨ / ٢٠٠٤ .

أ . د / عبد الناصر أحمد حسيب صالح .

## الفصل الأول بين يدي الخطابة

### تمهيد:

كثُر في أيامنا هذه تخاذل غالبية من يجهزون علمياً من حملة الاجازة العالية من كليات أصول الدين - على وجه الخصوص - وكليات التخصصات النظرية الأخرى القريبة من دراسات نوى التخصص الدقيق وشبه الدقيق في جامعة الأزهر على وجه العموم - وان كنت ممن لا يشجعون وجود غير المتخصصين في هذا المجال بالذات - مراعاة للمسئولية وأمانة الكلمة - في توجيه دعوة الخير إلى الغير ، ولم يخلص من بين الأعداد الكثيرة من الخريجين إلا عدد ضئيل جداً لا يمكن أن يسد حاجة المنابر بالمساجد لكثرة عددها ، فكيف والحال هذه يمكن سد ثغور الدعوة إلى الله ، ومجالاتها ليست في دُور المنابر بالمساجد فحسب ؟ .

إننا اذا نحتاج إلى جند كثير ، نحتاج إلى جيش من الدعاة كما نحتاج إلى جيش من الخطباء المتخصصين ، لأن الأمة في كل بقعة من بقاعها لا تستغنى بحال عن متخصص جيد ، يقدم كلمة الله - تعالى - إليها ، ويبصرها في دينها مع ادراكه - حقيقة - لقيمة هذه الكلمة وفقهها ومراده منها ، بصير بكل ما يلزم بها وما يلزم لها ، كما أنها - أيضاً لا تستغنى بحال عن حمل عنها أمانة الدعوة إلى الله تعالى ويوصل صوتها إلى غير

الموحدين فى كل بقاع الدنيا وهؤلاء هم الدعاة المتخصصون الفاقهون للدعوة وأدائها وأخلاقها وفنونها .

إذا فنحن بحاجة إلى داعية خطيب ، وخطيب داعية ، وكليهما لسان للدعوة .

ولكن لما لم يوجد المتخصص الجيد ، نظراً لهروب الكثرة منهم أو محاولات الهرب بالتسرب إلى مجالات أخرى - كالتدريس أو الوظائف المكتبية أو الإدارية ، أو التجارية - وغيرها ، فلما هرب من الساحة - أو سعى إلى الهرب - أصحاب الحق فى الكلمة بالدرجة الأولى ، وتنصلوا - ولا يزالون - من أداء أمانة الدعوة التى تحملوها طفت على الساحة السنة لم يتخصص أصحابها ، ولم يتعلموا فنية الأداء ولا أصول هذا العلم - السنة غير مسئولة - تتحدث باسم الدعوة إلى الإسلام فكان ضررها أكثر من نفعها ، ولكن ربما كان لها عذرها ربما لا عذر لها بل وربما بها فى هذا المجال - والله أعلم النوايا - بقصد المناادة أو الترويج لفكر معين يرتجى من ورائه غاية درجة الله تعالى ومصصلحة المسلمين ، بل تدعو إلى بث الفرقة وتفطيت الوحدة ، ويزرع روح الخلاف وتشتيت الفكر ، لا لأن القضية التى يتناولها باطلة أو ليست مما يدعى إليه ، ولكن لأن المتناول لها ليس بمخصص فى هذا الفن ، ولا دراية له بفقهاء الدعوة ، ولا أسلوب عرضها ، ولا ماذا يقال ، ومتى يقال ، وفى أى شئ يقال ، وعلى من يقال ؟ .

وما هذا إلا لتخاذل أعداد من المتخصصين - هذا من جانب - وهروب بعضهم من جانب آخر ، وندوة عدد المتخصصين على الساحة من جانب ثالث وهو ما جعل الفرصة سانحة لأن نرى ما نراه على الساحة الآن من تقمص الكثيرين لدور الدعاة ، والتحدث بلسانهم ، وهم فى حقيقة الأمر عبء على الدعوة لأنهم ليسوا أصحاب مسئولية ، أو كلمة مسئولة حتى وإن سمحت لهم الفرصة - فى ظل تقليص دور المتخصصين لأنفسهم ، أو تقليص غيرهم لهم - أن يحتلوا مكانهم ، لا بسبب خطأ أو تقصير فى إعداد الخطباء المتخصصين ، ولكن لأسباب - هى بالأحرى - بعيدة تماماً عن جانب التخصص والإعداد العلمى ، والأغلب أنها ربما كانت بسبب التفريط فى الإعداد العلمى ، والتجهيز النفسى ، فالخطيب فى هذا الجانب كالطبيب ، كلاهما لا غنى له عن التجربة - بل التجارب - العملية التطبيقية لما تناوله من الدراسات النظرية ، وذلك - فى نظرى - هو السبيل لصنع كموارد جديدة تُبنى فكراً على المنهج العلمى الصحيح ، وتُجهز لحمل مسئولية التوجيه وأمانتها .

ونحن فى دراستنا هذه - إن شاء الله تعالى - سنحاول جاهدين استظهار وسائل وأصول وإعداد الخطيب الداعية علمياً وعملياً والله المستعان وهو من وراء القصد نعم المولى ونعم النصير .

#### التعريف اللغوي للخطابة :

الخطابة في لغة العرب مصدر مشتق من " الخطاب " وهو توجيه الكلام نحو الغير بقصد الإفهام ، والهاء فيه للمبالغة ، وهي من الفعل " خطب " يخطب " بضم " الطاء " بخلاف ما إذا كانت بالكسر فهي التقدمة بالتعبير عن الرغبة في فتاة أو أنثى بعينها .

#### التعريف الإصطلاحى للخطابة :

أما عن تعريفها في اصطلاح العلماء ، فلقد عرفت الخطابة بتعريفات عدة اختلفت باختلاف مشارب واتجاهات المعرفين حسب اختصاصاتهم العلمية ، من واقع نظرتهم لما بين الخطابة وبين ما تخصصوا فيه من روابط ، وكذا من خلال نظرتهم إلى الخطابة ذاتها من حيث كونها علما أم فنا أم هما معا .

ومن ثم نقول :

" عرفت الخطابة بتعريفات كثيرة لا يتباعد بعضها عن بعض ، وإن كان من بينها ما ليس جامعاً لكل أنواع الخطابة - على عمومها - ولا شاملاً لجزئياتها ، كما أن منها ما ليس مانعاً من دخول أشياء معها كالدروس لتوجيهات ، والوصايا والإعلانات ، والإرشادات والمناقشات ، وغيرها .

واليك جملة من التعريفات الإصطلاحية أذكرها فيما يلي :

(١) يقول أرسطو : " الخطابة هي القدرة على النظر في كل ما يوصل

إلى الإقناع فى أى مسألة من المسائل .

(٢) ويقول ابن سينا : " لقد أدخل الحكماء - أى الفلاسفة - الشعر والخطابة فى أقسام المنطق ، لأن المقصود من المنطق أن يوصل - المخاطب - بالفتح - إلى التصديق ، فإن أوقع التصديق يقيناً فهو البرهان ، وإن أوقع ظناً أو محمولاً على الصدق فهو الخطابة ، أما الشعر فلا يوقع تصديقاً ، لكنه لإفادة التخيل الجارى مجرى التصديق " .

وقد وافقه العلامة ابن خلدون فى مقدمته حيث جعل الخطابة أحد أفراد علم المنطق وعرفها بأنها " القياس المفيد ترغيب الجمهور وحملهم على المراد منهم ، وما يجب أن يستعمل فى ذلك من المقدمات " .

(٣) ويقول ابن رشد " إنها قوة تتكلف الإقناع الممكن فى كل واحد من الأشياء المفردة " .

ويمكن جمع هذه التعريفات الثلاثة السابقة للفلاسفة فى تعريف واحد بأن

تقول :

الخطابة عند الفلاسفة هى " مجموع قوانين وأصول يقتدر بها على الإقناع الممكن فى أى موضوع يراد " .

أو هى " قوانين وأصول تعرف الدارس بطرق التأثير ، ووسائل الإقناع وما يجب أن يكون عليه الخطيب من صفات ، وما ينبغى أن يتجه إليه من المعانى فى الموضوعات المختلفة ، وما يجب أن تكون عليه ألفاظ الخطبة

وأساليبها ، وترتيبها " .

ومن ثم فدراسة علم الخطابة بناء على التعريف الأخير - لكونه قد جمع بين كونها عما وقنا - تنير الطريق أمام من عنده همة وقدرة وعزم شديد على الترقى بالفطرة وتمييزها وتساعد من استطاع الأخذ بها والسير في طريقها على تربية ، وإنماء استعداد اداته ومعالجة ما به من عيوب ، وارشاده إلى طريق إصلاح نفسه ، ليسير على الدرب ، ويسلك الصراط المستقيم .

وفى مجمل تعريف الفلاسفة أمور لا غنى من التنبيه عليها :

أ - الإقناع : وهو حمل السامع - المخاطب - على التسليم بصحة القول وصواب الفعل أو الترك .

**والإقناع : ينقسم من حيث مسلكه إلى نوعين :-**

**أحدهما : برهاني :** والهدف منه اذعان العقل - المخاطب - بالفتح - إلى نتيجة مبنية على مقدمات ثبت باليقين لديه صحتها - أى مقدمات مسلمة - .

**والثانى : خطابى :** والهدف منه إذعان العقل المخاطب " بالفتح " بصحة المقول وإثبات صواب الفعل أو الترك ، وذلك بأقيسة مؤلفة من أقوال مظنونة أخذ فيها بالاحتمال الراجح ، أو مقبولة صدرت ممن يعتقد صدقه وسداد رأيه ، ومن ثم فهو قائم النظر والتدبر والتأمل وإعمال الفكر وإشغال العقل .



ب - قولنا - : " الممكن " بفتح الميم الثانية وتضعيف ما بعدها مكسوراً لأن الهدف من الخطابة وغاية أمرها ، وعظيم شأنها إنما يكمن في إعداد النفوس لقوة الإقناع ، بصرف النظر عن تحقيق الغاية منها بالوصول إلى المراد من عدمه كما هو الحال في سائر العلوم والصناعات ، فإنها تعد النفس لعمل خاص ، باكسابها قوانين وأصول معينة ، وإن لم تبلغ الغاية منها أحياناً كالطب - على سبيل المثال - فإن قوانينه وأصوله ترشد النفس وتعددها لمعالجة الأمراض بهدف إحداث الشفاء ، لكن قد لا يحدث الشفاء لما منع ما .

لذا فمهمتنا في هذه المرحلة كمعلمين لهذا العلم - إكساب طالب العلم القواعد والأصول الخاصة بعلم الخطابة ، والتي تمكنه مستقبلاً - حال تحمله للمسئولية - وقيامه بما تخصص من أجله - كلسان للدعوة إلى الله - عز وجل - من السير على خطى راسخة ، وقواعد علمية ثابتة ، وإن تأخرت النتيجة المرجوة من دعوته في الناس لشيئ ما في الناس المهم ألا يخطئ هو الطريق تبعاً لخطأ الناس ، إذ من أعظم الخطر أن يصير المريض هو الطبيب .

ج - وقولنا [في أي موضوع يراد] نظراً لأن الخطابة لا تختص بمجال دون مجال ، أو بشيئ معين فحسب ، بل هي تتناول كل شيئ في الحياة سواء ما يتعلق بخصائص الإنسان أو ما يتعداه إلى غيره ، فهي إذا

شمولية الموضوع بخلاف غيرها من العلوم أو الصناعات الأخرى ، فمثلاً اللغة تنظر في ضبط الكلمات وأصولها والطب ينظر إلى جسم الإنسان والحيوان من جهة الصحة والمرض ولهذا فطن الأقدمون إلى هذا - وهو إن دل على شئ؛ فإنما يدل على خطورة الخطابة وأهميتها - فيقول ابن رشد نقلاً عن أرسطو " إن الخطابة ليس لها موضوع خاص تبحث عنه بمعزل عن غيره ، لأنها تتناول كل العلوم والفنون ولا شئ؛ قط حقيراً كان أم جليلاً معقولاً كان أو محسوساً إلا ويدخل تحت حكمها ، ويخضع لسلطانها " .  
ومن أجل هذا قال بعض الباحثين في شأنها : " يلزم أن يكون الخطيب ملماً بكل العلوم والفنون ما استطاع ، وأن يسعى دائماً إلى أن يزداد كل يوم علماً " .

أو لم يكن هذا هو دعاء لسان الدعوة الأول - سيدنا - محمد - ﷺ -  
امتثالاً لما أمره الله - عز وجل - به في قوله تعالى [ وقل رب زدنى علماً ] ؟  
وعلى هذا فالخطيب الذى يمكن أن يكون بحق لساناً للدعوة إلى الله - ما التزم بأصول الخطابة وقوانينها - هو الرجل الموسوعة الدوب الجاد ، كثير المطالعة ، سريع البديهة ، حاضر العصر ، متوقد الذهن ، حاذق الفكر سديد الرأى ، قوى الحجّة ، مكين الدراية متين اللغة ، ظاهر الفطنة .  
أو لست معى من البداية فى أنها مهمة تحتاج إلى رجال ، خصوصاً إذا ما فقهننا - خلافاً لما هى عليه فى واقع الأمر الآن - إنها رسالة وشرف لا

وظيفة وتترف ؟ إنها مهمة الأنبياء قبل ، فأين ورتثهم ؟؟ .

#### وخلص القول في تعريفات الفلاسفة :

أنهم اعتبروا الخطابة علماً له أصول وقوانين تمكن الدارس لها من التأثير بالكلام ، وتعرفه وسائل الإقناع بالخطاب في أى غرض من الأغراض الكلامية ، وأنه يعنى بدراسة طرق التأثير ووسائل الإقناع ، وما يلزم أن يكون عليه الخطيب من صفات وأداب وإلمام بميول السامعين وما ينبغى أن تكون عليه أساليب الخطبة وترتيب أجزائها ، ومن ثم فهذا العلم بما يضمه من قواعد وأصول هو نور يهتدى به كل من لديه استعداد للخطابة ليربى ملكته وينمى استعداده وموهبته .

#### تعريف الخطابة في اصطلاح الأدياء :-

عرف الأدياء الخطابة بأنها " اسم للكلام المنثور سجعاً كان أو مرسلاً " وقالوا أيضاً : " هي القاء الكلام المنثور مسجوعاً كان أو مرسلاً لاستمالة المخاطبين إلى رأى أو ترغيبهم فى عمل " .

#### تعريف الخطابة فى اصطلاح المناطقة :

أما عند المناطقة فقد عرفوها بأنها " قياس مؤلف من مقدمات مقبولة لصدورها مما يعتقد فيه ، لاختصاصه بمزيد عقل ، أو تدين " .  
والفرق بين تعريف الفلاسفة ، وتعريف المناطقة ، فمن خلالهما يمكن أن تدرك ونعلم أن المناطقة قد نظروا إلى الخطابة من حيث تأليفها ، وأما

الفلاسفة فقد نظروا إليها من حيث ملكتها وتحصيلها .  
وأما الأباء فإنهم قد نظروا إليها من حيث أسلوب أدائها .  
**تعريف الخطابة فى اصطلاح المحدثين :**  
وكما اختلف السابقون فى تعريفهم للخطابة كذلك اختلف المحدثون من  
أساتذتنا وعلماؤنا فى تعريفهم لها ، وإن كادت للتقارب وتتلاقى على قدر  
مشترك يجمعها .  
وفيما يلى عرض لبعض هذه التعريفات :  
(١) أنها " فن مخاطبة الجماهير بطريقة القائية ، تشتمل على الاقتناع  
والاستمالة . " وهو تعريف الدكتور / عبد الجليل شلبى الذى ارتضاه ومال  
إليه .  
(٢) أنها " فن مشافهة الجمهور واقتناعه واسمالاته " وهو التعريف الذى  
قاله الدكتور / أحمد الحوفى .  
(٣) أنها " علم يقتدر بتطبيق قواعده على مشافهة المستمعين بفنون القول  
المختلفة لمحاولة التأثير فى نفوسهم وحملهم على ما يراد منهم بترغيبهم  
واقناعهم : وهو تعريف الدكتور أحمد غلوش لها .  
(٤) ويمكن لنا أن نعرفها بأنها : " العلم الذى يقتدر به على اعداد من  
يستطيع بتطبيق قواعده وأصوله توجيه الكلام المؤلف من مقدمات مقبولة  
يهدف من خلالها إستمالة المخاطبين واقناعهم ، لصدورها ممن يعتقد فيه

صحة الدين ورجاحة العقل وسلامة الفكر للربط بين المقدمات ونتائجها في شتى ميادين الحياة وامكانية توظيفها " .  
وهذا التعريف وإن كان طويلاً إلا أنه يمتاز بجمعه بين كون الخطابة علماً للدراسة والاعداد ، وكونها فنا يبرزه جانب الأداء ، وذلك لأن الخطابة ليست علماً فحسب ولا فناً فحسب ، كما أنه يمتاز بشموليته لكل التعريفات السابقة :

وبالتنبية في إيجاز على شمولية مجالاتها ، وامكانية توظيف هذه المجالات لها ، ونقصد به أن يعيش الخطيب عصره ، وأن يعيش مع الناس عصرهم فيعرف من أين ينطلق وإلام ينتهي .

#### **اوليات الإعداد:**

تقوم بدائيات الاعداد والتجهيز لخطيب المستقبل وداعية الغد على ركائز أربعة ، لا يمكن تغافلها أو تجاهلها بحال من الأحوال .  
بل لا بد من مراعاتها ، والعمل على توفيرها وإكسابها لمن يراد به سلوك هذا المجال ، وتوجيهه إليها ، وحتى يتسنى هذا فان على المعلم - المدرب أن يراعى ما يلي

#### **اولاً : العمل على بث روح الإستعداد :-**

وذلك بأن تعمل على بث الإستعداد في المتدرب والتنقيب عن درجات خلق روح الإستعداد الذاتي لدى من يتلقى على يديه :- استعداد من يرتجى صناعتهم فإذا ما تم خلق هذه الذاتية المستعدة استعداد من يرتجى . بداية ، بالإحساس والشعور بالمسئولية بدأت مرحلة جديدة أرقى ، وهي :-

الدفع بهذه الذاتية المستعدة إلى الامام بالوقوف بها على معرفة أصول علم الخطابة وقوانينه التي وضعها الحكماء في ثوب من الدراسة النظرية ، وذلك من أجل أن يتعرف المراد إعدادها على الضوابط التي ترتقى به إلى غايات ما يناط من مهام وصلاحيته للتكليف بممارسة هذه المسئولية ، وقدرته على القيام بها في إجادة وروعة تعصمه من تملق الآخرين له ، أو رغبة المستمعين عنه ، فالأصول والقوانين إذا التي وضعها العلماء والمتخصصون لهذا العلم ، هي الحكم الذي على أساسه يمكن للخطيب أن يحدد منهجه ، ويعرف ضوابطه التي تقيم صلبه ، وتتنزه عند مقاربة الدال أو الوقوع فيه وهم من ثم تدفع به إلى خوض غمار هذا المجال دون ما خوف أو فزع لأنه إنما تسير خطاه على ثوابت علمية ، وقواعد فكرية .

**ثانياً: التعرف على الأساليب الخطابية عند أبرز الخطباء ومواطن التأثير**

عندهم .

ثم تعقب هذه المرحلة العلمية - النظرية - أو أثناءها - توجهات علمية مصاحبة من جانب المتعلم - المراد اعداده - سواء في صورة سماعية - لأن القائل كالحالب والسامع كالشارب - وما تسمعه الأذن يسهل أن يحكيه أو يحاكيه اللسان - ولا شك أن الطالب النابه يتأثر بأستاذه ومعلمه ويصير منه كالظل الظليل فيقلده ويحاكيه ويتمثل أسلوبه ومنهاجه - هذا من جانب -

ويتمثل أسلوبه ومنهجه - هذا من جانب -

ومن جانب آخر - فإنه لا بد من توجيه الطالب إلى كثرة الاطلاع وقراءة أساليب العلماء والفصحاء والبلغاء ، وأرياب البيان والخطابة ، وكذا إعداد البحوث التي تتعلق بالخطابة والخطباء ، ودراسة بعض الخطب بالتعرف على مناحى التأثير ، ومواطن الإقناع فيها ، ووسائل الإستمالة ، وذلك بالتدقيق لما فى هذه الخطب المدروسة منه تحسس حانة الأسلوب ، وحسن العبارة ، ودقة الكلمة ، ومرونتها ، وجودة التفكير المعتمد أساساً على فقه الكلمة وبقظة الخطيب وسرعة يديهته وروعة ملاحظته .

ومن الأجدر والأفضل أن يعتمد فى هذا الجانب - نظراً لظروف مدة الدراسة الجامعية وقصرها - ومراعاتها للناحية الأكاديمية فحسب - أن يرتبط الجانب الذى نحن بصدد الحديث عنه - بالتدريب العملى المباشر وذلك مع وضع الحافز الشخصى فى الاعتبار للمجيد - ومحاولة إزالة الحاجز النفسى لدى الطالب - بدفعه إلى الحديث أمام زملائه وتشجيعه وإمهاله مع ضرورة أن يصحب ذلك كله الأمرين السابقين وذلك :

ثالثاً : **زرع الثقة بالنفس :-**

بإيقاظ الفطرة التى خلقها الله - عز وجل - فى الإنسان وهى قدرته على البيان والإيضاح والإفصاح عما يجيش فى صدره وبيان أن هذه ميزة اختصر الله - عز وجل - بها الانسان - كل إنسان - وفضلها بها على سائر

المخلوقات والكائنات ، وأن الإنسان هو الذى يصنع العي لنفسه بنفسه ، كما أنه هو الذى يصنع لنفسه بنفسه - أيضاً - حسن التعبير وزلاقة اللسان ، لو أنه وجه نعم الله المودعة فيه وجهتها الصحيحة ، لتؤدى مهامها التى خلقت لأجلها .

فصار ذا عين يبصر بها ، وذا أذن يسمع بها ، وذا قلب يفقه به ، وذا عقل يدرك به ويعى ، بمعنى أن يحس الإنسان بقيمته كإنسان كرمه الله - عز وجل - وقضله .

فالبيان اذن ليس كما يدعى البعض موهبة اختص الله بها إنساناً دون إنسان ، وإنما هو نعمة أنعم الله بها على كل إنسان ، وأما الموهبة فيصنعها الإنسان لنفسه بنفسه إذا هو أصقل هذه النعمة ، ونمى روافدها ، فإذا ما كان ثمة خور فى انسانٍ ما فى هذا الجانب ، فليس من حقه أن يرمى الفطرة بتلك الخيمة التى ضربها على نفسه ثم تقوِّع بداخلها ، وإنما عليه أن يعود إلى نفسه ويتدبر قول الله تعالى : [الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان] .

وهكذا بان لنا أن الله - عز وجل - قد فطر الانسان مؤهلاً ومعداً لاكتساب اللغة من الآخرين ، وأقدره على فهم مراداتهم من تطابهم إياه أو محاورتهم له وتوجيههم نحوه لتكوين ذاتيته على نمط معين من المعارف والسلوك . وكذا إقداره هو ذاته - المخاطب - على إشعار الآخرين بالتعبير



لهم واقفهامهم مراده منهم عن طريق الخطاب ، كما عرفه من الوسائل النفسية ما به يستميلهم إليه ، فيه ، أو بما يريد ، وذلك عن طريق نعمة البيان - أو الإفصاح - عما انفعلت - أو تنفعل له نفسه من أمور وأحداث . وعلى ذلك فإن أى إنسان يملك نعمة البيان ، يمكن أن يكون - بالفطرة - خطيباً على النحو الذى ذكرناه - أو - الرؤية التى ارتأيناها ، لو أنه كإنسان انتقل من مرحلة الطفولة الفكرية وكذا الطفولة البيانية - بدائيات البيان - إلى مرحلة الإستعداد والعمل على صقل الموهبة وتمييزها باكتساب العلوم والمعارف التى - إن صادفت حساً سليماً وعقلاً صحيحاً - تدفع مكتسبها إلى الإنفعال بها ولها ، وذلك حتى يتسنى له تحقيق انفعال الغير لقضايا هذه العلوم والمعارف ، والتى يرغب فى استمالة لها ، والإقناع بها . ومن ثم فالخطيب بحاجة إلى الإيمان الكامل - أولاً - بالقضية التى يتناولها قبل أن يحدث بها الآخرين ، ما إن أراد أن يؤثر فيهم ، فمن لا يزرع الشجر لا ولن يجنى الثمر .

اذن فالخطابة ليست وهبا - فحسب - حتى لا يتعلل المتعللون - وليست كسبا - فحسب - أيضا - لأن دراسة علم الخطابة ومعرفة قواعدها وأصولها - وحدها - لا تصح خطيباً ، وهو ما سنوضحه لك فيما يلى :

رابعاً تعريفه بأهمية دراسة علم الخطابة :-

ليس معنى ما سبق أننى أضع من أهمية دراسة علم الخطابة ومعرفة

أصولها أو أحط من قدرها أو شأنها ، وإنما قصدت التنبيه إلى ما هو أهم من هذا وهو التنبيه على ما يراد من دراسة علم الخطابة أو بمعنى أدق بغية مدرسية من دراسيه ، وهو ما يعنى أنى أهداف هنا إلى الغاية من دراسة هذه القوانين والقواعد التى هى للخطيب كالعواصم من القواصم ، لأن من لا يدرس هذا العلم دراسة واعية لا يمكن أن يكون خيباً وإن بدا فى الناس متحدثاً .

فإن [هذا العلم ينير الطريق ، أمام من عنده استعداد للخطابة ويربى ملكاته وينمى استعداداته ، ويرشده إلى علاج ما به من عيوب ، ويدله على طريق إصلاح نفسه .

وذلك لأنه يعنى بدراسة طرق التأثير ، والتعريف بوسائل الإقناع وما يجب أن يكون عليه الخطيب من صفات ، وما ينبغى أن يتجه إليه من المعانى فى الموضوعات المختلفة ، وما يجب أن تكون عليه ألفاظ الخطبة وأساليبها وترتيبها .

ومن ثم فإنه مما يجدر التنبيه عليه :

[أن هذا العلم ينير الطريق ، ولا يحمل على السلوك ، لأنه يرشد دراسه إلى مناهج ومسالك ، ولا يحمله أو - يضطره - على السير فيها ، هو يعطيه المصباح ، ولا يضمن له أن يرى به إذا كان فى عينيه وان أرسطو واضح كتاب الخطابة - الاول - لم يكن خطيباً] .



## الساسة "

فالخطابة إذا ذات أهمية كبرى فى حياة الأمم والشعوب والافراد والجماعات ، ومما يوضح لك ذلك أكثر وأكثر وقوفك على فضلها وعظيم منزلتها وشرفها بين العلوم ، فهى سيدة العلوم كلها لأنها لسانها المعرف بها . وصاحبها دائماً ما يكون صاحب سيادة ومكانة مرموقة ما إن قام بواجباتها كما ينبغى .

ولما كان فصل العلوم والصناعات ، واستظهار شرفها يتبع ويتوقف على شرف غايتها فإن الخطابة ذات شأن خطير فى غايتها ، وما ذاك الا لأن غايتها " ارشاد الناس إلى الحقائق ومواجهة الباطل - بالتنبيه عليها - وحملهم على ما ينفعهم فى عاجلهم وأجلهم ، والخطابة معدودة من وسائل السيادة والريادة والزعامة ، وقد كانت من شروط الامارة فهى من أساسيات كمال الانسان وسبب من أسباب رفعته إلى المجد ؛ أ رأيت كيف أن الخطابة شرفها جسيم وفضلها عظيم ؟

فهلا كنت واحداً من أرباب هذا المجد الشامخ فى سماء العلوم وذروه  
سنام الفنون ؟

## [ رابعاً :- تعريفه بالفوائد المتحصلة من دراسة هذا العلم - ]

ان من أهم ما ينبغى إظهاره لطالب هذا العلم أن توقفه على فوائد

دراسته له ومعرفته لدقائقه وأصوله أن دراسة علم الخطابة توقف الدارس على :

" معرفة كيفية امتلاك القلوب ، واستمالة النفوس ، وتهيج المشاعر ، وإثارة العواطف الكامنة الهادئة ، نحو مراده من مستمعيه فيمعارفها تستضيئ موارد الدليل ، وتتضح مصادر الحجة لإنفاذ كل أمر جلل وجليل وإدراك كل غاية شريفة ، ويقوائنيتها يترشد الطالب إلى مواطن الضعف وشعب الشهو والزلل ، فيقوى على دحض حجة المناظر وتزييف سفسطة المكابر .

كما أنها من جانب آخر تثير الحماسة في النفوس الفاترة ، وتهدي النفوس الثائرة ، وهي التي ترفع الحق وتخفض الباطل ، وتقيم العدل وتدفع المظالم ، وهي التي تهدي الضال إلى سواء السبيل ، وتفرض النزاع وتقطع الخصومات " .

ومن من شك في أن الخطيب البارع النابه ، والعالم المتحدث الفذ هو الذي تبرز قوته ودقته ومدى استفادته من دراسة علم الخطابة بالتعبير عن ذلك بفيئة الوقوف بين ذوى الإتجاهات المختلفة والأفكار المتضاربة ، والآراء المتناحرة ، فلا يزال يبين لهم النافع من الضار والصواب من الخطأ حتى يجعل الجميع في قبضة يده ، والخطيب البارع يقوم بين طائفتين استعرت بينهما نار العداوة والبغضاء فيذكرهم بعواقب فساد ذات البين والتقاطع ،

وما يجره عليهما طول أمد الخصومة ومن ثم فهو يسلك معهم سبيل التحذير والترهيب من مغبة هذا البغض وتلك العداوة ، وما يجر عليهما بسببه من نتائج سيئة ثم يرغبهما فى الصلح وما له من فضل وثواب عند الله تعالى ، ويراعى فى ذلك كله الصبر والمثابرة - اذا المهمة صعبة والطريق إلى تحقيق المراد شاق ومليئ بالاشواك والفتن وذرائع الشيطان - فإذا ما تم ذلك لم تلبث القلوب إلا أن تصفو متألفة والنفوس متأخية صالحة .

فماذا لو أدرك الداعية - إذا - مسئولية الكلمة التى يوجهها للناس أو أن أردت صواباً فقل يوجه الناس إليها أو بها ، ثم ماذا لو وضع اعتباره - جيداً - نوعية من يتحدث اليهم ، من حيث مستوى التعليم والثقافة والبيئة ، وتقييم الوضع الاجتماعى والنفوس وأهم من هذا كله درجة الوعى الدينى أو مستوى الوعى الدينى والتربية العقدية ؟

إذا لبانت أكثر وأكثر ضرورة وقوف من يتصدى لمهمة توجيه الناس على أصول وقواعد وقوانين علم الخطابة ، ولبان لك أيضاً فائدة دراستها ، وثمره معرفة أصولها .

ان الداعية يخاطب كل الناس ، والناس مختلفون فى ذواقهم وأهدافهم فلا بد أن يكون أعلم منهم ، يطل بثقافته الواسعة عليهم جميعاً ويلاحقهم بمعرفته بطبائع النفوس " التى يتمسك بأعرافها وتقاليدها ها إلى حد الدفاع عنها ، ومهاجمة من يحاول النيل منها .

[ومن ثم فالحكمة تقتضى مسaire الداعية - الخطيب - لهذه الطبايع ،  
وملازمتها بالرفق واللبل دون أن ينماع معها - وصولاً بها إلى إعلان  
شعائر الإسلام ، بعد أن تكون النفوس المخاطبة من قبله قد تهيأت  
للغراس الجديد .

وعليه عانه لا يفوتنى هنا أن أنبه من يرتجى تحقيق الثمرة فيهم ،  
بأنهم حتى وهم يستخدمون أساليب البيئة ليخاطبوا الناس على  
قدر عقولهم ومعارفهم وفي نطاق مشاكلهم وقضاياهم عملاً بحدِيث  
الرسول - ﷺ - الذى يقول فيه " خاطبوا الناس على قدر عقولهم " -  
ألا يتناولوها حرفياً كما هى فى واقع الناس ، بل أنهم ينبغى عليهم  
أن يتمردوا عليها من داخلهم ويختارون منها القدر المحقق لاغراضهم  
وأهدافهم كدعاة إلى الله ، وبلا زيادة توحى بذويانهم فى قيم الناس  
الزائفة .

ويمكن أن نستشهد على قولنا هذا بحدث من سنة رسول الله - ﷺ -  
وسيرته وهديه وطريقته المثلى فى الدعوة إلى الله عز وجل " وذلك "  
عندما استعمل النبي - ﷺ - وسيلة القوم أنفسهم فى تنبيههم  
واعلامهم حين ناداهم من فوق جبل الصفا قائلاً " واصحابه " أو "  
ياصحابه " وتلك كانت صيحة القوم لحظة الخطر إلا أنه لم يتابعهم فى بقية

ما اعتادوه في مثل هذا الظرف ، فلم يتجرد من ثيابه ، كما كانوا يتجردون ، ولكنه استعمل الطريقة فقط بالقدر اللازم ليجمع الناس - أى بمقدار وإلى حين - وبذلك بقيت شخصيته حتى وهو يتحدث إليهم ويخطبهم ويتلطف بهم متميزة ، محتفظة بخصائصها وأصولها بريئة من وصمة الامعية والتبعية والتقليد الاعمى وهى أولى وأخطر سقطات الداعية الخطيب ، التى تدمر دعوته وتسقط من الازهان كلمته وتبيد من النفوس سلطانه وبراعته .

اذن لا بد من مراعاة الخطيب الداعية لمقتضى الحال - أن أردنا للخطبة عهداً جديداً يمكن فيه لها من الازدهار والقيام بما هو مرجو منها - وكذا مسايرة أساليب العصر وتسخير علومه ومعارفه لخدمتها ونشرها شريطة أن تبقى أصول الإسلام وفروعه بعيدة عن حلبة الصراع وليعلم جيل الدعوة الجديد أن الناس ليسوا فى حاجة إلى وحى جديد أو دين جديد أو شريعة جديدة ، وليعلموا أيضاً أن الجماهير المسلمة وغير المسلمة قد ملت وسئمت من الأساليب القديمة وما عادت تجدى معهم نفعاً ، ولا تجلب ثمراً ، فماذا يلزمهم إذا ؟

إنهم فى حاجة - فقط - إلى داعية يخاطبهم بلغة العصر الذى يعيشونه



يقرب لهم البعيد ويوضح المبهم ، ويضرب لهم الأمثال ويوظف لهم القرآن  
إن الدعوة بحاجة إلى عرض جديد ، ولا أقول من جديد ولا يصل الداعية  
الخطيب لهذا الذى يرقوه منه ، وهيئات أن يصل إلى هذا المستوى إلا إذا  
شمر عن ساعد الجد بيقين وصدق ، متوجهاً بكليته نحو الإيمان الصادق  
المانح رجاله بصيرة كاشفة تتلمس العلة وتجيد تركيب الدواء ، ليتم الشفاء ،  
فد [يهدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السّلام ويخرجهم من الظلمات إلى  
النور بأذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم] .

## الفصل الثاني:

### الخلفية التاريخية للخطابه وبرز خطباء كل عصر

#### الخطابة عبر العصور:

إن الخطابة العربية هي التي تعيننا في المقام الأول من هذا الحديث ، ولكن لا بكل الحديث عنها إلا بالمام بفكرة عابرة عن الخطابة لدى الأمتين القديمتين أمة اليونان وأمة الرومان ، ذلك أن الثقافة الأدبية لهاتين الأمتين كانت هي الاساس الذي قامت عليه النهضة الحديثة في أوروبا ، وشاعت عناصرها في ثقافات البلاد الأوربية كلها " وانبثت في برامج جامعاتها : انجليزية وفرنسية وإيطالية وألمانية وغيرها ، ثم قبض لها أن تترك آثاراً كبيرة في الشرق .

أما الثقافة اليونانية فكانت ولا تزال أساس الفكر الإنساني في مختلف جوانبه ، وقد بلغت ذروتها في القرن الخامس قبل الميلاد وظلت الثقافات كلها تتفرع منها بالإمتداد والتوليد والمعارضة حتى أن البحوث الذرية المستحدثة تجد لها جذوراً في الفكر اليوناني .

وأما العهد الروماني فكان امتداداً وتقليداً للعهد اليوناني ، والتجديد فيه قليل جداً ، وكانت اللغة اليونانية تستعمل كلغة رسمية في كثير من البلاد في العهد الروماني ، وذلك أن الإسكندر المقدوني حين مد فتحاته في الشرق نشر معها فكر اليونان ولغتهم ، وكان يصحبه أستاذه أرسطو يلقي

محاضراته ويميلها على طلابه وأنشأ الإسكندر عدداً من المدن تحمل اسمه وتنسب إليه . بقيت منها أسكندرية مصر .  
فلما حلت روما على اليونان لم يكن من الهين عليها ولا في اتجاهها أن تمحو اللغة اليونانية أو تزيل ثقافتها ، بل إن الفكر الروماني لم يكن إلا صورة من الفكر اليوناني . ولكن حكم الرومان شمل مساحات من الأرض أوسع بكثير مما شمل حكم اليونان ، وامتد أيضاً إلى زمن أطول . وظهر فيه فلاسفة وكتاب وخطباء وساسة لا تزال أسماءهم بارزة ولامعة في التاريخ الإنساني العام وكان في ذلك كله منه للفكر اليوناني .  
لهذا يعنى دارسوا الأدب يدرس الفكر اليوناني والروماني .  
ونحن نعرض هنا معلومات عامة عارضة لاستكمال الحديث عن الخطابة .

## " الخطابة عند اليونان "

### توطئة -

قضت البلاد اليونانية ردحا طويلاً من الزمن وهي قبائل مفككة تكاد كل قبيلة أو جماعة منها تكون مستقلة عن الأخرى ، وبينها تنافس وسباق على أسباب العيش ووسائل الحياة ، ولم تكن هذه القبائل ترجع إلى أصل واحد ، ولكنها أجناس شتى نزحت إلى هذه الجزر ولم يربط بينها إلا المجاورة واشتراك الأعمال . وخلال عدد من القرون ظلت هذه القبائل تتقارب وتتخذ على نحو ما تسف الياذة هوميروس . والالياذة على ما يكسوها من خيال وتصورات وتعبيرات شعرية هي كتاب اليونان المقدس ، وكما يقوم العهد القديم بتسجيل تاريخ الاسرائيليين ، تقوم الالياذة بتسجيل تاريخ اليونان . ومن أحداث تاريخهم البارزة قيام التنافس بين أتينا واسبرطة ، وقد اشد هذا التنافس حتى أدى إلى حروب لم تنته إلا سنة ٤٠٤ ق . م . وكانت نهايتها هي استسلام أتينا وزعامة اسبرطة على البلاد اليونانية كلها . ولكنها لم تعمر طويلاً مدينة طيبة مقامها سنة ٣٧١ ق . م ، وهذه أيضاً لم تعمر طويلاً فانتتهت سنة ٣٦٢ ق . م . وكان ذلك بظهور فيليب المقدوني والد الاسكندر الأكبر ، فقد شن حرباً على كل من طيبة وأتينا وهزمهما ، فانتقلت الزعامة إلى مقدونيا ولكنه ملت سنة ٣٣٦ ق . م حين كان يستعد لغزو الفرس ، فقام ابنه الاسكندر بتحقيق

كل ما كان لأبيه من آمال .

جال الاسكندر الأكبر فى أطراف الشرق الأوسط ما بين مصر وحدود الهند ، ثم مات فى يابل عام ٣٢٣ ق . م وكان عمره ٣٣ عاماً أى أنه حقق كل هذه الفتوحات فى نحو ثلاث عشرة سنة ، إذ هو تولى الحكم وعمره عشرون سنة .

من هذا نجد أمرين ظاهرين فى حياة اليونان :

**اولهما:** أن هذه البلاد وهى مهد العبقريات ومشرق الفلسفات ومنبت الفكر الإنسانى فى أنحاء العالم كله ، فشلت فى جانب سياسى عظيم ، وهو توحيد بلادها وجمع ولاياتها تحت تاج واحد .

**وثانيهما:** أنها تبعا لهذا الفشل قضت نحو ستة قرون فى حروب محلية بين قبائلها المختلفة ، ولم تحقق فى هذا المدى الطويل ما حققه الاسكندر فى زمن قصير .

#### دوافع الخطابة عند اليونان ومكانتها:

والخطابة تنضج وتقوى عادة فى أيام الحروب والمشادات . وقد اعتمدت الحروب اليونانية فى شتى مواقفها على الخطابة ، ولهذا ظهر هناك خطباء لن ينساهم التاريخ . من هؤلاء " سولون " الاثنين وهو شريف وتاجر ثرى ، ظهرت مهارته الخطابية فى حرب قامت بين " أتينا " و " مجارا " بسبب تنازعهما على امتلاك " سلاميس " فقام هذا الرجل يستنفر قومه بالخطابة وبالشعر ، فاستولى على قلوبهم وأثار حميتهم ، وقد أحبه الشعب وأسلس له

القيادة وكان يمثل الديمقراطية بأجلى معانيها ، وهو إلى جانب خطايته الحربية مشرع وصاحب منهج اصلاح ، وقد توج أعماله بتنازله عن - سلطاته الحكومية عندما تمت مشروعاته الاصلاحية ، ولا تزال صور من خطبه محفوظة فى الآثار اليونانية وهى تمتاز ببلاغتها وقوة تعبيرها وعمق معانيها .

ولما قام فيليب المقدونى بحركته السياسية ، كان يريد أن يتحالف مع الأتنيين وأن يربط له بهم صداقة ، ولكن الخطيب الشهير " ديموستثيس " كان ضد هذا الرأى ، وضد فيليب ، فشن بخطبه عليه حروباً لم تكن أقبل من حرب الجيوش المسلحة ، وخطبه هذه فى نظر المؤرخين من أبلغ ما لف الاغريق من خطب ، كما أنها اتخذت نماذج يحتذيها الخطباء .

وإذا نحن رجعنا إلى الالياذة نجد الخطابة اتخذت فيها مكانة قوية ، فهن ميزة من ميزات أبطالها ، وهى التى أبرزت مشاعرهم وصورت أحاسيسهم ، كما نجد الفلاسفة والمؤرخين اعتمدوا عليها فى اقناع الجماهير ، مما يدل على أن الخطابة كانت ذات مكانة فى حياة اليونانيين واخلاقهم .

#### نشاط الخطابة والسوفسطائية :-

وعندما سادت الديمقراطية بلاد اليونان وشاعت الحرية السياسية وأبيع لكل فرد أن يعلن رأيه ويدافع عنه ، وأن يقترح على الحكومة ما يشاء نشطت

الخطابة وشعر الأفراد بحاجتهم إليها ونشأ بينهم معلمون يعلمون الخطابة والجدل ويديرون على حسن الحديث ومحاولة كسب الجولة في تأييد رأيه .  
وظهرت طائفة السوفسطائيين يديرون على الجدل والمغالطة ، وكان لعملهم لوانان مختلفان ، أولهما : افساد المنطق والجنوح إلى اقناع الناس والحكام بأدلة كثيراً ما تكون مضللة ولكنها تستهوى السامعين . وثانى اللوئين لعملهم أنهم شجعوا الخطابة وأشاعوها وجعلوها فنا مستقلاً له قواعده وأصوله وكان سقراط - والد الفلسفة - أول أمره واحداً من السوفسطائيين ولكنه أنف من طريقتهم وأبغضها فأخذ على عاتقه أن يعلم الشاب المنطق وأن يربط بين النتائج والمقدمات . واعتمد سقراط في عمله على الحوار الهادئ والقاء الأسئلة الساذجة ، ثم اعتراضه على الاجابة حتى يهتدى الذى يحاوره إلى الإجابة السليمة . وكان هذا الحوار نوعاً آخر من الخطابة أثارها بين أتباعه وأتباع السوفسطائيين .

#### نموها وازدهارها :-

وخلال مائة عام أو من نحو سنة ٤٢٠ إلى سنة ٣٢٠ ق . م كانت الخطابة اليونانية فى قمة ازدهارها رواجاً وسمواً واتقاناً . وتميزت بوضوح الاتسام الثلاثة التى سبقت وهى خطب المحافل ، وأشهر أصحابها هو " جريجياس " الذى برع فى عدد من أنواعها ، والخطب القضائية وكان على محترفيها أن يجيدوا أعدادها وأن يلقنوها أصحابها من المتقاضين ، فكان

هذا تعليماً واتقاناً للخطابة وأشهر القائمين بهذا العمل هو " لوسياس  
الذى سنذكر ترجمة له .

. وازدهرت الخطابة السياسية ازدهاراً أوسع ابان الصراع بين أثينا  
ومقدونيا ، إذ انقسم الأثينيون على أنفسهم قسمين ، قسماً يؤيد قيام فيليب  
واعتباره يونانياً ، وقسماً يعارض أثينا لحكومته .  
وهكذا سجلت الخطابة اليونانية صور الحياة فى اليونان واتجاههم  
الفكرى كما سجلت بلاغتهم وسمو أساليبهم .

#### أسباب رقى الخطابة اليونانية :

نجل أسباب رقى الخطابة وتقدمها عند اليونان فى الأسباب الآتية :

##### أولاً : الحروب والثورات :

ما نذكرناه من اتصال الحروب والمناوشات ، وهى حالات تدعو إلى تأييد  
رأى وتقنيد رأى ، وتشجيع المحاربين وأثرة الجماهير .  
وهكذا فهى مواقف تقوم على الخطابة وتعتمد عليها ، وكل ذلك يدعو إلى  
تجويد الخطابة ولظهور الخطباء .

##### ثانياً : الوضع السياسى :-

فى الوقت الذى كانت أثينا فيه تعد نفسها اعداداً عسكرياً بحتاً ، كانت  
اسبرطة مركزاً فنياً عاماً ، نشطت فيه التمثيليات والفنون والخطابة والادب ،  
والتمثيليات والمسارح ليست إلا منابر للخطابة فكان فى كلتا المدينتين نهضة



خطابية وتدريب على حسن الالقاء .

ثالثاً : الحرية وبورها فى ازدهار الخطابة وعند اليونان :-

الخطابة فى ظل الحرية :-

كان نظام اليونان السياسى مشجعاً أيضاً على الخطابة فكانوا إذا عرض أمامهم رأى من الآراء قام صاحبه أو مؤيده بتقديم حججهم ، وتوضيح الاسباب التى تدعو إلى تشريعه أو رفضه ، فساداً انتهى الخطباء المؤيدين والمعارضون من خطبهم طلب من الحاضرين أن يعلنوا رأيهم ، والجماهير عادة تتأثر ببلاغة الخطيب وبيانه أكثر مما تتأثر بحججه المنطقية ، فكان الخطباء يتبارون فى تنسيق عباراتهم ، واختيار اساليبهم المجازية ، والفاظهم المؤثرة الجذابة كى يجتذبوا مشاعر الجماهير ويستميلوهم اليهم .

رابعاً : النظام القضائى فى اليونان القديمة :

كان النظام القضائى يؤدى مثل ذلك أيضاً ، فقد كان مجلس القضاء يتكون من عدد من القضاة يزيدون على المائة ويلح أيضاً عند الرومان نحو أربعمائة ، وهذا العدد الكبير يجعل القضاة جمهوراً ويجعل المحامين يسلكون سبيل التأثير فى عواطف القضاة ويهتمون ببلاغة الخطبة أكثر من روحها القانونية ، فكان ذلك مدعاة إلى نهضة الخطابة لانها هى التى تحقق للمتقاضين ما يريدون .

يضاف إلى ذلك أن القضاة كانوا حكاماً ومشرعين ، وليسوا فقط مطبقين

للقانون الموضوع ، فاذا استمالهم المحامى باسم العدالة العامة والشفقة إلى شئى يخالف القانون عدلوا عن نص القانون ، ووضعوا تشريعاً جديداً أو سبباً عاماً للحكم الذى يريدون .

#### خامساً: نظام المرافعات والدفاع عن النفس وظمور المنطق :

كان النظام اليونانى يقضى أن يدافع كل شخص عن نفسه ولم يكن لديهم نظام توكيد محام بمهمة المرافعة ، وقد اضطر هذا النظام جمهور الشعب أن يتعلم الخطابة ويتدرب عليها ، وكان هناك معلمون يعلمون الناس الخطابة وطرق التأثير فى عواطف السامعين والاستيلاء على مشاعرهم ، وكان الشبان يتعلمون الخطابة ويتدربون عليها استعداداً لما عسى أن يواجههم من مواقف السياسة والقضاء ، ونشأ عن هذا جماعة السوفسطائية الذين برعوا فى تغيير حقائق الأشياء وتحويل أذهان الناس إلى ما يريدون لا إلى ما تتطلب الحقائق ، وهؤلاء هم الذين حاربهم سقراط ، وعمل على تعليم الشباب المنطق والبحث عن حقائق الأشياء من أجلهم .

هذا النظام كما هو واضح نظام سيئ فى جانبه السياسى والقضائى ، ولكنه شجع على تعلم الخطابة ورواجها [ومن خطباء اليونان الخالدين " سولون " الذى ذكرناه من قبل " ثم " بريكليس " و " ديموستينيس " .

### أبرز خطباء اليونان :

#### نهضة تاريخية عن بريكليس .

ولد " بريكليس " فى أثينا سنة ٤٩ ق . م أو نحوها ، من سياسى مشهور له مواقف وطنية مشرفة ، وتلقى ثقافته على مشهورى عصره ، علمه " زينون " البلاغة ودرسه على قوة الجدل وإدارة الحوار والتغلب على مناظريه ، كما تلقى الفلسفة عن الفيلسوف الكبير " أناكساغوراس " كما أخذ بحظ كبير من الموسيقى والفنون الجميلة . ونشأ ، بريكليس " هادئ الطبع ميالا إلى التفكير العميق محبا للديمقراطية وذلك فيما يبدو من أثر درسه الفلسفة .

وقد شهد فى سباه ذلك الصراع العنيف بين أثينا واسبرطة كل تريد انتزاع زعامة البلاد لنفسها ، وبرز فى أثينا اتجاهان متضاريان أحدهما يدعو إلى مسالة البلدين وتجنب الخصام ، وتزعم الدعوة لهذا الرأى خطيب سياسى يدعى " سيمون " أو " كيمون " وفريق آخر اعتنق الاتجاه المضاد وهو احتفاظ أثينا بالزعامة ولو أدى ذلك إلى اعلان الحرب والانغماس فيها ، وكان على رأس هذا الحزب " تموستوكس " وفى عام ٤٧١ ق . م هزم هذا الزعيم واقتضت هزيمته أن عن أثينا وقام مقامه " برسكليس " وأخذ يدعو إلى مبادئ حزبه - الحزب الديمقراطى - فبهر الناس بخطابته وشعر " سيمون " رئيس الحزب الارتقراطى أنه أمام خصم أقوى من سابقه ، وما

زال " بريكليس " يترقى فى حزيه حتى آلت إليه زعامته والتف الجمهور الاثينى حوله فصد لخصمه عشرة أعوام أبعد " كيمون " بعدها عن أثينا أيضاً .

امتدت زعامة بريكليس نحو ثلاثين عاما من ٤٦٠ - ٤٣٠ ق . م .  
وتعتبر هذه المدة من العصور الزاهية الجميلة فى أثينا ، لأن ابريكليس متعها بنظم ديمقراطية مبتكرة كما أنهض الفنون الجميلة وبنى الابنية الفخمة ، ومنها مبنى الاكروبوليس الذى لا يزال له آثار باقية إلى الآن وهو معبد البارثينون الذى زينه الفنان " فيدياس " برسومه الرائعة والمعبد على رأس جبل يؤمه آلاف السياح الآن ، وقد أقاموا خارجه تمثالاً للالهة أثينا وضعوه على ارتفاع سبعين قدماً وعلى مقربة من الاكروبوليس بنى مسرح كبير يسع ثلاثين ألف شاعر ، وفيه مثلت الروايات التى أبدعها مشهورو الشعراء اليونان مثل " اسخيلوس " و [ " سوفوكليس " ، و " أريستوفان " وغيرهم ممن لا يزال الادب العالمى يجعل بأعمالهم . وهو مسرح " ديونيسيوس " أو الأديون .

كان عصر " بريكليس " عصر وديمقراطية وكانت اسبرطة اذ ذاك تعد نفسها اعداداً عسكرياً ، فلما مات " بريكليس " انفرجت مسافة الخلف بين البلدين وجثت أثينا تحت أقدام خصومها ، وكانت حياته بسبب قوته

الشخصية والتفات الناس حوله ستاراً يخفي حقيقة أئينا ، وكان له اهتمام بالبحرية ، وكان أسطوله الكبير يتجول فى بحراىجة فيبهر سكان الجزر ويزيدهم تعلقاً به ، ولكن يبدو أن أعماله البحرية كانت أيضاً من نوع الفن والجمال ، دريت الشباب على السباحة والأعمال البحرية ولكن لم تكتسب مجداً حربياً .

ومهما يكن الأمر فقد كانت بلاغة " بريكليس " وقوته الخطابية كمن أهم أسباب نجاحه ، وقد أدت ديمقراطيته إلى ظهور خصوم مناوئين له ، فكانوا يطعنون جهازاً فى سياسته ویتهمونه بتدبير أموال الامة وكان هو بدوره يبادلهم الحجج ويناطحهم بالخطب الطنانة التى كان يلقيها ، فيسحر بها مسامعيه ويستهوئى قلوبهم .

وتوجد الآن باللغة الانجليزية مجموعة من خطب " بريكليس " ولا بد أن يكون فى اللغات الأخرى صور منها ، أو مجموعات غيرها وهى فى ترجمتها لا يمكن أن تنقل روح البلاغة الأصلية التى كتبت بها ولكنها تعكس جدلاً منطقياً وروحاً فلسفية تعتمد على المنطق واقامة الدليل .

ومات " بريكليس " سنة ٤٢٩ ق . م فى طاعون تفشى فى البلاد ، وذهب بعدد كبير من سكانها وذهب فيمن ذهب اخت لبريكليس وابناه ثم قضى عليه أيضاً ، وأحدث موته فراغاً واسعاً فى سياسة أئينا ، وانحطت درجة الخطابة بعده ، وقام مقامه عدد من صغار الخطباء والسياسيين اثبتت

الأحداث فشلهم وضعفهم الفكرى والخطابى والسياسى .

نبذة تاريخية عن ديموستينيس :

ولد هذا الزعيم العظيم فى أثينا سنة ٣٨٤ ق . م ومات سنة ٣٢٢ ق . م وهو من رجال السياسة والكفاح من أجل أثينا ، وساعده فى كل أعماله ما له من مقدرة خطابية ، وما امتاز به من لسن وبلاغة . نشأ " ديموستينيس " بتيما ، ولكن يظهران يتمه ومعاناته منذ صغره ، ووقوعه تحت ظلم اقاربه مما أنضج عوده ، ودربه على الاعتماد على نفسه أولا ثم حبه للكفاح والمعارك ثانيا ، وقد ترك له أبوه ثروة كبيرة اغتال أوصياؤه جانباً منها ، فلما شب وادرك قاضى هؤلاء الاوصياء ليسترد حقوقه المغصوبة ، وظهرت براعته فى ميدان المحاماة كما ظهرت فى الميادين الأخرى .

مالت نفسه منذ صباه إلى الخطابة فأخذ يعد نفسه لها زغم ما كان به من عيب خلقى يحول دون نبوغه فيها ، فقد كان ألثغ ثقيل اللسان لا يكاد يبين حروفه ، وكان الناس يضحكون منه ويسخرون من خطابته ولكنه بذل جهداً كبيراً جداً فى تعويد لسانه على النطق والابانة ، ومن محاولاته أنه كان يحبس نفسه الايام والساعات الطويلة وهو يقرأ بصوت جهير ولهجة خطابية تصحبها الاشارات والانفعالات كأنه يخاطب جمهوراً ونحافى فى هذا منح العرب ، فقد كان من يعتزم حفظ القرآن مثلاً يقيد نفسه بالحديد

ويعتزل الناس وكان " ديموستينيس " يلق نصف رأسه فلا يستطيع أن يبرز للناس فى هذه الحالة ومن محاولاته أيضاً أنه كان يذهب إلى البحر ويضع فى فمه حصاه ، ثم يقف ليخطب محاولاً إبراز حروفه وتجويد كلماتها رغم وجود الحصاة فى فمه ، وبهذا قاوم ما به من عيب خلقى ، وكان يتخيل الامواج جموعاً معاشدة ، تسمع إليه ، فيظل يخاطبها ويهيب بها أن تفعل كذا أو كذا وكل هذه المحاولات خلقت منه خطيباً كبيراً . وهو فى فاتحة حياته درس القانون ودرس الخطابة واتخذ منهما معا عوناً له فى مقاضاة خصومه والدعوة إلى مذهبه السياسى .

#### سياسته :

وكان مذهبه السياسى يقوم على الدعوة أن تكون أثينا زعيمة البلاد اليونانية وأن تقوم زعامتها على العمل لنفع اليونانيين جميعاً ومرجع هذه النزعة لديه ولدى من سلخوا هذا المسلك قبله ترجع إلى التعصب للعنصر الايونى الذى ينتمى إليه أهل أثينا ، بينما ينتمى أهل اسبرطة إلى الدورين وكانت اثينا بحق مهدا للديمقراطية بينما كانت اسبرطة تتسم بالارستقراطية . أما سائر البلاد والجزر فكان سكانها من جنسيات أخرى ، وكانوا فى أغلب الأوقات المستقلين ، وأحياناً ينضمون إلى إحدى المدينتين الكبيرتين ولكن لم يستهواهم أحد ما استهواهم ديموستينيس .

### معارضته لفيليب :

عاصر " ديموستينيس " قيام فيليب المقدوني والد الاسكندر ، وقد قدمنا أن فيليب كان يريد تحاشي الحروب ، لكن ديموستينيس كان يرى أنه حاكم مستبد وأنه يريد فرض سلطانه على اليونانيين ، كما يرى أن حكم المقدونيين حكم عنيف بعيد عن الديمقراطية والعدالة ، وأن حكم اليونان هو الحكم الانساني العادل ، وقد اعتمد كل من الرجلين فيما اعتمد على الخطابة ، وكانت خطبيهما أشبه بالنقائس . كل يدعو لفكرة ضد فكرة صاحبه ، وكل يدعم رأيه بالادلة ويدحض رأى صاحبه وكان " ديموستينيس " يحرص على فيليب ويحذر من وقوع أثينا تحت يده وتنازعا معا مدينة ثيبة كل يسعى لضمها إليه ، فلما ذهب إليها ديموستينيس وجد أعوان فيليب قد سبقوه إليها ولفتوا أذهان الناس إليهم بخطبهم ، ولكنه أظهر مهارة خطابية رائعة ردت سكان ثيبة آليه ونجح في مسعاه إذا انصت المدينة إلى أثينا وأيده نصره الخطابى نصر آخر حربى هزم فيه فيليب وجيشه .

وخطبه فى كل هذه المحاولات تعرف باسم الخطب الفيلىبية .

ولما تولى الاسكندر الاكبر مركز أبيه لم يثبت اليونان أمامه .

فاختار ثمانية من الخطباء لقتلهم كان ديموستينيس أحدهم ، وأظهر الاسكندر نبلا عظيماً إذ عفا عنهم جميعاً ، لكن ديموستينيس ظل على رأيه فى عداة الحكم المقدونى ، فلما مات الاسكندر قام هذا يدعو من جديد إلى



معاداة المقدونيين ولكنه سياسته فشلت ، وفقد مكانته فحكم عليه بالاعدام ، ورأى هو أن يفلت من هذه العقوبة فتجرع السم ومات سنة ٣٢٢ ق . م . ولكن خلدته آثاره الخطابية .

يعتبر " ديموستنيس " خطيب اليونان كما يعتبر " هوميروس " شاعراً وشخصية هوميروس غير مقطوع بوجودها ولكن ديموستنيس مقطوع بوجود أعماله حقائق تاريخية .

كان خطيباً سياسياً واجتماعياً وخطيباً قضائياً ومعلم خطابة وكان لخطبه ميزة خاصة هي فخامة الأسلوب واختيار الالفاظ مع بساطة الموضوعات والفكرة ولا تزال له آثار باقية ، وتعتبر خطبة نماذج يحتذيها من يريدون اجادة الخطابة .

#### نهاية ديموستنيس :

كان ديموستنيس شديد الاعتداد بوطنه ، شديد التمسك بوطنيته وعقب موت الاسكندر ، قام بحت المدن الاغريقية على الاتحاد والتماسك ، ثم حرب الفيليين للتخلص من حكمهم واستطاع أن يثير شعور مواطنيه وهو في غربته ، ولما عاد إلى أثينا استقبل استقبالاً رائعاً ، وحفه موكب كبير من الميناء إلى المدينة ، وقامت بذلك حرب تعرف بالحرب اللامية . فلاقى أول أمرها نجاحاً ولكن القائد الفيليين انتياتن آباد القوات الاغريقية في موقعة كرانون وصدر أمر بقتل ديموستنيس ، ولكنه هرب إلى معبد بوسيدون في

بعض الجزر ، وتابعه رسول من انتياتن ليرده فأخذ الرسول وكان م ،  
المثلين المسرحيين فأخذ يغيره ويمنيه ، لكن ديموستنيس قال له : " ان  
وعودك لا يوثق بها " فهاد يهدده فأصر ديموستنيس على موقفه لأنه يدرك  
عاقبة استسلامه أسيراً لأعدائه ، فطلب من الرسول أن يمهلته حتى يكتسب  
بضعة سطور ، ثم غافله وامتنص مما كان فى طرف قلمه ، وأراح رأسه على  
يديه كما لو كان يفكر ، ولما استحثه الرسول على النهوض معه قال له : لقد  
أن وقتك لتلعب دور كريون لترمى بجسدى دون أن تدفنه ثم أخذ يخاطب  
بوسيديون :

" أيها المعبود بوسيديون . اترك معبدك وأنا على قيد الحياة ولكن انتياتن  
واتباعه المقدونيين لم يتركوا حتى معبدك بدون تدنيس " ثم نهض ليقوم  
فسقط جثة هامدة على سلم المذبح وهكذا كانت الخطابة آخر ما فعل .

#### آثاره الخطابية -

ذهبت معظم آثاره الخطابية ، ولم يبق الا أقل مما كان ينتظر ، وقد  
تضاربت الآراء فى مكانه الخطابية بين معاصريه وكان له معاصرون  
ينافسونه ويتفوقون عليه فى بعض الجوانب ويقاربون مكانته الخطابية العامة  
، من أشهرهم موكبون واسخينيس ، وكان لكل ميزته كما أن ديونوسيوس  
كانت له كتابات أشد نقاء وأبلغ تعبيراً من كتابات ديموستنيس ، وكان  
كوميون أكثر تأثيراً ولكن تأثيره يرجع إلى شخصيته ومهافته . وله قدرة على

الإيجاز والتعبير على المعنى الواحد بطرق مختلفة عديدة ، وكان ديباسيس يرتجل خطبه ويؤدى بها تأثيراً أكثر منه ، وعلى أى حال حكم السابقون بأنه أمير الخطابة اليونانية ، وأثنى عليه الخطيب الرومانى شيشرون ، وكل هؤلاء رأوا من آثاره الخطابية أصح وأكثر مما وصلنا .

هذا من ناحية مكانته ، أما من ناحية أمثلتها فهناك مثلاً لاحدى خطبه المحرّضة على فيليب ، وقد قالها فى موقف حرج كان الاثينيون فيه قد ينسوا من الحرب وركنوا إلى مسالة هذا المحارب العنيف ومنها " سادتى ، يجب علينا بادئ فى بدء ألا نياس من حالة شئوننا الحالية ولو أنها فى خطر لأن عظم ضعفنا فى الماضى سيكون قوتنا فى المستقبل .

ماذا أعنى ؟

أعنى أنكم الآن فى متاعب ، لأنكم لم تظهروا عزيمة لعمل واجيبكم ، وإذا طلّت الأمور كما هى - رغم ما يجب عليكم القيام به من مجهود شاق فلا أمل فى التحسن ، أود أن تفكروا فى القوة التى كانت لاسبطة منذ أمد بعيد ، والتى يتذكرها بعضكم ويسمع عنها بعضكم الآخر ، ومع ذلك فقد تم فى وجه تلك القوة ونبل ، ولم تحطوا من قدر مجد وطنكم ، فواجهتم الحرب غير هيابين ولا مترددين لعدالة غرضكم .

لو ظن أحدكم أن فيليب لا يقهره ناظراً إلى ضخامة القوات التى تحت تصرفه وإلى أن مدينتنا قد فقدت كل الأماكن بلكان معقا فى ظنه ، وكان

اعتقاده يستند إلى أساس ، ولكن لينظر ذلك الشخص إلى أننا في وقتنا  
كنا نملك " يودنا وميثونى و ... " وسائر تلك المقاطعة وأن كثيراً من القبائل  
الخاصة له الآن كانت حرة مستقلة ، وكانت تفضل أن تكون تابعة لنا  
إلى مقدونيا .

لو أن فيليب كان قد شعر كما تشعرون .. أن محاربة أثينا أمر جليل ،  
لأنها تملك كثيراً من الحصون التى تشرف على مملكته عنه ما لم يكن له  
حلفاء ، لما فاز بأى انتصار ولما وصل إلى تلك القوة العظيمة التى ترجفون  
منها الآن ولكنه رأى بوضوح أن هذه الأماكن ما هى إلا جوائز الحرب التى  
تمنح فى مسابقة حرة ، وأن أملاك من يتغيب عن سوق الوغى تذهب طبيعياً  
لمن يتقدم إلى الحرب طالباً أن يحصل عليها ، وأن من يرغب فى العمل يجد  
وفى المجازفة قد يحل محل من يهمل الفرس . لا تظنوا أن فيليب اله آمن فى  
ممتلكاته إلى الأبد ان هناك رجالاً يخافونه ويحسدونه ، حتى بين أقرب  
خاصته ، وانهم ليخفون هذا الشعور الآن لأنهم لا يجدون منفذاً فى تباطئكم  
واهمالكم فاخلعوا عنكم هذه العادة . اذا ما سألت : متى تهبون من سباتكم  
وتقومون بواجبكم ، تقولون : سيكون ذلك عندما يحين وقت الضرورة ، وماذا  
تخلفون فى الأمانة الحالية ؟ اعتقد أن أمة حرة لن تكون فى أعظم من الوقت  
الذى يكون سلوكها فيه مخجلاً وعاراً عليها حبرونى يا سادة ... أتريدون أن  
تمضوا وقتكم فى ذرع الطريق يسأل بعضكم بعضاً : هل هناك خبر جديد

اليوم ؟ وأى خبر أخطر من أن المقدونيين يسحق أثينا الآن ، ويملى سياسته على اليونانيين ، يقول أحدكم : فيليب ميت ، ويقول آخر : بل هو مريض وما الفرق بين الحالتين لكل ؟ انه لو مات فيليب فانكم سرعان ما تطلبون وجود فيليب آخر ... ليت قوته هي التي رفعت ما رفعه جمده كم .

#### نظرة تحليلية للخطبة :

هذا النموذج من خطب ديموستينيس يعكس مظهر حماسه وغيرةه الوطنية ، ومن ناحية الصوغ الفني للخطبة نجده قد بدأ يدعو قومه إلى عدم اليأس من إصلاح ما تعانیه البلاد من سوء وهو بهذه البداية شجعهم واستمالهم إلى الاستماع إليه ثم انتقل فذكر الحال السيئة التي يعاينونها ، ولم يشأ أن يطيل في تصويرها لأنهم يحسونها وغرضه الاساسى من الخطبة هو اثارتهم وتشجيعهم على حرب فيليب وقد استبد هذا العنصر وسلك له عدة مسالك .

ذكرهم بما كان تحت أيديهم من مدن اليونان وقراها حملهم مسئولية ما حل ببلادهم ، وذكر أن تواكلهم وتوانيتهم هو الذى هيا لفيليب تقدسه ، ولبعث الأمل فى نفوسهم ذكرهم بانتصاراتهم على اسيرطة ، وهذا يعنى أنهم اذا هبوا فى وجه فيليب فانهم سينالون هذا الانتصار ثم وازن بين اقدامه وتراخى اليونانيين ، وأنه لو كان على مثل شعورهم لتوانى وناله الكسل . ولكن تكاملهم شجعه فكانت هذه الممتلكات التى تحت يده جوائز شجاعته ،

ثم نعا منح آخر فأشعرهم أنه يعانى محاربة الاعداء وانقسام الاتباع . مما  
يسهل مهمتهم ولكنهم لن يحققوا شيئاً وهم متخاذلون . ان تقاعدهم هو  
الذى أسلم بلادهم لفيليب ، ولو لم يكن فيليب هو الذى امتلكهم لظهر  
شخص آخر مكانه لان اغلأرض التى لا حامى لها يطمح فيها كل مسالك .  
والخطبة مليئة بتوبيخ الأثينيين ولكنها أيضاً مليئة بصور التشجيع  
والاغراء .

#### نبذة تاريخية عن لوسياس :

فى بداية القرن الرابع قبل الميلاد كانت الخطابة اليونانية قد بلغت حد  
النضج ، ومهر خطباؤها - بفضل تعاليم السوفسطائية - إلى درجة بالغة  
فى التأثير ومقدرة رائعة على تصوير الحق فى الباطل وإظهار الباطل فى  
صورة الحق ، وقصة كوراكس مع تلميذه تيسياس مما يعطى صورة  
واضحة عن هذه السفسطة .

كان ايسوكرانيس قد كون لنفسه شهرة خطابية وأخذ التلاميذ يلجأون  
إليه يتعلمون منه ، والمتقاضون يطلبون منه اعداد خطب لهم بينما كان  
اندركيس يؤلف أيضاً خطباً لمن يطلب ، ولتبقى لاستعمالها فى الوقت  
المناسب ، وكان ايسوس قد حبا إلى الشهرة وكان صغار الخطباء يتعلمون  
ممن فوقهم ويعلمون من دونهم لهذا كانت سوق الخطابة أروح سوق وأنفقه .  
فى هذا البحر نشأ لوسياس وتاريخ ميلاده بالضبط غير متفق عليه ولكن

اشتهر أنه ولد سنة ٤٥٩ ق . م . وعمر أكثر من ثمانين عاماً . ولد في أثينا ولكنه من أصل سيراكوزى وانتقل أبوه باغراء بريكليس إلى أثينا .  
نشأته :-

ونشأة لوسياس في هذا العهد حبيت إليه الديمقراطية ، وقد درس الخطابة والبلاغة على تسياس - أحد البلغاء البارزين - فتفوق فيما تعلمه ثم استعمل لسانه وخطبه في نصر الديمقراطية وقد عانى في سبيل مبادئه كثيراً حتى حكم عليه بالإعدام لكنه هرب ، وفي منفاه عمل على تشجيع رفاقه دعاة الديمقراطية وعاش فترة طويلة يعد الخطب وأحياناً يلقيها ، فكان سياسياً وأديباً ، ولكن معظم خطبه بها فتور عظيم لأنها كانت تكتب ولم تكن ملغاة .

#### منهجه الخطابي :-

كانت خطبه بهيطة الأسلوب والتركيب وأكثرها تمثل في عناصر أربعة : المقدمة والعرض والبرهان والخاتمة ، وكما رأينا من قبل كان العرض والبرهان يندمجان حتى يعسر أحياناً أن تفصل بينهما ، لأن عرضة القضية لم يكن مجرد سرد ، بل كان يحوى تعليقات توضيحية قد تغنى عن الأدلة . أما مقدمته فكانت عبارات موجزة تبت بصلة قوية إلى موضوعه وكان الخطباء في عصره يستعملون جملاً خاصة لافتتاح الخطب ربما كررت في العديد من خطبهم ، لكن لوسياس لم يكن كذلك ، فقد أثر عنه نحو مائتى

خطبة ليس فيها مقدمة مكررة ، وكذلك كان شأنه فى ختام خطبه ، يلخص لموضوعه ولا يعيد شيئاً من ألفاظه مما تثير مقدرته الكلامية ، وينسب إليه أربعمئة وخمس وعشرون خطبة ولكنها ليس مقطوعاً بأنها كلها من عمله ، ولكنها تدل على أنه من أثرى خطباء اليونان خطبياً .

#### أسلوبه الخطابى :

أما أسلوبه الخطابى فكان بسيطاً مرناً كثير التلون ، أحياناً يستعمل عبارات مسجوعة وجمالاً متوازنة . وأحياناً يستعمل كلاماً مرسلأ ، وربما أكثر من ذكر الجمل المعترضة ، كل ذلك حسب الموضوعات التى يتعرض لها والجزئيات التى تعالجها خطبته ، ونظراً لأن مدار المرافعة فى هذا الوقت كان يتوقف على استمالة القضاة والتأثير عليها فى مشاعرهم كان الأسلوب ذا أثر كبير فى نجاح الخطبة . وقد ترك لوسياس خطباً متنوعة توضح أسلوبه ومرونته وطرق مواجهته المواقف المتباينة ، ففى مرقعة أعدها للدفاع عن شاب أثينى عريق النسب حسن التربية يعترف بطموحه ويأته ذو عاطفة مهذبة نجد لوسياس يجنح إلى جوانب فرعية ربما ليست وثيقة الصلة بموضوعه ، وهى حديثه عن أسرة الشاب وما لها من مآثر على الوطن العزيز ، ومنها :

#### نموذج أول :

فمن مثل هذه البيانات يجب انصاف الرجل الطموح فى حد الاعتدال فى



حياته العامة ، فلا ينبغي أن تمقتوا رجلاً لأنه يصف شعره على طراز حديث هذه عادات شخصية بحتة لا تؤذي أى فرد ولا تسبب أى ضرر للمجتمع ، كما أنكم تستفيدون ممن يواجهون اعداءكم بمحض ارادتهم ، أنه ليس من المعدل فى شئى أن تحبوا أو تكرهوا شخصاً ما بسبب مظاهره الخارجية ، وإنما يحكم عليه باعماله . فكم من أشخاص قليلى الكلام كانوا مصدر متاعب وأضرار بينما كانت هناك فئات أخرى على عكس تلك السجايا قامت بخدمات جليلة للمجتمع .

كذلك هناك من حنقوا على لاني تجرات على الحديث أمام الجمهور ، كنت فى نظرهم لا أزال غض الاهداب ، ولكنى أجبرت على الكلام عن أمور تخصنى ، وفوق ذلك فإنى بفطرتى طموح لدرجة كبيرة .  
ان اجد أدى لم يكفها أبداً عن خدمة الدولة - وصراحة أرى مثل هؤلاء وحدهم يجب أن يكونوا موضع نقد بركم ، وطالما كانت هذه عقيدتكم فمن الذى يجرؤ على الدفاع عن الدولة بالقول والعمل ؟  
ولم تغضبون على من يعمل ذلك ، وليس لا حد سواكم أن بحكم علمهم ، فأنتم وحدكم تملكون هذا الحق .

نموذج ثان :

ومن خطب لىسياس الشهيرة خطبه أعدھا للدفاع عن شاب مقعد كان يحصل على معونة من الحكومة ثم اتهم بأنه كان يدعى ادعاءات كاذبة

للحصول على هذه المعونة ، وفى هذه الخطبة تبدو وروح السخرية والتحك .  
ومنها :-

... شكراً للمدعى على تقديمى لهذه المحاكمة ، لم أكن حتى هذه الساعة  
أجد سبباً به اتحدث عن حياتى ، وقد اتاح المدعى لى هذا السبب ، وما بين  
فى حديثى مدى خطئه ، وكذب تهمته واوضح لكم بالادلة القاطعة ان حياتى  
تستحق كل عطف وثناء واعجاب بدلاً من المغيره والاحقاد لا اعتقد أن هناك  
سبباً رغمه إلى تقديمى للمحاكمة إلا هذا السبب سبب الحقد والحسد . فما  
ظنكم بالخيبة والحقارة التى يهوى إليها من يحسد شخصاً يشفق عليه  
ويرشى لحاله الناس جميعاً .

طبيعى أنه لم يقم بالتبليغ عنى ليجنى من وراء ذلك أموالاً وهو أيضاً لا  
يقصد معاقبة عدو يريد أن ينتقم منه ، وإنما دفعه إلى ذلك سوء خلقه إذا لم  
يسبق لى أية معاملة معه .

واضح لكم من هذا أيها السادة أنه يغار منى فاننى على الرغم من  
عاهتى هذه مواطن شريف أحسن منه ان المرء المنكوب المصاب يعمل دائماً  
كى يعوض عن نكبائه الجسدية بسجايا عقلية حميدة ولو أبدت عقلية  
تتناسب وجسدى المنكوب الحظ . وصغت حياتى تبعاً لذلك لكنى شخصاً  
سيناً مثله [وقد اتخذ من ركوبى ذريعة لاتهامى وليس لى كثيراً قوله عن  
ركوبى الذى تجرأ على ذكره غير متخوف من الدهر ولا محترم لكم ، فإنى

أعلم أن الذين يعملون تحت أى ضغط أو يتحملون اعمالاً فوق طاقتهم  
يضطرون لتلمس لحظات للاستجمام .

ويتخيرون أحسن سبل التمتع بالراحة من عناء ما يتحملون اننى واحد  
من هؤلاء وقد وجدت فى الركوب لائى مسافة شيئاً من الراحة ولو كنت  
ميسور الحال لنشددت راحتى فى ركوب بغل بدلاً من استعماره جواده ،  
ولكن ما حيلتى وليس لدى ما اشترى به أيه ؟ فاننا مضطر داعمأ إلى  
استعماره جواد .

انى لأعجب من هذا الاتهام يرانى استعمل عصرين وغيرى من المعرج  
والاصحاء يمشى ويبيده عصا واحدة فلا برثى لى ولكن يتهمنى بالشرف  
والاسراف ، لأن الاغنياء وحدهم هم الذين يستطيعون بين عصرين .  
وهكذا تمضى الخطبة تستعرض المتهم واحدة بعد أخرى لتفتدها وتردها  
وتطلعنا هذه الخطبة على جانب من أخلاق الشعب الاثينى ونوع القضايا  
التي كانت تقدم لهيئات التحكيم .

#### نموذج ثالث :

وهناك مثال آخر من خطبه يبدو فيه الأسلوب القصصى وهو حديث عن  
مقتل شخص ، وفيه يتحدث زوج عن تصرفات زوجته :  
وكذا أيها السادة سارت الأمور حتى رجعت يوماً من الريف على غير  
انتظار ، وبعد تناولى غذائى كان الطفل يصرخ ويتسلل ، وكان الخادم

يعاكسه قصداكى يصرخ ويصيح لأن ايراتوسنيس كان بالمنزل ولم أعرف كل ذلك إلا فيما بعد - وقد طلبت من زوجتى - اذ ذاك - أن تذهب إلى الطفل لتطعمه وتمنعه من البكاء ولكنها تباطات متعلة باغتباطها بعودتى بعد غياب طويل ، ولما انتهزتها ثانيا محتمسا ان تقوم لمراعاة الطفل قالت : نعم . سأذهب ، وما دعك أنت والخادم وحدكما لأنى اذكر ما حدث منك ذات ليلة وأنت سكران . فضحكت .

وقامت زوجتى وهى تتظاهر بالمزاح فى اغلاقها الباب ، ثم أوصدته من الخارج . لم أفكر فى شئى ولم تدر أى شكوك بخاطرى ، بل ذهبت إلى مضجعى ناشداً للراحة بعد العمل المضمنى فى الريف طوال ذلك اليوم . وفى الصباح الباكر عادت وفتحت الباب ولما سألتها عن سبب أیصادها الابواب طوال الليل أجانب بأن المصباح المجاور لسرير الطفل انطفأ . فخرجت تبحث عن مصباح عند جاريتها .

لم أجادلها لأنى كنت أظن كلامها عين الحقيقة ، ولكنى أتذكر جيداً أن وجهها كان عليه مساحيق رغم موت أخيها منذ أقل من شهر ، لم أسألها عن ذلك أيضاً ثم غادرت المنزل واتجهت إلى عملى . وهذه الخطبة ترينا جوانب من حياة اليونان فى ذلك الوقت . وعن شئى من زينة المرأة ومتى يجوز ذلك ومتى لا يجوز .

## الخطابة في العهد الروماني

### لمحة تاريخية:

ترتبط حال الخطابة الرومانية بحال الحكم في تلك البلاد . وقد نشأت الحكومة الرومانية في روما ملكية مطلقة تسمد سلطاتها من السماء ومنذ سنة [ ٥٠٠ ق . م ] تحولت إلى جمهورية . ولكن لم يكن لها امبراطور واحد . بل كان الشعب يختار حاكمين معا ، يحمل كل واحد منهما اسم القنصل . ومدة حكمها لا تتجاوز العام الواحد . وكان يعاونهما من النبلاء والأشراف نوى المناصب العالية في الدولة ويبلغ عدد هؤلاء نحو السبعين ، ثم سمح ممثلين من الشعب أطلق على الواحد منهم اسم [ تريبون ] ولكن هؤلاء لم يزيدوا على عشرة أشخاص ، ولما بدأت روما تتوسع في فتوحاتها وتغزو الممتلكات اليونانية برز قائد كبير هو [ بومبي ] . الذي قضى على قراصنة البحر الأبيض المتوسط ، الذين كانوا يهددون تجارة روما ، فاخترت رئيساً على آسيا الصغرى ، فمد فتوحاته إلى الفرات شرقاً . واستولى على سوريا فأخضع القميس الأكبر في القدس إلى سلطان روما . وكان ذلك نصراً عظيماً . فاختره الشعب رئيساً على روما كلها وسمى الرئيس الأعظم .

### يوليوس قيصر:-

فى هذه الأيام ظهر ثرى موهوب هو يوليوس قيصر . كان ماهراً فى قيادة الجيش والحروب محباً للعدالة . له مقدرة على الخطابة قلماً تستمع بها شخص آخر . وسرعان ما أصبح الحاكم المطلق فى الجهة التى هو بها . وكسب لإيطاليا مجداً جديداً . ومع كثرة الأعمال التى قام بها وجد متسعاً من الوقت ليكتسب قائمة بأعماله المشرفة ، وقدمها إلى مجلس النبلاء فى روما . فدل بهذا العمل على أنه كاتب بقدر ما هو خطيب ، وسمى مذكراته « التفسيرات » وهى لا تزال إلى الآن من الكتب المشهورة فى أنحاء العالم . ويمتاز أسلوبها بالوضوح والبساطة . ويقرأها الآن البادئون فى اللغة اللاتينية لتعلم هذه اللغة . كما يقرأها المثقفون للدرس والسياسة والتاريخ . وعندما انتهت مدته طلب [بومبى] وقواد آخرون منه أن يسرح جيشه ، ولكنه رفض واتجه إلى روما فخافه [بومبى] وفر إلى اليونان ثم إلى مصر حيث قتل غيلة بها . ولكن يوليوس فى هذه المطاردة قابل الملكة كليوباترا ملكة مصر فوقع فى غرامها وتزوجها وذهبت معه إلى روما سنة ٤٥ ق . م حيث أقيم لها استقبال رائع عظيم وأنجب منها ابنه قيصرون . ومع هذا المجد الباذخ تمت أيضاً عداوات وأحقاد ضد القيصر واتهم اتهامات كثيرة وكان صديقه بروتس وكاسيروس هما اللذان قادا المكيدة

ضده ، وعقدا له مجلس محاكمة رهيباً ظل الخطباء يذكرن أخطاء ومظالمه حتى أثاروا عليه الناس فقتلوه ، ودهش القيصر للطعنة القاتلة من يد بروتس ، فالتفت وقال : حتى أنت يا بروتس ؟ .

وكان من أصدقاء القيصر وقواده أنطونيو وأكتافيو ، فغضبوا لمصرعه ووقف أنطونيو عند تشجيع جثمانه فألقى خطاباً مثيراً رهيباً استفز به السامعين وأثار غضبهم على قتلة القيصر - ثم طارد هو وأكتافيو بروتس وكاسيوس إلى بلاد اليونان حيث ماتا منتحرين .

### الإستيلاء على مصر وظهور المسيحية :

أصبحت السلطة الآن فى يد أنطونيو وأوكتافيو ، ومع بقاء الدولة الواسعة الأطراف فى وحدتها وكان أوكتافيو هو المختص بالأقاليم الغربية ، وكان أنطونيو هو المشرف على الشرق ، ولكنه أيضاً كقيصر وقع فى حب كليو باترا وكان زوجاً لاخت أوكتافيو ، فقامت بينهما معارك انتهت بنصر أوكتاف ودخول مصر فى قبضة الدولة الرومانية .

وفى وقت هذا النزاع ظهرت المسيحية ، وتسلت ببطء الى اعماق الدولة الرومانية الكبيرة ، ولم يعبأ بها أباطرة الرومان أول الأمر لكنهم فيما بعد لسوا فيها خطراً يهدد ملكهم ويزيل عظمتهم ، فصبوا جام غضبهم على المسيحيين وأذاقوهم ألوان العذاب لكن الوثنية كانت قد فقدت سلطانها على نفوس الناس ، وسئمو ماديتها الفارغة فأقبلوا على المسيحية رغم ألوان التعذيب التى انتابتهم ولما جاء الامبراطور قسطنطين وجد المسيحية توشك أن تهز عرشه فقررها دين الدولة الرسمى ثم أخذ يكره الناس عليها ، وانعكست آيات التعذيب ، فعذب الوثنيون وأعفى المسيحيون ، لكن المسيحيون ما لبثوا أن انقسموا واختلفت آراؤهم فى المسيح فسببوا لأنفسهم عذاباً آخر جديداً وظلوا كذلك حتى ظهر الإسلام فى الشرق وأستولى على أطراف الامبراطورية الرومانية فخلص رعاياها من هذا العذاب ، إذ أباح لكل طائفة مسيحية أن تتبع المنهج الذى تريد ، ولكل فرد



أن ينتمى إلى أى فرقة .

هذه لمحة عابرة تبرز بعض الخطوط العريضة من تاريخ هذه الدولة ، لم نر بدا من ذكرها قبل الحديث عن الخطابة فى هذا العهد .

#### **الخطابة الرومانية :-**

قلنا من قبل أن الخطابة لا تنمو الا تحت شمس الحرية ولم تكن حياة الرومان ممتعة بحرية كافية ، ولكن ظهر فيها بين حين وآخر خطباء وبرزت مواقف خطابية عظيمة كالتى أشرنا إليها من مواقف بروتوس وأنطونيوس ذلك أن الشدائد وأزمات الحياة تدعو إلى الخطابة وتظهر الخطباء واتخذ الكتاب والشعراء فيما بعد من موقف بروتوس من يوليو قيصر ثم من موقف أنطونيوس من بروتوس مجالاً لتمثيل سحر البيان وأثر الخطابة فى نفوس السامعين ولعل تمثيلية شكسبير الخالدة من أبرع ما يمثل هذا الموقف العجيب الذى ترجف له عواطف السامعين وحماساتهم ، مرة يغضبون عليه وأخرى يرضون عنه ويهجمون على قاتليه ، ولا تزال مرتبة أنطونيوس من الآثار الأدبية الرائعة ، وأشهر خطباء الرومان على الإطلاق هو شيشرون الذى نورد له ترجمة وجيزة .

#### **الخطابة فى العهد المسيحى :**

وفى العهد المسيحى ظهرت خطب دينية وكان الموقف خليقاً أن يخرج خطباء ممتازين كباراً ولكن المسيحية ظلت كما ذكرنا مكبوتة فلما صارت

ديانة رسمية انشقت على نفسها واعتنقت الحكومة المذهب الكاثوليكي ، و  
ظهر هرقل بمذهبه الذي قام على وحدة الارادة ، والذي أراد به أن يوفق بين  
المذاهب المتضاربة كأن قُصاراه أنه زاد هذه المذاهب مذهباً آخر وكان  
بطشه وظلمه مما قتل الخطابة وكم أقواه الخطباء .

### نُبذة تاريخية عن شيشرون

هو ماركوس ثيولوس ، عاش قرب نهاية الامبراطورية وشارك فى الحياة السياسية وظل نجماً لامعاً فى سماء الخطابة والسياسة والقاء حتى قتل فى سنة ٤٢ ق . م .

ولد شيشرون سنة ١٠٦ ق . م من أسرة ذات مال وثقافة ومحبة للفنون ، ودرس فى روما القانون والبلاغة والفلسفة والأدب اليونانى وله فضل كبير على اللاتينية ذلك أنه استعملها - دون اليونانية - فى كتابته ومرافعاته القضائية فأكبره الناس وقدروه وقلدوه .

كان محامياً قديراً وكاتباً أدبياً وسياسياً لبقاً ماهراً .

فقامت شهرته على عملين أدبيين ، هما رسائله ومرافعاته القضائية كان له عدد من الأصدقاء خارج روما ، فكان يكتب لهم رسائل مطولة تصف جميع أخبار روما وما يحدث بها ، وكان يحشوها أحياناً بالنكت والسخریات ، كما تصف حياة الناس الأدبية والكتب التى تظهر ، بما يدور فى المجتمعات من أحاديث وهذه الرسائل وان لم تكن محل درس لمن يؤرخون للخطابة تعكس مقدرة الكاتب البلاغية ومدى ما كان يتصف به من نكاه وبقه حس ، وهى جميعاً من مكوناته خطيباً وهذه الرسائل لا تزال محفوظة إلى الآن تعطى صورة حية عن حياة روما فى ذلك العهد .

### خطبة شيشرون :

أما خطبه القضائية فهي سبب شهرته ، وهي التي هيأت له أن يكن قنصلاً فتولى هذا المنصب سنة ٦٣ ق . م وأول خطبة لفتت الأنظار إليه كانت خطبة قضائية ضد رجل من ذوى النفوذ ، سوغ له شرهه المادى أن يلصق تهمة بأحد الأثرياء ليحكم عليه بالسجن ومن ثم استولى على ممتلكاته بثمن زهيد يكاد يكون إسمياً فقط ، وتولى شيشرون الدفاع عنه وكان يومئذ شاباً لم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره ، فأبدى حماساً رائعاً وبلاغة قوية وحججاً واضحة مما أدهش السامعين والقضاة ، فبرئ المتهم وأعيدت إليه ثروته .

وله موقف آخر شبيه بهذا حين كان فى الثلاثين من عمره ، ذلك أن والى [صقلية] من قبل روما وكان يدعى [فيريس] أسرف فى ظلم السكان ونهب أموالهم ، فاختراروا شيشرون كى يدافع عنهم فأخذ يصور حال السكان وما يعانونه من ظلم الحكام الرومانيين واستهانتهم بهم مما رقق القلوب وهيج عواطف الرحمة لهؤلاء المساكين ، كما أبرز حكام الرومان فى حالة من الخجل من سوء تصرفاتهم وقد أغضبت خطبه هذه معارضيه من الأحزاب الأخرى ، ولكنها رغم غضبهم ارتقت به ليكون قنصلاً ، ولقب قنصل هو أرقى المناصب الرومانية ، وكان لقب الإمبراطور يطلق على قواد الجيش ، ولم يتخذ لقباً للحاكم الأعلى إلا منذ عهد أوكتاف [أغسطس] .

وبعد مصرع القيصر قام شيشرون بخطب كثيرة ضد انطونيو وأكتافيو فائثر عداوتهما ضده فلما آل إليهما الحكم قررا إعدامه فقتل سنة ٤٢ ق . م كان شيشرون فيلسوفاً ، ومحباً للعلم والإستزادة منه ، فكان أثناء خلو حزبه من الحكم يعكف على القراءة والكتابة ويستزيد من درس الفلسفة ، وقد غادر روما مرة لمدة عامين طاف خلالها بأسيا الصغرى وأثينا وبعض الجزر وعمق دراسته الفلسفية في أثينا ، وله مقالات فلسفية كثيرة ، منها مقالات في الشيخوخة ، والصدقة ، والواجب ورسالة في طبيعة الآلهة ، وأخرى في " النهاية الحق للإنسان " .

وترجمت آثاره إلى كثير من اللغات ، أما خطبه القضائية ضد فيربس فلا تزال إلى الآن مثلاً يحتذى من حيث جودة الأسلوب ورسالة التعبير وقوة الحجة وترتيب الأفكار .

وإذا كان [فرجيل] أعظم شاعر أنجيبته " روما " في هذا العهد ، وشيشرون أعظم خطيب ، فإننا نرجح كفة شيشرون لسبب واضح جداً وهو أن فرجيل كان صدى لهوميروس " الإلياذة " ولا يبقى له إلا تعبيره وبلاغته . أما شيشرون فيبدو ونسيجاً وحده ، كما يبدو واعتماده على ثقافته وتفكيره الخاص .

وهو في نظر المؤرخين خطيب وأديب وكاتب أكبر منه سياسياً ، وصفة الخطابة على أي حال سياسية أو قضائية هي أبرز صفاته .

ومما يفرق به بين اليونان والرومان أن اليونان أمة فلسفة وأدب وفنون ،  
أما الرومان فكانوا دولة سياسة وقوانين ، وكانوا يعتمدون على التراث  
اليوناني في الفلسفة والآداب ، ولهذا يقول المؤرخون :-  
"إن اليونانيين غزوا الرومان فكرياً حين غزاهم الرومان عسكرياً  
وأجمل مواقف الخطابة الرومانية هو ذلك الموقف الذي نشأ بعد مقتل  
يوليوس قيصر ، تذكر لك صورة منها ما يلي :-

### خُطبة هانبيانج :

أيها الجنود : إنى لا أدرى إذا كان الحظ لكم أو لمن فى أيديكم من الأسرى ، فقد شد بكم الوثاق ، وحمت الحاجات ، فعن اليمين وعن الشمال بحران يكتنفانكم ، وليست لديكم سفينة واحدة ، تهرعون إليها ، ومن بين أيديكم نهريو ، وهو أعرض وأسرع جرياناً من الرون ، ومن خلفكم جبال الألب تلك الجبال التى لم تستطيعوا اقتحامها الا بشق الأنفس حتى فى أيام وقرة عددكم ، فهيا أيها الجيوش ، فليس أمامكم الا الفناء والنصر على الاعداء يوم لقانكم لهم .

لا تياسوا فان تلك القدرة الإلهية التى ألقى بكم فى هذا المأزق الحرج الذى يرغمكم على القتال ، هى عينها التى أعدت لكم على مرأى منكم نعيماً عظيماً ليكون لكم أجراً على انتصاركم ، وجزاء لا يوجد أعظم منه انسان من الله الباقي .

اننا ان لم تستطع بياسكم وحميتكم إلا أن نعيد إلى حوزتنا صقلية وسرد بنية اللتين سلبهما العدو من أبانكم سلباً كان ذلك جزاء وفاقاً لا يستهان به ، ولكن أين هاتان مما لكم من ثروة روما الطائفة ، وأموالها المكسدة وغنائمها التى سلبتها من الأمم الأخرى ؟ كل هذه ستكون فى حوزتكم .

إنى أرى أيها القوم ، أن تتصوروا أن الانتصار صعب المنال أو تعتقدوا

كما يعتقد الناس أن اعلان حرب على روما أمر عظيم له وقع فى النفوس ، فلتعلموا أنه كثيراً ما تغلب جيش مستضعف على عدو مستعظم ، وصعد له فى معارك أريقت فيها الدماء ، وحصدت فيها الرعوس وكم ثلث عروش وأفنيت أم عريقة فى المجد على أيدي جيوش قليلة العدد .

ولكنكم لو جردتم روما من اسمها الفخم البراق ، وصيتها الذائع ، فما الذى يبقى لديهم مما تستطيع أن تقف به أمامكم وتنافسكم فى قوتكم وبأسكم ؟ .

فهل يمكنك استخراج أبرز ما فى هذه الخطبة من عناصر ؟ .  
حاول بفكرك أن تقيس ما فى هذه الخطبة من بث لروح الشعب الرومانى بنظائرها فى الواقع الإسلامى .

قلب بين جنبات التاريخ الإسلامى والمحتوى القرآنى ثم قم بعمل دراسة مقارنة بين الواقع الرومانى الذى جعل هانيبال يلقى بخطبته هذه والمضمون التاريخى الإسلامى ؟ ! .

لنتك تكتب بحثاً مفيداً فى هذا ؟ .  
جرب نفسك ، وأعمل فكرك مبرزاً أهمية الخطابة من الواقع التاريخى فى العصر الحديث ؟ .



### الفصل الثالث الخطابة العربية قبل الإسلام الخطابة في العصر الجاهلي

#### توطئة :

مما لا جدال فيه أن العرب الجاهليين كانت لهم خطب قوية وأنهم اعتمدوا عليها في مواقفهم الهامة ، واستعملوها في مجتمعاتهم ودعواتهم للحرب أو السلم ، وقد ذهب الكثير جداً من هذه الخطب مع الزمن ، وحفظ لنا التاريخ قليلاً جداً منها ، كما حفظ أسماء خطباء كانوا مشهورين لم يبق من خطبهم شئ ، ذلك لفسو الأمية وبعد الزمن وقد كانت أسباب الخطابة متوافرة لعرب الجاهلية ، فهم ممتعون بحرية لغما توفرت لغيرهم ، ولهم مقدرة قوية على الحديث وتشقيق الكلام ، واللغة العربية ذات نغم يثير المتكلم والسامع ، ويبعث الخطيب على الإستمرار في حديثه ، ولهذا كانت لهم مقدرة على الارتجال ومواجهة الموضوع الذي يطراً من غير أن يكونوا قد أعدوا له حديثاً ، ومع ذلك تأتي على لسانهم العبارات البليغة والحكم الصائبة .

قال الجاحظ : فما هو إلا أن يصرف [العربي] همه إلي جملة المذهب وإلى العمود الذي يقصد فتأتيه المعاني أرسالا ، وتتثال عليه الألفاظ انثيالاً ، ولا يننى هذا أن كل خطبهم كان مرتجلاً .

### مواقف الخطابة في الجاهلية ،

وللخطابة الجاهلية مواقف كثيرة ، أهمها ما ذكرنا من اجتماع القيم للتشاور في أمر من أمورهم كالقيام بحرب ، أو الإصلاح بين متنازعين ، ويأتي في هذه المواقف خطب ومحاورات ، ويتبع ذلك الوصايا التي يقدمها رئيس القوم أو حكيمهم لقيمته أو لأولاده ، وفي أسواقهم كانت تقوم بينهم المنافرات والمفاخرات ، ويتعالى كل شخص أو قبيلة على الآخر ، وكانت هذه تتناول كل شيء ، حتى إن الخنساء وهند بنت عتبة تنافرتا في المصائب ، وكل ادعت أنها أصيبت أكثر من الأخرى ، وهذه المواقف تبرز :-

### خصائص ومميزات الخطابة الجاهلية :

تظهر قوة البديهة العربية والقدرة البالغة على الإرتجال وأكثر ما نجد في هذه الخطب أو الوصايا اتسامها بقصر الجمل وسرد الحكم حتى تكاد تنقطع الصلة بين جملة وأخرى ، وهي في جملتها خلاصة تجاربهم وخبرتهم بشئون الناس ، وأحداث الحياة وليس في حكّمهم بنايات فلسفية عميقة لقلة ثقافتهم وعدم دراستهم ، ولكن لهم نظرات صائبة وآراء حكيمة لا تزال نحتاج إليها ونستعين بها فيما يطرأ لنا من أحداث ومواقف تشبه ما طرأ لهم . وكثيراً ما يأتي

السجع فى عباراتهم عفوا ، فإن لم تكن العبارة مسجوعة ، كانت  
الجملة مقسمة متوازنة ، وخطب الأعراب وأدعيتهم من أبلغ وأجمل ما  
فى أساليب اللغة العربية .  
وخطب الجاهلین وأدعيتهم ومحاوراتهم ووصاياهم كلها مما يستعين به  
الخطيب الحديث ، ويجد فيها مدداً واسعاً بالرأى والفكر وبالتعبير والبلافة .  
وعلى الراغبين أن يرجعوا إلى المصادر الأخرى ليجدوا مدداً أوسع وغذاء  
أوفى وأدسم .

### صفات الخطيب وعادة الخطباء العرب -

كان للخطباء في الجاهلية سمات وعادات استمرت إلى ما بعد ظهور الإسلام ، ولا يزال الكثير منها موجوداً إلى الآن . ذلك أن أغراض الخطابة والوسائل المؤدية إلى الإقناع لا تتغير إلا قليلاً .

وقد كان من عادات الخطباء أن يقفوا على شيء مرتفع أو نشز من الأرض ، ليشرف الخطيب على مستمعيه فيرواً شخصه حين يسمعون كلامه ، وليستطع الخطيب أن يضم إلى كلامه الخطابي إشارات اليد وانفعالات الوجه وحركات الجسم ، فيكون ذلك أعون على التأثير والإستمالة ، وفي المواقف الحاشدة ، والجامع الكبيرة يخطبون على ظهور رواحلهم ، وقد خطب رسول الله - ﷺ - بعرفة في حجة الوداع وهو راكب ناقته القصواء وكان تحت عنقها ربيعة بن امية ابن خلف يعيد قول رسول الله - ﷺ - ويصرخ به لكثرة المشاهدين ويعد الذين في أطراف المجمع عنه - ﷺ - وفي الحالات العادية يكون الخطيب واقفاً ، إلا في خطب النسكات فإنه يتحدث وهو جالس ، ذلك لعدم كثرة السامعين ، ولأن المراد من الخطبة هو الاخبار بالزواج وتزكيته ، وليس ثم موضع للإقناع والإستمالة ؛ كذلك كان يلوث عمامته ، ولا تكون سوداء اللون الا في حالات المطالبة بالثأر ، وقد خرج امرؤ القيس إلى وفد أسد الذين قدموا عليه بعد مقتل أبيه ، وهو يعتم بعمامة سوداء ، وكان فيهم عبيد بن الأبرص ، وقبيصة بن

نعيم ؛ كذلك كان الخطيب يعتمد على شيء في يده ، عصا أو مخرصة أو قناة . وقد يستعمل ما يعتمد عليه منها للإشارة والإيجاء وقوة التأثير في السامعين ، واستعمال العصا ونحوها مستحب أيضاً في الخطبة الإسلامية ، وهو كذلك مما يستأنس به الخطيب ويحول بينه وبين العيب بيده .

ويستحسن في الخطيب أيضاً أن يكون نظيف الثوب حسن الهيئة ، جهير الصوت ، هادئاً في عباراته ، وقد مدحوا سعة الفم ، وذموا صغره ، وجعلوا من الجمال رطب الشدق ، ويعد الصوت وربما فضلوا أن يكون كريم الأصل ، شريف النفس ، لأن ذلك يجعله أكثر تأثيراً ويجعل السامعين أكثر قبولاً لكلامه ، كما أثروا أن يكون مقتنعاً بكلامه عاملاً به ، ومعظم هذه الصفات مما أيده الإسلام ، وقد قال « على بن أبي طالب » : من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تعليمه بسيرته قبل تعليمه بلسانه ، ووقف زياد بن أبيه يخطب فأعجب الناس حتى قال عمرو بن العاص " لله درُّ هذا الفتى ، لو كان من قریش لساق الناس بعصاه " فهو لم يحط منه إلا خسة نسبه ولو كان كريم الأصل لساق الناس .

وكانوا يمدحون في الخطيب أن يكون ثابت الجنان هادئ المظهر قليل التلفت قليل التنحنج أو العيب بلحيته ، أو مس جبينه ، فهم يعدون ذلك من

أسباب غياب الكلام والعجز عن متابعة الخطبة . كما عابوا التلعثم والإرتباك ، وقطع الجمل قبل تمامها ، واسكان الكلمات فى غير مواضع الوقف .

أما تعبيراتهم فقد تكون مسجوعة وقد تكون مرسلة متوازنة الجمل وكانوا لقدرتهم الخطابية وطواعيه اللغة لهم يأتهم السجع عفواً .

#### أشهر خطباء الجاهليين .

ومن أقدم الخطباء المشهورين كعب بن لؤى « الجد السابع لرسول الله - ﷺ - » وقد كان يخطب العرب فى الشئون المختلفة ، ويحث كنانة على البر وأعمال الخير ، وكان مهيباً مسموع الكلمة ، ولما مات أكبروا موته وأرخوا به وظلوا يتخذونه تاريخاً حتى عام الفيل ، فأرخوا به حتى كانت الهجرة النبوية فاتخذها عمر بن الخطاب مبدأ لتاريخ المسلمين .

ومن مشهورهم بعد ذلك قيس بن خارجه بن سنان ، خطيب داحس والغبراء ، وفى هذه الموقعة أشتهر خويلد بن عمرو الخطفانى يخطبه فى حرب الفجار ، وقس بن ساعدة الأبادى ، خطيب عكاظ ، وأكتم بن صيفى والحرث بن عبادة وقيس بن مسعود .

## الفصل الرابع

### الخطابة في عصر صدر الإسلام ومهامتها

#### تطورها وأزدها

##### أولاً: في عصر الرسالة .

كان ظهور الإسلام إيذاناً بتطور واسع في الخطابة ، إذ اتخذها الرسول - ﷺ - أداة للدعوة إلى الدين الحنيف طوال بمكة قبل الهجرة حيث ظل ثلاثة عشر عاماً يعرض على قيمه من قريش وكل من يلقاه في الأسواق آيات القرآن الكريم ، وهو في أثناء ذلك يخطب في الناس داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، محاولاً بكل طاقته أن يوقظ ضميرهم بما يصور لهم من قوة الكائن الأعلى مدبر الكون ومنظمه ، الذي لم يخلقهم عبثاً ، وإنما خلقهم ليعبدوه حق عبادته ، وليستشعروا كل ما يمكن من الكالات الروحية والاجتماعية والانسانية ، حتى تتم لهم السعادة في الدنيا والآخرة .

وهاجر الرسول صلوات الله عليه إلى المدينة ، فاتصلت خطابته ، واتسعت جنباتها ، بما أخذ يشرع للمسلمين ويرسم لهم من حدود دولتهم ونظم حياتهم التي ينبغي أن تقوم على الإخاء والمساواة والتعاون في سبيل الحق والخير ، وهو في تضاعيف ذلك يأخذهم بأداب رفيعة من السلوك السامى ، ومبيناً لهم معانى الإسلام الروحية التي تقوم على معرفة الله

الواحد الأحد والصلوة به ، كما تقوم على معرفة العمل الصالح وأن وراء هذه الحياة حياة أخرى يحاسب فيها الإنسان على ما قدمت يداه ولو كان مثقال نرة ، وما يزال يعرض أوامر الدين ونواهيه ، واضعاً الطول لكثير من المشاكل الدنيوية ، كمشكلة الرقيق ومشكلة توزيع الثروة ومشكلة العلاقات بين الرجل والمرأة ، وغير ذلك من مشاكل حلت بما يحقق سعادة الجنس البشرى وهنائه .

وعلى هذا النحو كانت خطابة الرسول - ﷺ - متممة للذكر الحكيم ، ومن ثم كانت فرضاً مكتوباً فى صلاة الجمع والاعیاد ثم مواسم الحج ، وتحفظ كتب الحديث بما اتخذها فيها من سنن وتقاليد ثبتت إلى اليوم ، وبينما كانت تسبق الخطابة الصلاة فى الجمع كانت الصلاة تسبقها فى الاعیاد ، وهى تتوزع على خطبتين يقف فيهما الخطيب على منبر أو نشز من الأرض ، وقد اعتمد على قوس أو سيف أو عصا ويقبل على الناس مسلماً ، وتبدأ الخطبة الأولى فى الجمع بحمد الله تعالى وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويؤثر عن الرسول أنه كان يقول فى فاتحة هذه الخطبة " الحمد لله حمده ، ونستعينه ، ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا مظل له ، ومن يضل الله فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له " ... وعادة



يتلو الخطيب فى الخطبة الأولى له الجمعة بعض أى القرآن الكريم ، حتى يستلهمها فى موعظته . وإذا انتهى منها جلس ، ثم يقوم للخطبة الثانية ، وفيها يكتر من الدعاء ويقال انه كان آخر دعاء أبى بكر فى الخطبة الثانية : " اللهم اجعل خير زمانى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوم لقاتك " .

وكان آخر دعاء عمر : " اللهم لا تدعنى فى غمرة ، ولا تأخذنى فى غرة ، ولا تجعلنى مع الغافلين ، وقل أن نفتتح خطبتنا العيدين بالحمد لله ، انما تفتتح بالتكبير فيكبر الخطيب فى أولهما سبع تكبيرات وفى ثانيتهما خمس تكبيرات .

وطبيعى أن نقضى هذه الخطابة على كل لون قديم من الخطابة الجاهلية لا يتفق وروح الإسلام ولا نقصد سجع الكهان الذى كان يرتبط بدينهم الوثنى فحسب ، بل نقصد أيضاً خطابة المنافرات ، فقد نهى الإسلام عن التكاثر بالآباء والأنساب والأحساب ، وإن ظلت لذلك بقية فى حياة الرسول - ﷺ - حين كانت تقد عليه وفود العرب على نحو ما نعرف عن وفد تميم وقيام خطيبهم عطارى بن حاجب بن زرارى بين يديه مفاخرأ بقومه ، وقد ندب له الرسول ثابت بن قيس بن الشماس ، فرد عليه مستوعبأ هدى الإسلام ، ولم يلبثوا أن استجابوا لله ورسوله .

## ثانياً، الخطابة في عهد الخلفاء الراشدين :

وتمضى في عصر الخلفاء الراشدين ، فتكثر بجانب خطب الجمع والأعياد المواقف التي تجلت فيها براعة هؤلاء الخلفاء كموقف أبي بكر حين انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وموقفه يوم السقيفة ، فقد درأ في الموقفين جميعاً الشعث الذي كاد يودي بالجماعة ، وكذلك موقفه حين ارتد كثير من العرب وامتنعوا عن أداء الزكاة . وكم من خطيب وقف حينذاك يحض قومه على الثورة أو يحثهم على الطاعة ، ولا بد أن نلاحظ أن انتشار الإسلام في الجزيرة أهد منذ أول الأمر إلى أن تتكاثر خطب الجمع والأعياد ، إذ كانت كما قدمنا فرضاً مكتوباً على المسلمين في كل مكان يحلونه من الجزيرة .

ثم تكون الفتوح ، ويخطب أبو بكر في الجيوش الغازية يحض على الجهاد ونشر الدين الحنيف في أطباق الأرض ، وترتفع أصوات القواد بالخطابة في كل قطر حاثين الجنود على الصبر في القتال حتى الاستشهاد طلباً لما عند الله من الثواب ، ويخيل إلى الإنسان كأنما ملك كل منهم من قلوب جنوده ببيانه وبلاغته ما لا تملكه الدنيا بحذافيرها . ولا إذا قلنا أن بلدان الفرس في العراق وإيران وبلدان الروم في الشام ومصر لم يفتح إلا بعد أن فتحت خطبة أحد هؤلاء القواد كخطبة المغيرة بن شعبه في القادسية وخالد بن الوليد في اليرموك وعتبة بن غزوان في فتح الابله ، ونحن

نكتفى بقطعة من خطبة عتبه إذ يقول :

" أما بعد ، فإن الدنيا قد تولت حذاء مدبرة ، وقد أذنت أهلها بصرم ،  
وانما بقى منها صباية كصباية الإناء يصطبها صاحبها ، ألا وإنكم منقولون  
منها إلى دار لا زوال لها ، فانتقلوا منها بخير ما يحضركم " .  
ويتولى عمر فيكثر من الخطابة لا فى الجمع والاعياد ومواسم الحج  
فحسب بل مع كل حادث ، ومع كل خير يأتبه بفتح . وقد صار على هدى  
أبى بكر فى استشارة أصحابه فى كل منهم ، وكل ما يجد من تشريع  
وخادسة فى معاملة الأمم المفتوحة ، وكان هذا بدوره عاملاً من عوامل نمو  
الخطابة فى العصر ، إذا كان الحكم شورياً ، وكان من حق كل شخص أن  
يخطب مصوراً وجهة نظره وفسح عمر الخطابة الوفود فى مجالسه ،  
لأقوامها وتذكر حاجاتها ، واشتهر الاحنف بن قيس سيدتسيم وأحد قواد  
الفتوح بغير خطبة ألقاها بين يديه .

وام تقف الخطابة الدينية فى هذا العصر عند الجزيرة ، فقد أخذت تحل  
مع المسلمين فى كل بلد فتحوها ، وكان هذا بدون شك عاملاً من عوامل  
نموها . إذ تكاثر من يرددونها ومن يحسنون حوكها وصياغتها مستلهمين  
القرآن الكريم وخطابة الرسول فيما يعظون الناس به من مواظ حسنة على  
نحو ما أثار عن عبد الله بن مسعود فى إحدى مواظله ، وفيها يقول لأهل  
الكوفة :

"أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العرى كلمة التقوى ، وخير الملال ملة إبراهيم وأحسن السنن سنة محمد - ﷺ - وشر الأمور محدثاتها وخير الأمور عزائمها ، ما قل وكفى خير مما كثر وألهم خير الغنى غنى النفس ، الخمر جماع الآثام .. أعظم الخطايا اللسان الكذوب ، وسباب المؤمن فسق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه معصية ..

مكتوب فى ديوان المحسنين من عفا عفى عنه . السعيد من وعظ بغير .  
أحسن الهدى هدى الأنبياء "

وفى هذين الاتجاهين الكبيرين من المواعظ والحض على الجهاد مضت الخطابة طوال عصر عمر والسنوات الأولى من خلافة عثمان ، حتى إذا أشعل للتوار عليه فى الكيفة ومصر تار الفتنة أخذت الخطابة فيها مكانها ، إذ وقف أمثال الاشتهر النخعى فى الكوفة ومحمد بن أبى بكر فى مصر يؤلبون الناس عليه . وتتوالى الحوادث ، ويقتل عثمان . ويتولى على بن أبى طالب مقاليد الخلافة ، وتجتمع السيدة عائشة وطلحة والزبير ويقررون الخروج عليه . ويقصدون البصرة ويستجيب أهلها لهم ، فيضطر إلى أن يتبعهم وينزل الكوفة وتكون موقعة الجمل المشهورة ، وفيها ينتصر على وتم له بيعة أهل العراق .

وقبيل هذه الموقعة وفى أثناءها تكثر الخطب بين أنصار على وخصومه فهؤلاء يدعون إلى طاعته وأولئك يدعون إلى منابذته .

وفى تاريخ الطبرى من هذه الخطب كثرة وافرة وممن يذكرهم بين من  
ثبطوا الناس عنه أبو موسى الأشعري ، أمنا من استنقروا الناس له  
فكثيرون ، وعلى رأسهم الأشعث بن قيس والأشتر النخعى وزيد بن صوحان  
وأخوه سيحان .

وانتدب على أهل العراق لقتال معاوية وأهل الشام ، فخرجوا معه إلى  
صفين على حدود الفرات حيث التقوا بمعاوية وجنوده وفى هذه الأثناء تتكاثر  
الخطب كثرة مفرطة وخاصة فى صفوف على وأصحابه وكان هو نفسه  
خطيباً مفوها . وكان بجيشه غير خطيب من أمثال من ذكرناهم أنفاً وأمثال  
عمار بن ياسر وقيس بن سعد بن عبادة وعدى ابن حاتم الطائى وعمرو بن  
الحمق وشبث بن ريعى وقبل اندلاع الحرب كان يتبادل على ومعاوية الوفود ،  
وكان يخطب غير واحد بين أيديهما ، وعبثاً تحاول الوفود لم الشعث ،  
ويقضى الأمر وتنشب الحرب ويخطب معاوية محرّضاً أصحابه . ومن رعبس  
خطبائه حينئذ عمرو بن العاص . وتستمر المعركة وترجع كفة على وجيشه  
رجحاناً واضحاً . فيلجأ معاوية وأهل الشام إلى الخديعة ، إذ يرفعون  
المصاحف على أسنة رماحهم ، مطالبين بالإحتكام إلى كتاب الله على يد  
محكمين يبتدون بآية ، ويخمد القراء فى جيش على سيوفهم ويتبعهم الناس ،  
ويمانعهم على ، فيهددونه بأن يصبح مصيره مصير عثمان ، وينزل على  
إرادتهم ويختار أبو موسى الأشعري عن أهل العراق وعمرو ابن العاص عن

أهل الشام ، وفى أثناء رجوع على بجيوشه إلى الكوفة ، يتبين كثير من جنده أنهم قد خدعوا ويتلومون عليها لأنه قبل التحكيم ، ويعظم الخلاف والشجار بين أصحابه ويخطب فهم ويتكاثر الخطباء بين محبذ للتحكيم ومنفر منه ، ويخرج عليه فريق كبير من جيشه وينزلون معسكراً خاصاً بهم فى حروراء بالقرب من الكوفة فيسمون لذلك بالحرورية ، أما الاسم الشامل الذى جمعهم فهو الخوارج .

ويحاول على وعبد الله بن العباس أن يرداهم إلى سواء السبيل فتقوم بينهما وبينهم مناظرات فى مسألة التحكيم ويكون عمادها الجدل المستمد من نصوص القرآن والحديث ، وبذلك يعرف هذا العصر المناظرة الشفوية ، بل إنها لتتفجر تفجراً . ونحن نورد طرفاً من مناظرة ابن عباس لهم مما احتفظ به الطبرى ، وهو يجرى على هذه الصورة :

" راجعهم ابن عباس ، فقال : ما نقيمت من الحكمين ، وقد قال الله عز وجل [إن يريدوا إصلاً يوفى الله بينهما] فكيف بأمة محمد - ﷺ - ؟ فقالت الخوارج : قلنا أما ما جعل حكمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له فهو اليهم كما أمر به ، وما حكم فأَمْضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه ، حكم فى الزانى بمائة جلدة وفى السارق بقطع يده ، فليس للعباد أن ينظروا فى هذا .

قال ابن عباس : فان الله عز وجل يقول [يحكم به ذوا عدل منكم]

فقالوا له : أو تجعل الحكم فى الصيد والحدث يكون بين المرأة وزوجها  
كالحكم فى دماء المسلمين ؟ وقالت الخوارج : قلنا له : فهذه الآية بيننا وبينك  
، أعدل عندك ابن العاص وهو بالأمس يقاثلنا ويسفك دماثنا فإن كان عدلاً  
فلسنا بعدول ونحن أهل حربيه ، وقد حكمتم فى أمر الله للرجال ، وقد  
أمضى الله عز وجل حكمه فى معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا وقبل ذلك  
ما دعوناهم إلى الله عز وجل فأبوه ثم كتبتم بينكم وبينه كتاباً وجعلتم بينكم  
وبينه المودعة والاستفاضة وقد قطع عز وجل الإستفاضة والمودعة بين  
المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة إلا من أقر بالجزية .

ولما لم يسمح الخوارج ولم يطيعوا اضطرَّ على إلى حربهم وقتك بهم فتكا  
ذريعاً فى موقعة النهروان . وكانوا يظهرن استبسالاً شديداً ، ويدفعهم إلى  
ذلك خطبائهم من أمثال قائدهم عبد الله بن وهب الراسبى وحرقوقس بن  
رهير السعدى والمستورد بن علفة ومن يرجع الى خطبهم يجدها تتقد  
حماسة وحمية من مثل قول ابن وهب فى بعض خطبه :

” أما بعد ، فوالله ما يتبغى لقوم يؤمنون بالرحمن وينيبون إلى حكم  
القرآن أن تكون هذه الدنيا - التى الرضا بها والركون إليها والإيثار إياها  
وتبار - أثر عندهم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والقول بالحق وان  
مسه ضرره فانه من يمسه ضر فى هذه الدنيا فإن ثوابه يوم القيامة رضوان  
الله عز وجل والخلود فى جناته ” .

وينتهى التحكيم بمهزلة خلع على ، وتمتد يد أئمة من أيدي الخوارج إلا ،  
فى الظلام ، فطعن طعنة نجلاء ويسلم الحسن بن على الأمر راضياً إلى  
معاوية ، ويبايعه المسلمون كافة .

#### **أسباب نمو الخطابة وازدهارها فى هذا العصر:**

وأكبر الظن أنه قد اتضح من كل ما قدمنا كيف نمت الخطابة فى هذا  
العصر نمواً واسعاً ، بتأثير الإسلام من جهة وتكاثر الأحداث وتتابعها من  
جهة ثانية ، وليس هذا كله ما يلاحظ فيها ، فقد دارت حول معانى القرآن  
الكريم وخطابة الرسول وأحاديثه ، وهى معان جديدة لم يكن للعربية بها  
عهد ، معانى هذا الدين الحنيف الذى بعث لغتنا ونشرها بعثاً جديداً ،  
والذى مرناها وذلكها لى يحمل قيساً من هذه التعاليم والمواعظ يستضى به  
فى كل ما يخاطب به الناس ابتغاء التأثير عليهم ويلوغ ما يريد من أداء  
الخطبة الدينية الخالصة فى أيام الجمع والأعياد ومواسم الحج وأختها التى  
تدعو إلى الجهاد والحض على قتال الأعداء . ولعله من أجل ذلك أصبح  
التحميد سنة فى كل خطبة ، حتى الخطبة السياسية ، وكانوا يسمون كل  
خطبة تخلو منه بتراء ، كما كانوا يسمون كل خطبة تخلو من اقتباس أى  
القرآن الكريم والصلاة على الرسول شوهاء .

وهناك أخبار كثيرة تدل على أن الخطباء كانوا يزورون كلامهم ويعدون  
على أنفسهم اعداداً طويلاً ، ثم يلقونه على الناس ، حتى لقد روى ذلك عن



عمر بن الخطاب وكان الخطيب يستشهد أحياناً ببعض الأمثال أو ببعض أبيات من الشعر تؤكد المعنى الذي يريد أن يصبه في نفوس سامعيه صبا ، على نحو ما نجد في خطبة لأبي بكر في الانتصار .

وإذا كنا قد لاحظنا في الجزء الأول من هذا التاريخ للأدب العربي غلبة السجع على خطباء الجاهلية فإننا نلاحظ في هذا العصر أنه كاد ينحسر تماماً عن الخطابة إلا بقايا ظلت في خطابة الوفود حين كانت تقدم على الخلفاء .

يقول الجاحظ : " كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين " فتكون في تلك الخطب أسجاع كثيرة " ، وبقية أخرى استظهرها بعض المتنبئة في حروب الردة مثل مسيلمة الكذاب متنبئ اليمامة ويقول الجاحظ أنه " عدا على القرآن فسلبه وأخذ بعضه وتعاطى أن يقارنه " ومما يروى له - إن صح - قوله : " سمع الله لمن سمع وأطعمه بالخير إذا طمع ، ولا زال أمره في كل ما سر نفسه يجتمع . راكم ربكم فمحياكم ، ومن وحشة خلاكم ، ويوم دينه أنجاكم فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار لا أشقياء ولا فجار ، يقومون الليل ويصومون النهار ، لربكم ، رب الغيوم والأمطار " .

ونستطيع أن نقول إن السجع في خطابة هذا العصر كان شيئاً عارضاً ، إذ كان الرسول - ﷺ - لا يسجع في خطابته ، وكان ينفر منه حين يلهج به

أحد محدثيه ، كراهية للتشبيه بالكهان في سجعهم وسار على هديه الخلفاء الراشدون وغيرهم من جلة الصحابة ، يدل على ذلك ما يروى من أن عمر بن الخطاب سأل صحارا العبدى حين قدم عليه من غزو مكران الفارسية عن شأنها وشأن العرب هناك ، فأجابته " أرض سهلها جبل وماؤها وشل وثمرها دقل ، وعدوها بطل ، وخيرها قليل وشرها طويل ، والكثير بها قليل . ان كثر الجند بها جاعوا ، وان قتلوا بها ضاعوا " .

وقد أنكر عمر عليه هذا السجع فقال له : أسجاع أنت أم مخبر . وكان الخلفاء بعد عمر يتكرون السجع على محدثيهم ، وأمامنا خطيب القوم . وهي تخلو خلا تاما من السجع إلا ما جاء عفواً في العين البعيد بعد الصين ، ولكنهم إذا كانوا قد أهملوا السجع ، فانهم لم يهملوا جزالة اللفظ ورسانته ، بل لقد كان هم كل خطيب أن يحسن قوله وأن يصوغه صياغة رائعة .

وأخرى تلاحظ على الخطابة في هذا العصر بالقياس إلى الخطابة الجاهلية ، فإن الخطابة الأخيرة لم تكن ذات موضوع محدد ، ومن ثم كانت تأخذ شكل أقوال متناثرة لا رابط بينها ، أما في هذا العصر فقد أصبح للخطابة موضوع واضح يجول فيه الخطيب ويصوب ، اذ يحدث الناس واعظا ، أو يعرض عليهم حدثاً محدداً من أحداث الاسلام .

بحيث نستطيع أن نقول أن الخطبة أصبحت ذات موضوع ، تلم بأطرافه وتفصيله ، وبذلك كله نهضت الخطابة ونهض معها النثر نهضة واسعة فقد أخذ الخطباء يوسعون طاقته بما يحملونه من معانى الإسلام وما يبسطون فى هذه المعانى ويولدون ويفرعون . ونحن نقف قليلاً عند خطابة الرسول وخطابة خلفائه الراشدين لتتضح صور التطور التى وسعت جنيات النثر وزادت فى معانيه ومادته بأداة البيان الكاملة وأسباب البلاغة الوافرة .

#### منهج الرسول - ﷺ - فى خطابته :-

على هدى القرآن الكريم كله كان محمد صلوات الله عليه يخطب فى العرب ليخرجهم من ظلمات الوثنية إلى نور الهداية السماوية ، وقد أوتى من اللسز والفساحة ما ملك به أزمة القلوب ، وكأنما كانت المعانى والأساليب موقونة بشخصها بين يديه ، ليختار منها ما تهش له الأسماع وتصفى له الأفتة . وقد ظل طوال مكثه بمكة يتلو على قريش ومن يلقاه فى الأسواق كتاب الله حيناً ، وحيناً آخر كان يخطب فى نفس معانى القرآن المكية متحدثاً عن رسالته ، وداعياً إلى وحدانية الله مبيناً أنه يهيمن على الناس فى أعمالهم وأنه سيبعثهم يوم القيامة ليجزى بالاحسان احساناً وبالسوء سوءاً حتى إذا انتقل إلى المدينة فرضت الخطابة - كما قدمنا - فى صلاة الجمع والاء باد ثم فى مواسم الحج . وكان ما يزال يخطب فى الأحداث التى تلم ،

وفى أخباره أنه كان يطيل الخطبة أحياناً إلى ساعات غير أن كتب الأدب والتاريخ لم تحتفظ من هذا التراث القيم إلا بأطراف قليلة ، ولعل مرجع ذلك إلى طول المسافة بين خطبه وعصر التدوين فضاعت أو سقطت من يد الزمن إلا بقايا قليلة .

وأكثر هذه البقايا مما خطب به عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة ، وهو فيها يتطابق مع أى القرآن التى كانت تنزل عليه ، إذ نراه تارة واعظاً وتارة مشرعاً ، وقد يجمع بين الطرفين من الوعظ والتشريع فى نسيج بلاغى رائع . ونحن نسوق أول خطبة خطبها بالمدينة حين صلى بالناس فى دخوله إليها صلاة الجمعة ، وهى تمضى على هذه الشاكلة :

" الحمد لله . أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأومن به ولا أكفره وأعادى من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان وبدنو من المناعة وقرب من الأجل ، من يطمع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصمهما فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيداً وأوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله . فاحذروا ما حذرکم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة

ولا أفضل من ذلك ذكراً . وإن تقوى الله لمن عمل به على ومخافة من ربه .  
عون صوق على ما تبغون من أمر الآخرة . ومن يصلح الذى بينه وبين الله  
من أمره فى السر والعلانية لا ينوى بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً فى عاجل  
أمره ونخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم ، وملكان من سوى  
ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدأ بعيداً ويحذركم الله نفسه ، والله روف  
بالعباد ، والذى صدوق قوله وأنجز وعده لا خلف لذلك ، فإنه يقول عز  
وجل [ما يبذل القول لى وما أنا بظلام للعبيد] فاتقوا الله فى عاجل  
أمركم وأجله ، فى السر والعلانية [ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم  
له أجراً] . ومن يتق الله فقد فاز عظيماً . وإن تقوى الله يوقى مقتته  
ويوقى عقوبته ويوقى سخطه ، وإن تقوى الله يبيض الوجوه ، ويرضى  
الرب ، ويرفع الدرجة ، خذوا بحظكم ، ولا تفرطوا فى جنب الله . قد  
علمكم الله كتابه ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم  
الكاذبين فأحسنوا كما أحسن الله اليكم ، وعادوا أعداءه [وجاهدوا فى  
الله حق جهاده هو اجتباكم] وسماكم المسلمين [ليهلك من هلك عن بينة  
ويحى من حى على بينة] ولا قوة إلا بالله . فآكثروا ذكر الله واعملوا لما يعد  
اليوم . فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس .  
ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه . ويملك من الناس ولا  
يملكون منه ، الله أكبر ، ولا قوة إلا بالله العظيم .

### فريضة روحية

والخطبة موعظة رائعة ، يستمهلها الرسول الكريم بتقرير وحدانية الله وأنه أتم نعمته على الناس بارساله اليهم كي يخرجوا مما هم فيه من غواية وضلالة ويدخلوا فى رعايته الالهية ، فلا يعملوا عملاً بدونه ليتركوا اذن الوراثة الضالة والوسط الشفى على الهلاك ويجتمعوا على هدى الله وتقواه ، وليستشعروه فى السر والعلانية فانه يعلم خائنة الاعين وما يستكن فى الصدور ، وليقدموا من خشيته وطاعته ما يكفرون به عن سيئاتهم وتبيض به وجوههم يوم الحساب حتى يدخلوا فى جناته ، إنه يقوم ما بعده مستعجب ، فاما الجنة وشفيعتها العمل الصالح ، وأما النار وبئس القرار ، ويدفعهم دفعاً إلى الجهاد فى سبيل الله ونشر دعوة الحق والخير ، فقد اجتباهم واختارهم ليضطلعوا بأمانة الرسالة المحمدية ، ولينشروها فى أطراف الأرض . والرسول فى كل ذلك يستوحى القرآن وآياته وهى تقف منازات فى موعظته ، يستمد من اشعاعاتها ما يضيئ به كلامه بل ان وراء هذه الغارات منارات من هدى القرآن ، بحيث نستطيع أن نرد كل موعظته إلى يتابع الضوء التى تفجرت منها ، اذ كانت تسيل فى نفسه ، بل كانت تشع بمحاسن نورها كما يشع نور الشمس فى السماء وكان أحياناً ينتقل فى سرعة من مثل هذا الوعظ ومعانيه الروحية إلى تشريعات يتم بها قيام هذا المجتمع الإسلامى ويسود على كل ما حوله . تشريعات قوامها مسلحة الجماعة وأن يعيش

المسلم متعاوناً متضامناً في سبيل الخير وهو خير تستطيع عليه الجنة  
بنعيمها الخالد خير يكفل سعادة البشرية ، ومن أروع ما يصور ذلك خطبته  
عليه السلام في حجة الوداع وهي تجرى على هذا النمط :

" الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من  
شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل  
فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده  
ورسوله . أوصيكم - عباد الله - بتقوى الله وأحثكم على طاعته وأستفتح  
بالذي هو خير . أما بعد أيها الناس . اسمعوا مني أبين لكم . فإني لا أدرى  
لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفى هذا أيها الناس . ان دماكم  
وأموالكم عليكم حرام . الى أن تلقوا ربكم .

كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا . فى بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟  
اللهم أشهد ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذى ائتمسه عليها . وان  
ربا الجاهلية موضوع . وان أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب  
 . وان دماء الجاهلية موضوعة . وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن  
الحارث بن عبد المطلب . وان مآثر الجاهلية موضوعة غير المدانة والسقاية  
والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بغيره فمن زاد  
فهو من أهل الجاهلية أيها الناس : ان الشيطان قد يئس أن يعبد فى  
أرضكم هذه . ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من

أعمالكم .

أيها الناس [إنما النسيئُ زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه  
عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله أن  
الزّمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض [إن عدة الشهور  
عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها  
أربعة حرم] ثلاثة متواليات ووالد فرد . ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب  
الذي بين جمادى وشعبان . ألا هل بلغت ؟ اللهم أشهد . أيها الناس : إن  
لنسانكم عليكم حقا ، ولكم عليهن حق . لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم  
غيركم . ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم الا باذنكم . ولا يأتين بفاحشة  
مبينة ، فان فعلن فان الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في  
المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن  
وكسوتهن بالمعروف . وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا  
أخذتموهن بأمانة الله واستحلتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء  
، واستوسوا بهن خيراً ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس : إنما  
المؤمنون اخوة ولا يحل لامرئٍ مسلم مال أخيه الا عن طيب نفسه منه ، ألا  
هل بلغت ؟

اللهم اشهد ، فلا ترجعن بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإنى  
قد تركت فيكم ما ان أخذتم به لن تضلوا بعده : كتاب الله ، ألا هل بلغت ؟



اللهم اشهد . أيها الناس : ان ربكم واحد وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم  
من تراب . أكرمكم عند الله أتقاكم . ان الله عليم خبير .  
ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد  
قالوا : نعم ، قال : فليبلغ الشاهد الغائب . أيها الناس : ان الله قسم لكل  
وارث نصيبه من الميراث ، فلا تجوز وصية لوارث في أكثر من الثلث ، والولد  
للفراش وللعاهر الحجر ، من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواله فعليه  
لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . لا يقبل منه صرف ولا عدل ، والسلام  
عليكم ورحمة الله وبركاته . "

وواضح أن الرسول - ﷺ - لم يكذب بالحمد لله والشهادة والوصية  
بالتقوى حتى انتقل بين طائفة من التشريعات الإسلامية التي أقامها الدين  
الحنيف حدوداً بين حياة العرب في الجاهلية وحياتهم في الإسلام ، فقد  
كانوا مفككين متنافرين يتحاربون دائماً طلباً للأخذ بالثأر ونهباً للأموال ،  
وجمعهم الإسلام تحت لوائه في جماعة كبرى متآخيه متناصرة لا يبغى  
بعضها على بعض . ولكي يقضى على كل سبب للحرب بينهم رد دم القتل  
إلى النول فهي التي تعاقب عليه ، ولكي يستأصل هذا الداء دعا إلى التنازل  
عن حق الأخذ بالثأر القديم ، وحرّم النهب والسلب تحريماً قاطعاً مشدداً فيه  
العقوبة .

والرسول يفتتح في الخطبة أوامر الإسلام ونواحيه باعلان ان دماء

المسلمين وأموالهم حرام ، وإن على كل من كانت عنده أمانة أن يره ها على صاحبها ، وأن على كل مسلم أن يرعى أخاه فى ماله . فلا يأخذ منه شيئاً إلا بالحق ، ومن ثم حرم الربا ، وبدأ بعشيرته متاجر اليوم العباس بن عبد المطلب فأسقط عن رقاب المدينين له رباہ . وعلى نحو ما أسقط الربا أسقط دماء الجاهلية . فليس لمسلم أن يتأثر لتقبل له وبدأ بعشيرته فأسقط دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ولم يبق من مآثر الجاهلية شيئاً سوى خدمة الكعبة وسقاية الحجيج .

وأوجب فى قتل العمد القود ، ولكن الدولة هى التى تقوم به وبذلك قضى الإسلام على حروبهم الداخلية . وقد جعل فى القتل شبه العمد مائة بغير . كل ذلك ليحفظ للجماعة وحدتها ويسود بين أفرادها السلام والوثام . ويحذر الرسول من الشيطان وغواياته ، محرماً للتلاعب بالاشهر الحرم ، وضعاً تقويماً قمرياً يتألف من اثنى عشر شهراً منها أربعة حرم : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب . ويرفع من شأن المرأة ومعانى علاقاتها بزوجها ، فيجعل لها حقوقاً وعليها واجبات ، وفى الطرفين جميعاً يحفظ لها كرامتها كما يحفظ لزوجها نفس الكرامة ، داعياً إلى التعاطف بينهما والتراحم والتعامل برفق واحسان .

ويعود إلى العلاقة بين الفرد وجماعته الكبرى من الأمة ، فيقرر أن المؤمنين أخوة لكل منهم على صاحبه ما للاخ على أخيه من التآزر والتعاون

والتعاب ، فلا بطش ولا ظلم ولا نهب ، ولا حرب ولا شفق للماء ، إنه لعهد من نقضه عاد كافراً أثماً قلبه ، لقد انتهى عهد الحياة القبلية وكل ما اتصل بها من تنابذ وتفاخر . فالناس جميعاً لأدم ولا عربى عذنانى ولا عربى قحطانى ، بل لا عربى ولا أعجمى ، فقد وضعت موازين جديدة لحياة العرب ، فلم يعد التفاضل بالنسب والحسب ، انما أصبح بالتقوى فهى معيار التفاضل ، وبلغت الرسول سامعيه إلى ما قرره القرآن فى الميراث وأنصبتة . وأن للمورث أن يوصى بالثلث من ماله ويرسى قاعدة مهمة فى شرعية الأبناء . وخاصة هؤلاء الذين تدهم العواهر ، فينسبهم إلى أصحاب الفراش . وكانوا ينسبونهم إلى غير آبائهم ، وقد لا ينسبونهم أبداً ، فحرم ذلك تحريماً باتاً ، وبذلك قضى على نبالة النسب من جهة الخنولة قضاء مبرماً .

وعلى هذا النحو كان الرسول صلوات الله عليه يبين فى خطابه حدود الحياة الإسلامية وما ينبغى أن يأخذ به المسلم نفسه فى علاقاته الكبرى مع أفراد أئنه وعلاقاته الصغرى مع أسرته ، فإن ترك ذلك فالى وعظ المسلمين وما ينبغى أن يأخذوا أنفسهم به . فى سلوكهم حتى تزكو نفيسهم وفى عبادتهم لربهم وتقواه حتى التقوى حتى لا يزيغوا ولا ينحرفوا عن المحجة ، بل يتدرجوا فى مراقى الكال الانسانى .

وهذه الخطبة وسابقتها نصابان فى دقة حسن منطق الرسول فى خطابه ،

، وأنه لم يكن يستعين فيها بسجع ولا بلفظ غريب ، فقد كان يكره اللونين جميعاً من الكلام لما يدلان عليه من التكلف ، وقد يراه الله منه إذ يقول في كتابه العزيز : قل يا محمد : [وما أنا من المتكلمين] والذي لا شك فيه أنه كان يبلغ بعفوه وقوى فطرته ما تنقطع بونه رقاب البلغاء . وقد وصف الجاحظ بلاغته في خطابته أذى وصف ، فقال أنه [ جانب أصحاب التقصيب ، واستعمل المبسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الافهام وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن اعادته وقلة حاجة السامع إلى معاودته . لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة .

ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذ الخطيب الطوال بالكلم القصار ، ولا يلتمس اسكات الخصم الا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج الا بالحق ولا يستعين بالخلافة ... ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزناً ولا أجمل مذهباً ولا أكرم مطلباً ولا أحسن موقعاً ولا أسهل مخرجاً ولا أفصح معنى ولا أبين فى فحوى ، من كلامه - [ - ونضيف إلى الجاحظ أنه عليه السلام هو الذى

فتق معانى هذه الخطبة الدينية التي لم يعرفها العرب قبله فهو الذى رسمها  
وفجر يناييعها بحيث أصبحت مادة للخطباء من بعده ، وكأنما احتشد الكلم  
بأزمته اليه .

ليختار منه أفصحه وأسلمه وأبينه فى الدلالة ، يسعفه فى ذلك نوق  
مرهف وحسن دقيق تتبينهما فيما روى عنه من قوله : [ لا يقولن أحدكم  
خبثت نفسى ولكن ليقل : لقست نفسى ] كراهية أن يضيف المسلم الظاهر  
إلى نفسه الخبث ، مما يدل على أنه لم يكن ينطبق إلا باللفظ المختار البرئ  
من كل ما يستكره ، اللفظ الذى يوجب إلى النفوس لحلاوته وعذوته وصفائه  
ونقا . منهج الخلفاء الراشدين فى الخطابة :-

كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلى فى الذروة من الفصاحة والبلاغة إذ  
سرى فى نفوسهم بيان القرآن بترغيبه وترهيبه وبيان الرسول بمواعظه  
وتشريعاته ، وتسرب هذا البيان إلى أجزاء نفوسهم وأخذ بمجامع قلوبهم .  
« كان أبو بكر أول من أسلم من الرجال ، وكان أحب رفيق إلى الرسول  
وأدب أصحابه وقد نوه القرآن بذكره ، فقال جل شأنه : [ فأما من أعطى  
واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ] وفيه نزلت آيات أخرى . وهو  
خير من يمثل المسلم بأخلاقه وفضائله وحميته للدين وتأثره بهدى القرآن  
الذي يرسوله تائراً استحوذ على كل نفسه ، فإذا لسانه يتدفق تدفق السيل  
، بما استشعر من معانى الإسلام وقيمه الروحية ، وقد آثرت عنه خطب

كثيرة تدل دلالة واضحة على شدة شكيمته فى الدين ويقلته وصدق حسه ،  
وأنه حقاً كان أجدر أصحاب رسول الله بخلافته ، فمن ذلك أنه - لما انتقل  
الرسول إلى الرفيق الأعلى واضطراب الناس وماجوا ، وقالوا وقال معهم  
عمر بن الخطاب : ان الرسول لم يمته - أقبل فكشف عن وجهه ، فقبله ،  
وقال : بأبى أنت وأمى طبت حياً ميتاً . وخرج من عنده ، فبدر السحابة  
بخطبته المشهورة التى قال فيها " من كان يعبد محمد فان محمداً قد مات ،  
ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يميت " ثم أخذ فى بيان غلط من كذبوا  
موته محتجاً عليهم بمثل قوله تعالى [انك ميت وانهم ميتون] وتلا : [وما  
محمد إلا رسول الله قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على  
أعقابكم ] ثم تلا [كل نفس ذائقة الموت] ثم تلا [كل شئى هالك إلا وجهه] .  
فتاب من كذبوا موته رضوان الله عليه إلى رشدهم .

ولم يلبث أن عرف أن الأنصار قد اجتمعوا إلى سعد بن عبادة فى سقيفة  
بنى ساعدة يقولون : منا أمير ومن قريش أميره فراعته ذلك وخشى على  
الامة من الفرقة والطمع فى الملك ، فبادر اليهم قبل أن يستفحل الشر ،  
وتبعه عمر وأبو عبيدة فى نفر من المهاجرين . وهناك خطب فى الأنصار  
فأقنعهم أن يجتمعوا على رجل من قريش ، وتمت البيعة له . فخطب فى  
الناس بعد أن حمد الله وأثنى عليه وقال :

"أيها الناس : انى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان رأيتمونى على

حق فأعينوني . وان رأيتموني على باطل فسددوني . أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم . ألا ان أقواكم عندي الضعيف حتى أخذ الحق له ، وأضعفكم عند القوى حتى أخذ الحق منه . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم " .

وأخذت تتجلى مواقفها العظيمة ومآثره الكريمة ، فإنه أمر أن يخرج بعث أسامة إلى وجهته من حرب الروم كما أمر الرسول ، وكان كثير من العرب قد منعوا الزكاة ، ومشى اليه كثير من المهاجرين والأنصار يقولون له إلا قبل لنا بحرب العرب ، فأقبل الصلاة منهم وترك الزكاة فقال قوله المأثور : " لو منعوني عقالا مما أعطوه النبي لجاهدتهم عليه " وجاهدهم بجيوشه ، حتى عادوا إلى الإسلام بعد ردتهم وإذا أخذنا نقرأ في خطبه وجدنا جمهورها وعظا يستمد مادته من القرآن الكريم وكلام الرسول على شاكلة قوله في خطبة له :

" ان الله عز وجل لا يقبل من الأعمال الا ما أريد به وجهه فأريدوا الله بأعمالكم واعلموا ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها وحظا ظفرت به وضرائب أديتموها وسلف قدمتموه من أيام فانية لأخرى باقية .

أحين فقرم وحاجتكم . اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم أين كانوا أمس وأين هم اليوم ؟ أين الجبارون ؟

.. أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط وجعلوا فيها الأعاجيب ؟ .  
قد تركوها لمن خلفهم . فتلك مساكنهم خاوية ، وهم فى ظلمات القبور  
هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ... ألا ان الله لا شريك له .  
ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيراً ولا يصرف عنه سوءاً  
إلا بطاعته وأتباع أمره . واعملوا أنكم عبيد مدينون . وأن ما عنده لا  
يدرك إلا بطاعته ، أما أنه لا خير بخير بعده النار ، ولا شر بشر بعده  
الجنة " .

وامتن بجانب مثل هذه الموعظة سنة الوصية للجيش الفاتحة  
وهو فى وصاياه يصدر عن روح الإسلام الصحيحة وتعاليمه السامية  
فى معاملة المسلمين لمن يغلبون عليهم ، إذ يطلب أن لا يخونوا ولا يقدروا  
ولا يمتثلوا ولا يقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا يفسد  
وازرعاً ولا يستحلوا مالاً إلا للمأكلة ولا يستعرضوا رهبان النصارى  
وتسير ذلك كلمة وصيته لجيش أسامة بن زيد حين سيره الى مشارف  
الشام وفيها يقول :

"أيها الناس : قفوا أوصيكم بعشرة فاحفظوها عنى : لا تخونوا ولا تغلوا  
ولا تغدروا ولا تستلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تقهروا  
نخلاً ولا تعرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تدبحون شاة ولا بقرة ولا بعيراً  
إلا للمأكلة . وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم



وما فرغوا أنفسهم له " .

وواضح مما تمثنا به من خطابة أبي بكر أنه لك يكن يلهج بسجع انما كان يلهج بكلم فسيح جزل واضح الدلالة عما فى نفسه . وكان يتخير لفظه ، وربما كان من الادلة على ذلك ما يروى من أنه عرض لرجل معه ثوب ، فقال له : أتبيع الثوب ؟ فأجاب : لا ، عافاك الله فتأذى أبو بكر مما يوهمه ظاهر اللفظ قد يظن أن النفي مسلط على الدعاء ، فقال له : لقد علمتم لو كنتم تعلمون ، قل : لا وعافاك الله " .

وكان من صواب رأيه وصحة فراسته اختياره عمر خليفة من بعده ، وكان على شاكلته نفاذ بصيرة وصدق عزم وبلاغة لسان ، كما كان صفى رسول الله وقد أعز الله به الإسلام فى مكة حين أعلى ولاء لرسوله وما زال منقطعاً إليه والرسول يقر به منه ويتخذة موضع مشورته ، حتى توفى وخلفه أبو بكر . فكان له نعم الظهير والمعين . ولما أسندت إليه مقاليد الخلافة نهض بها فى رجاحة عقل ، حتى إن أحد لم يرد عليه رأياً واحداً ولا عملاً واحداً . وما زال يوطئ الأمر بسعة حلم وثدة عزم .

مجنداً للاجناد ، حتى فتحت فارس وثم فتح الشام وفتحت مصر ، وهو على ذلك كله نعم الكالى ، والحاظ لرعيته . وكان بيانه فى مقدار عقله قوة وسداداه ان كان فى مرتبة رفيعة من البلاغة والفصاحة .

حتى قالوا انه كان يستطيع أن يخرج الضاد من أي شذقيه شاء ، فما هو إلا أن يقف بين الناس واعظاً أو يقوم في الجنود ناصحاً حتى يهدر بكلامه وحتى تنصاع له القلوب انصياعاً ، ونحن نكتفى بقوله في إحدى مواضعه :

"ان الله سبحانه ويحمده قد استوجب عليكم الشكر ، واتخذ عليكم الحجج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا من غير مسألة منكم له ولا رغبة منكم فيه اليه فخلقكم تبارك وتعالى ، ولم تكونوا شيئاً لنفسه وعبادته ... وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، وحملكم في البر والبحر ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون . ثم جعل لكم سمعاً وبصراً ، ومن نعم الله عليكم نعم عم بها بنى آدم ، ومنها نعم اختص بها أهل دينكم ، ثم صارت تلك النعم خواصها وعوامها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم ، وليس من تلك النعم نعمة وصلت إلى امرئ خاصة إلا لو قسم ما وصل إليه منها بين الناس كلهم أتعبهم شكرها وفدحهم حقها إلا يعون الله مع الإيمان ورسوله ، فأنتم مستخلفون في الأرض ، قاهرون لأهلها ، قد نصراك دينكم ... والله المحمود مع الفتوح العظام في كل بلد ... فنال الذي لا إله إلا هو الذي أبلانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته والمسارعة إلى مرضاته "

وسار سيرة أبي بكر في تشييع الجيوش بالخطابة محرّضاً على الجهاد حتى ينتشر الدين الخفيف في أقطار الأرض وهو لن ينتشر إلا بالقوة التي تعز وتعلّى سلطانه ، انها معركة الإسلام ، معركة النفوس المؤمنة التي وعدّها الله أن تترك الأرض ومن عليها . وما زال عمر يبرز هذه المعاني محاولاً أن يرتفع العرب في جهادهم عن ضعف المخلوق ويصبحوا قوة من قوات الخالق ، يقول في بعض هذه الخطب :

" اين الطراء المهاجرون عن موعود الله ؟ سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال : ليظهره على الدين كله [ والله مظهر دينه ومعز ناصره ، ومولى أهله مواريث الأمم ، أين عباد الله الصالحون ؟

ولما اجتمع الجيش أمر عليه أول من أجابه حينئذ إلى الجهاد وهو أبو عبيد بن مسعود وقال له : " اسمع من أصحاب رسول الله - ﷺ - وأشركهم في الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين فانها الحرب والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكث الذي يعرف الفرصة والكف "

وتوفى عمر ، فخلفه عثمان ، وكان يهبط درجة عنه وعن أبي بكر في الفصاحة والبيان . ويروى أنه ارتج عليه يوماً وقد أراد الخطابة في الناس فقال : " أن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالاً ، وأنتم إلى امام عادل أحوج منكم إلى امام خطيب " وليس معنى ذلك أنه كان يرتج عليه

دائماً ، فقد كان يخطب أحياناً ، فيملاً النفس بمواعظه ، على شاكلة قوله حين يابعه أهل الشورى والناس :

"أنكم فى دار قلعة وفى بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أتيتم ، صبحتم أو مسيتم . ألا وان الدنيا طويت على الغرور فلا تفرنكم الحياة الدنيا ولا يفرنكم بالله الغرور . واعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا ، فانه لا يغفل عنكم ، أين أبناء الدنيا واخوانها الذين أثروها وعمروها ومتعوا بها طويلاً ؟ ألم تلفظهم ؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها واطلبوا الآخرة فان الله قد ضرب لها مثلاً ، فقال عز وجل [واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلنا من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شئ مقتدراً ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً] .

وامتحن فى آخر أيامه بالثورة عليه ، فلم تنحرف نفسه ، بل ظل صابراً يتلوا القرآن ويدعو الناس إلى أن لا يحدثوا فتق هذه الفرقة وهو فى أثناء ذلك يعظهم أن لا تبطرحهم الدنيا وأن يؤثروا ما بقى على ما يفنى فيلزموا الجماعة ، ولا يتخاذلوا فيسبحوا أحزاباً .

وولى على الخلافة من بعده ، والفتنة تموج بالناس . وطلحة والزبير والسيدة عائشة يؤلبون عليه أهل البصرة ومعوية يؤلب أهل

الشام ، فاصطدم بهم جميعاً ، وانتقل إلى الكوفة يجمع الناس ويحاربهم . وانتصر على الثلاثة الأولين ، ودخل مع معاوية في حروب صفين . ثم كانت خدعة التحكيم ، وخرج عليه فريق من جيشه فاضطر إلى حربه ، وهو في كل ذلك ويخطب واعظاً حيناً وداعياً إلى جهاد خصومه حيناً آخر . وكان خطيباً مفوهاً لا يشق غباره ومن مواعظه قوله :

" ان الدنيا قد أدبرت وأذنت بوداع ، وان الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع ، وان المضبار اليوم والسباق غداً . ألا وأنكم في أيام أمل من وراثه أجل ، فمن أخلص في أيام أملة قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ، ولم يضره أملة . ومن قصر في أيام أملة قبل حضور أجله خسر عمله ، وضره أملة ، ألا فاعملوا لله في الرغبة ، كما تعملون له في الرهبة ألا واني لم أر كالجنة قام طالبها ، ولا كالتار نام هاربيها .

وطبيعي أن تكثر خطبه في حروب خصيمه وقد ظل نحو أربع سنوات يجاهد هم ويخطب في أصحابه حاثاً لهم على الجهاد ، ومن قوله في خطبة له بأخرة من أيامه وقد تقاعس بعض جنده ، وأخذت جنود معاوية تغير على أطراف العراق :

" ان الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن توكه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء ، ولزمه الصغار ، وميم الخسف ، ومنع النصف ألا واني

قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً ، وقلت لكم :  
اغزوه قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غزى قم قط في عقر دارهم الا ذلوا ،  
فتواكلتم وتخاذلتم ، وثقل عليكم قولى . واتخذتموه وراعكم ظهيرياً ، حتى  
شنت عليكم الغارات ... فيا حجياً من جد هؤلاء القوم فى باطلهم وفشلكم  
عن ححكم .. حتى صرتم هدنا يرمى وفيئاً ينتهب ، يغار عليكم ولا تغيرون ،  
وتغزون ولا تغزون .. قد وريتم صدرى غيظاً ، وجرعتمونى الموت انفاساً ،  
وأفصدتم على رأىى بالعصيان والخذلان " .

وقد خلف على خطباً كثيرة ، نجد منها أطرافاً فى البيان والتبيين وعيون  
الأخبار والطبرى على أنه ينبغى أن نقف موقف الحذر مما ينسب إليه من  
خطب فى الكتب المتأخرة وخاصة نهج البلاغة فان كثرتة وضعت عليه وضماً  
، وقد تنبه إلى ذلك السابقون . واختلفوا فى واضعها هل هو الشريف  
المرتضى أو الشريف الرضى ، وقد توفى أولهما سنة ٤٣٦ للهجرة بينما  
توفى الثانى سنة ٤٠٦ .

وممن يقول بأنه الشريف المرتضى الذهبى فى ميزان الاعتدال وابن حجر  
العسقلانى فى لسان الميزان . وذهب النجاشى المتوفى سنة ٤٥٠ للهجرة فى  
كتابه " الرجال " إلى أن مؤلف الكتاب هو الشريف الرضى وأقر هو نفسه  
بذلك ، اذ ذكر فى الجزء الخامس المطبوع من تفسيره أنه هو الذى ألفه  
باسمه : نهج البلاغة ، وذكر ذلك أيضاً فى كتابه " مجاوزات الآثار النبوية "

والمظنون أن الوضع على قديم . فقد ذكر السعدي في مروح الذهب أن  
أربعمئة خطبة ونيفا وثمانين يتداولها الناس .  
ولعل في ذلك ما يدل على وجوب التحرز والتثبت فيما يضاف إليه من  
خطب ، وأن لا نعول على شئ منها إلا إذا جاء في المصادر القديمة التي  
أشرنا إليها ، وأن ما جاء فيها لكاف في تصوير قدرته الخطابية واحسانه  
احسانا كان يخلب ألباب سامعيه ويؤثر في نفوسهم تأثيراً عميقاً .  
وواضح من كل ما قدمنا كيف ارتقت الخطابة في هذا العصر ، وكيف  
تحولت إلى وعظ الناس وارشادهم لما فيه كمالهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة  
وقد أخذت ميادينها تتسع باتساع السيادة على الشعوب المفتوحة ، كما  
أخذت تتشعب منذ فتنة عثمان شعباً كثيرة . منها ما يتصل بالجهاد والحرب  
ومنها ما يتصل بالمناظرة في الآراء السياسية المتعارضة بين على وخصومه  
القرشيين من جهة ثم بينه وبين الخوارج من جهة أخرى . وهي في كل ذلك  
تستمد من القرآن وخطابة الرسول وأحاديثه ، تستمد المعاني وتستمد  
الأساليب ذات البهاء والرونق .

## الفصل الثامن

### الخطابة والخطباء فى العصر الأموى

#### أولاً: حال الخطابة :

أسهمت عوامل كثيرة فى ازدهار الخطابة لعصر بنى امية ، اذ كانت لا تزال للعرب سلاقتهم اللغوية ولم تفسد أسنتهم بمجاورة الأمم الأجنبية والاختلاط بشعوبها ، وكانوا من بلاغة المنطق وحسن البيان وجودة الافصاح والافهام بحيث يستطيع متكلمهم أن يبلغ ما يريد استمالة الإسماع مع الديباجة الرائعة والرونق البديع .

وقد وقف الجاحظ طويلاً فى كتابه البيان والتبيين يشيد بقدرتهم الخطابية ، وبلغ من اشاداته بهذه القدرة ان رفعهم فى الخطابة على جميع الأمم ، حتى الفرس واليونان ، وهو محق فى تقديمه لهم على الفرس أما اليونان فمن المعروف أن الخطابة بأنواعها السياسية والقضائية والحفلية نشطت عندهم نشاطاً واسعاً وانه اشتهر بينهم غير خطيب مثل ديموستين ، وتوج هذا النشاط بكتاب الخطابة الارسططاليس .

ويظهر أن الجاحظ لم يكن يعرف شيئاً من ذلك ، ومن ثم مضى يقدم الفرس على اليونان فى الخطابة ، ومما لا شك فيه انهم يتخلفون عنهم وعن العرض جميعاً فى مضمار هذا الفن من فنون النشر القولى .



ثانياً : أسباب ازدهار الخطابة في هذا العصر :

وعوامل مختلفة هيأت للخطابة العربية أن تبلغ في هذا العصر كل ما كان ينتظر لها من نشاط وازدهار ، بالإضافة إلى ما ذكرناه من مواهبهم البيانية ، ومن الممكن أن نردها إلى السياسة والمصافل والدين ، فأما من حيث السياسة فإن هذا العصر امتاز بظهور معارضة حادة فيه للدولة الأموية ، وهي معارضة كانت تبور كما مر بنا في غير هذا الموضع على الخلافة وهل تقصر على بني أمية أو تكون حتى شائعاً للمسلمين جميعاً أو ترد إلى بني هاشم وأبناء علي خاصة . أو تكون حقاً للعرب ، فلا تختص بها قرشي . وكان الأمويون وولاتهم من مثل زياد والحجاج لا يزالون يقررون أنها حق لهم وأن الله اصطفاهم ليقبوا العرب والمسلمين ويحكموهم بشريعته . وانبرى لهم الخوارج يصيحون منذ خروجهم على علي بن أبي طالب بأن الخلافة حق عام للمسلمين ، يتولاها خيرهم زهداً وتقوى وورعاً ، ولو كان غير قرشي ، بل لو كان غير عربي . ومضوا يحاجون في أول الأمر عليا وابن عباس ، ثم أخذوا يحاجون ابن الزبير ، واختلفوا فيما بينهم وانقسموا فرقاً وطرائق قديداً ، فكان منهم الازارقة والنجيدات والصفرية والاباضية ، وأخذ كل فريق يحتج لرأيه مستعيناً بدقة مداخله في حجة .

ومنذ قيام علي بالكوفة ظهرت من حوله جماعة ترى أنه هو وأبناء أصحاب الحق الشرعي في الخلافة . ويتوفى علي ، فيدعون للحسن ، ويخيب

ظنهم فيه حين يتنازل عن الخلافة لمعاوية . ولا تهدأ ثائرتهم فيطلبهم زياد بن أبيه ، وقصته مع حجر بن عدى مشهورة ، ويتوفى معاوية ، فتكتب شيعة الكوفة إلى الحسين ، ويتجه إليهم ، ولكنه يقتل بكريلاء دون غايته ، ويتوفى يزيد بن معاوية ، فتتشب حركة التوابين ، يقودها سليمان بن صرد ، وتبوء بالخذلان . حينئذ يتولى قيادة الشيعة هناك المختار الثقفي ، وما يزال يخطب ويدعو حتى يجتمع عليه خلق كثير ، ويتجرد له مصعب بن الزبير ، فيقضى عليه قضاء مبرماً . ونمضى إلى القرن الثاني فيظهر زيد بن علي بن الحسين ، ويثور ، وسرعان ما يقضى عليه .

ويتكون في هذه الأثناء حزب عبد الله بن الزبير ، ويظل نحو ثماني سنوات ، وكان هذا الحزب يدعو إلى عودة الخلافة إلى الحجاز وأن يتولاها أحد أبناء كبار الصحابة من قريش ، لا هؤلاء الامويين الذين حولوا الخلافة إلى دمشق واخذوا هناك يحكمون الناس مستندين إلى القبائل اليمنية لشامية وبذلك ضاع الحكم من قريش ومن الحجاز جميعاً .

وكان كثير من سادة العرب واسرها النبيلة يرى أن الخلافة ينبغي أن لا تقصر على قريش وأن ترد إلى العرب قاطبة ، وبلغ هذا الشعور قمته في الكوفة ، فانبرى عبد الرحمن بن الأشعث الكندي يعبر عنه في

ثورته على الحجاج ، تؤيده بلدته ، ولكن ثورته باع بالفشل ، ولا تصل إلى أوائل القرن الثاني حتى يثور نفس الثورة يزيد بن المهلب ، وتدور عليه الدوائر .

ودائماً تلقانا في صفوف هذه المعارضة خطابة كثيرة ، إذ يستشق الخطباء ألسنتهم في تصوير مذاهبهم السياسية . يدعون لها ، كما يدعون للانتفاض على بني أمية ، وكان يلقاهم أنصار الأمويين بخطابة ملتهبة ، يصورون فيها خروجهم على الجماعة وشغبهم وأنهم يضلون الطريق ، وكل ذلك هياً في قوة النشاط الخطابية السياسية ، ومن الممكن أن نضيف إلى هذا الجانب خطابة القواد في الجيوش الغازية شرقاً وغرباً ، إذ قلما احتدمت معركة إلا احتدم معها الشعر والخطابة ومن الممكن أيضاً أن نضيف ما احتدم بين القبائل من خصومات قبلية جعلتهم يقتلون كما جعلتهم يخطبون متوعدين منذرين على نحو ما مر بنا في خصومات قيس من جهة وتغلب والقبائل اليمينية من جهة ثانية سواء في الشام أو في الجزيرة . وكذلك خصومات تميم والازد في البصرة وما اندلع من السنة هذه الخصومات جميعاً في خراسان . وهي - كما قدمنا - خصومات كانت تختلط فيها العصبية القبلية بالسياسة وموقف القبائل من بني أمية ونصرتهم لهم أو انفضاضهم عنهم .

وإذا تركنا السياسة وأحزابها وأحداثها إلى المحافظ ووفودها وجدنا لذلك أثراً قديماً منذ الجاهلية ، وقد أخذت هذه الوفود تكثر منذ حياة الرسول - ﷺ - وخاصة بعد فتح مكة . ولما فتحت الفتوح ومصرت الأمصار واستبحرت الدولة واتسعت كان يقدم على الخلفاء الراشدين من ينبئونهم بالفتح ، ومن يذكرون لهم حاجة قومهم في المصر الجديد . ويدخل في عصر بنى أمية ، فتتحول هذه الوفود إلى سيول ، تقصد قصور الخلفاء وقصور الولاة ، متحدثة في شئون قومها ، واشتهر معاوية باستقدامه الوفود من الأمصار حين تعن له فكرة سياسية كفكرة تولية ابنه يزيد الخلافة من بعده .. وكانت هذه الوفود تنوب عن أقوامها في بيعة الخليفة الجديد وفي بث شكواها حين يلم بها ما يوجب الشكوى . وانبثقت في هذه الأثناء خطب التهئة والتعزية . وكانوا يسمون محافل هذه الوفود باسم المقامات وفي العادة كان ينوب عن القوم في هذه المقامات سيدهم الذي يصدر عن رأيه . ويتصادف في بعض الأحيان أن تجتمع وفود مختلفة حينئذ يتبارى خطباؤها . ويحاول كل منهم أن يكون له قصب السبق في البيان والفصاحة .

وبجانب المحافظ والسياسة دفع الإسلام إلى نشاط واسع في الخطابة إذ جعلها جزءاً لا يتجزأ من صلاة الجمعة والعيدين ، فأبان ركز الإسلام أعلامه انتصبت المنابر في المساجد كي يعظ الخطباء الناس بالمواعظ

الحسنة ، يسهم فى ذلك الخلفاء والولاة ، وجمهور كبير من الخطباء ، ولم تلبث جماعة أن عاشت حياتها تعظ الناس مستلهمة هدى القرآن الكريم وتعاليم الرسول - ﷺ - ، وكثر افراد هذه الجماعة فى كل مصر ، وكثر بجانبهم جماعة من القصاص ، كانوا يقصون على الناس مازجين قصصهم بتفسير أى الذكر الحكيم ويكثر من مخلفات أهل الكتب السماوية وتراثهم الدينى ، وكانوا يستهون الناس . بما يوردون عليهم من أخبار عجيبة ، وكان نفر منهم يتزيد فى هذه الاخبار تزييداً شديداً مما جعل كثيرين من زهاد الأمة ونساکها ينفرون منهم ، وخاصة حين رأوا معاوية وخلفاءه يستغلون بعضهم للدعوة لهم والازدراء على خصومهم فارضين لهم رواتب ومكافئات شهرية ولعل من الريف أن هؤلاء القصاص كانوا ينبثون فى الجيوش لتخميس الجند على القتال . كما كان يثبت معهم جماعة من الوعاظ ، وفى الطبرى نصوص تدل على ذلك كثيرة ، اذ نجد عتاب بن ورقاء حين نازل شبيباً الخارجى يقص على جنده محملاً لهم كما نجد قتبية بن مسلم فى حراسان يسأل عن واعظ جنده محمد بن واسع الازدى الناسك المشهور ، ولم يكن ذلك قاصراً على جيوش الدولة ، فقد كان الخوارج يذهبون نفس المذهب ومن كبار قصاصهم صالح بن مسرح الصفرى ، وفى الطبرى طرف من قصصه ، وكذلك كان

يصع أصحاب الثورات على نحو ما نعرف عن جهنم ابن صفوان  
وصنيعه في فتنة الحارب بن سريج بخراسان .  
وفي هذه البيئة الدينية ، بيئة الوعظ والقصص ، أخذ يتضح رقى العقل  
العربي بما أصاب من كنوز الثقافات الأجنبية ، فإذا جدل كثير يشب في  
مسائل العقيدة ، كمسألة ارتباط الإيمان بالعمل ، وهل يعد المسلم مؤمناً  
وإن لم يؤد الفروض الدينية ، ومثل مسألة حرية الإرادة وهل الإنسان مخير  
في الحياة أو مسير لا حول له ولا قوة ، ومثل مسألة صفات الله ، هل هي  
عين الذات الإلهية أو غيرها ، وسرعان ما تكونت فرق الجهرية والمرجئة  
والقدرية والمعتزلة ، مما عرضنا له في غير هذا الموضوع .  
والمهم أن هذه الفرق تجادلت جدالاً طويلاً في هذه المسائل العقيدية وهو  
جدال رشح لقيام مناظرات عنيفة بينها ، وهي مناظرات حشدوا لها كل ما  
يمكن من أدلة نقلية عن الكتاب والسنة وأدلة عقلية مدارها على البرهان  
المنطقي . ولم تكن هذه الفرق تتجادل فيما بينها فحسب ، بل كانت تجادل  
أيضاً طوائف من أصحاب الديانات السماوية وغير السماوية ، وكانوا  
يرونهم في جدالهم يستعينون بالمنطق اليوناني وشعب مختلفة من الفلسفة  
والثقافات الأجنبية ، فطلبوا الوقوف على ذلك كله ، وهم من هذه الناحية  
يعدون أسبق الطوائف العربية في معرفة شئون الفكر الأجنبي ودقائق  
احتجاجاته .

وعلى هذا النحو انبثق علم الكلام فى عصر بنى أمية ، وانبثقت معه صور خطابية جدلية هى صور المناظرة والمحاورة ، وهى صور جديدة ضمت إلى صور الخطابة السياسية والحفلية والدينية ، صور كانت تسعى إلى نقص أدلة الخصوم وبيان أنهم مخدوعون فيما يذهبون إليه من آراء ، وكان الناس يجتمعون من حول أصحاب هذه الصور فى حلقات يقف فيها المناظر ومعه أصحابه ، فيعلن رأيه دليل ، ويتقدم خصمه بين أنصاره فيحاول أن يحطم له كل دليل قدمه ، وأن يثبت رأيه هو بما يجمع له من براهين ، وسنرى مدى ما كان لهذه المناظرات من أثر فى رقى الخطابة رقىاً بعيداً .

ثالثاً : أنواع الخطابة فى العصر الأموى :

(٨) خطباء السياسة :

نمت الخطابة السياسية فى هذا العصر ونهضت نهوضاً عظيماً إذ دارت على كل لسان مؤيد أو معارض للدولة ، فأبان وليت وجهك فى السلم والحرب وجدت الخطباء متراسين فى صفوف متلاحقة يخطبون الناس محاولين أن يستميلوهم إلى آرائهم داحضين بكل ما وسعهم آراء خصومهم وتموح كتب الأدب والتاريخ بما نثروه من خطبهم وأقوالهم وأرجع إلى الطبرى فستراه لا يعرض عليك أى رأى دون أن يشفعه غالباً بما خطب به صاحبه وأورد من حجج تؤيده ، وكثيراً ما يناقضه خصومه مظهرين ما فى رأيه من تمويه .

وليس هناك حزب ولا ثورة كبيرة أو صغيرة إلا وخطباء كثيرون ينبرون الترويج لهذا الحزب ، أو تلك الثورة ، فللخوارج خطباؤهم وكذلك للشيعة وللزبيريين ولابن الأشعث وغيره من الثوار ، وكان يقابل هؤلاء الخطباء المعارضين للدولة خطباء كثيرون يؤيدون بنى أمية من ذات أنفسهم أو من ولاتهم وقوادهم وهناك فى أطراف الدولة شرقاً وغرباً خطباء مفوهون يستحثون الجيوش على الجهاد فى سبيل الله والتتكيل بأعدائهم تنكيلاً شديداً . وبذلك انتشرت الخطابة السياسية فى كل مكان وعلى كل لسان .

ولعل حزبا لم يكثر خطباؤه كما كثروا فى الخوارج ، إذ كانا شديدي الحماسة لعقيدتهم ، ولم يدعوا لها سراً كما دعا الشيعة فى أكثر الأمر ، بل



دعوا لها جهاراً ، شاهرين سيوفهم فى وجوه بنى أمية وولاتهم . على أنه ينبغى أن نلاحظ أن جمهور حطيم سقط من يد الزمن ولم يصلنا ، لأن الناس من غير بيئتهم كانوا يتحرجون من روايتها اذ كانوا يرون فيهم ثوارا خارجين على الجماعة ، ويظهر أنهم أنفسهم لم يحرصوا على تسجيلها وروايتها . ومع ذلك فقد بقيت منها بقية احتفظت بها كتب الأدب والتاريخ ، وأيضاً فانها احتفظت ، وخاصة كتاب البيان والتبيين ، بأسمائهم .

وأول من يلقانا من خطبائهم حيان بن ظبيان السلمى والمستورد ابن علقه لعهد المغيرة بن شعبة فى ولايته على الكوفة لمعاوية . ولا نلبث أن نلتقى بِنافع بن الأزرق وطائفة من زعمائهم لدى عبد الله ابن الزبير يناظرونه حتى إذا لم يجدوه على رأيهم انصرفوا عنه إلى البصرة ، وهناك انقسموا - على نحو ما مر بنا - إلى ازارقة ونجدات وصفرية واباضية ، وأسرع الازارقة فأعلنوا ثورتهم وشهروا سيوفهم فى وجوه ولاة ابن الزبير ثم من خلفهم من ولاية بنى أمية ، وتصدى لهم المهلب بن أبى صفرة وقواد آخرون ، ومزقوهم شر ممزق .

وقد ظلت نيران هذه الصروب مع الازارقة مستعرة نحو خمسة عشر عاماً كانت تحتدم فيها المعارك الحربية واللسانية من الشعر والخطابة ومن أهم

خطبائهم نافع بن الأزرق والزيير بن علي الذي وليهم بعد نافع وابن  
المحوز ، وله خطب مختلفة بحرضهم فيها على القتال والاستشهاد طلباً  
عند الله من الثواب . وتلقانا في خطباتهم نفس الروح التي وصفناها في  
أشعارهم ، إذ نراهم يدعون للترامي على الموت ترامي الفراش على  
النار غير أيهين بالحياة الدنيا ، انها حياة زائفة وهم يريدون الحياة  
الخالدة في الدار الآخرة ، وهم انما يحاربون في سبيل الحق ، يحاربون  
تلك الفئة التي ضلت في رأيهم ، وكل منهم يلتمس الشهادة ، يقول  
الزيير في بعض خطبه " ان البلاء للمؤمنين تمحيص وأجر وهو  
على الكافرين عقوبة وخزى ، وثقوا بأنكم المستخلفون في الأرض  
والعاقبة للمتقين " .

فهم في رأيه الفئة المحقة وخصومهم الفئة المبطللة ، وهم المؤمنون  
حقاً وغيرهم الكافرون ، وقتلهم في الجنة أما قتلى غيرهم ففي النار " .  
وهم لذلك يطلبون الاستشهاد ، بل يطلبون العجلة إليه ، حتى  
يتخلصوا من الدنيا ومتعها الزائلة ، وكأنما يرون في الموت نفسه ضرباً  
من الغلبة على خصومهم الذين غلبوا على الدنيا ، ولا يريدون أن يغلبوهم  
أيضاً على الآخرة .

وإذا كنا لاحظنا في شعرهم تنفيراً من الدنيا ، حتى ليتحول في بعض  
جوانبه إلى موعظة خالصة فكذلك الشأن في خطبهم ، على نحو ما يلقانا

فى خطبة قطرى بن الفجاءة قائدهم بعد الزبير بن على ، وهو يستهلها على  
هذا النمط :

" أما بعد : فانى أحدىركم الدنيا فانها حلوة خضرة ، حفت  
بالشهوات .. مع أن امراً لم يكن منها فى حبرة ، الا أعقبته بعدها  
عبرة ، ولم يلق من سرائها بطناً ، الا منحته من ضرائها ظهراً ، ولم  
تطله غيبة رخاء ، الا هطلت عليه مزنة بلاء ، وحرى إذا أصبحت له منتصرة  
أن تمسى له خاذلة متنكرة ، وان جانب منها اعذوب واحلولى أمر عليه منها  
جانب وأوبى ، وان آتت امراً من غضارتها ورفاهتها نعماً أرهقتة من  
نوائبها نقماً ، ولم يمس امراً منها فى جناح أمن إلا أصبح منها على قوادم  
خوف ، غرارة غرور ما فيها ، فانية ، فان من عليها لا حير فى شئى من  
زادها إلا التقوى "

وتمضى الخطبة وهى طويلة على هذا النحو من الوعظ والترغيب  
والترهيب ، وواضح ما فيها من جمال اللفظ وروعة أسره ، وقد اختار لها  
قطرى السجع حتى يؤثر فى نفوس سامعيه أقوى تأثير ، ولم يكتف بالسجع  
، بل أضاف إليه التصوير ، كما أضاف الطباق ، حتى يبلغ كل ما يريد من  
تنسيق معانيه ، ومن اشتهر من خطباء الازارقة عبيدة ابن هلال اليشكرى  
وزيد بن جندب الايدى وعبد رب الصغير .

ويلقانا بين خطباء الصقرية عمران بن حطان وصالح بن مسرح الذى

كان يعظهم ويقص فيهم قصصاً كثيراً وكان في وعظه وقصصه يحمل على بنى أمية ومن معهم من الجماعة الإسلامية حملات شعواء ، حتى إذا بلغ من اثارة أصحابه في الجزيرة والموصل ما أراد خرج على الحجاج ، وقتل ، فخلفه شبيب الذي دوخ جيوش الحجاج طويلاً .

ومن قول صالح في بعض مواعظه :

"أوصيكم بتقوى الله والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة وكثرة ذكر الموت ، وفراق الفاسقين وحب المؤمنين ، فإن الزهادة في الدنيا ترغب العبد فيما عند الله وتفرغ بدنه لطاعة الله ، وإن كثرة ذكر الموت تخيف العبد من ربه ، حتى يجأر إليه ويستكين له ، وإن فراق الفاسقين حق على المؤمنين ، قال الله في كتابه [ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون] .

وإن حب المؤمنين للسبب الذي ينال به كرامة الله ورحمته ، جعلنا الله واياكم من الصادقين الصابرين " .

ومضى على هذه الشاكلة يعظ من حوله من الصفيرية ويحرضهم على قتال بنى أمية أئمة الضلال الظلمة كما يقول ، حاثا لهم ان يلحقوا باخوانهم المؤمنين الموقنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة ابتغاء رضوان الله . ومن اشتهر بن الصفيرية بالخطابة الطرماح بن حكيم وشبيل بن عزة الضبعي والضحاك بن قيس الذي خرج لعهد مروان بن محمد وغلب على العراق فترة

من الوقت .

ولم تحدثنا كتب الأدب والتاريخ عن خطباء النجدات أما الاباضية فقد اشتهر من بينهم بالخطابة عبد الله بن يحيى الكندي الملقب بطالب الحق ، وقد دعا إلى الثورة على الأمويين في سنة ١٢٩ واستطاع أن يستولى على حضرموت واليمن ، واتجهت جيوشه بقيادة أبي حمزة قائده إلى الحجاز فاستولت عليه . ولم تلبث جيوش مروان بن محمدان ردت الأمر إلى نصابه ، ولا بقي حمزة خطب ماثورة تدل دلالة بيينة على أنه كان من راضة الكلام ، وريم كان أروع خطبه كلمته التي ألقاها في المدينة وهو يستهلمها بالثناء على أبي بكر وعمر ولا يلبث أن يطعن في عثمان ومن جاء بعده من خلفاء بني أمية ، مصوراً تعطيلهم لحدود الله وأحكامه وأخذهم للرعية بالبطش والظلم ، مندداً بمن اشتهروا منهم باللهو والمجون مثل يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك . وينتقل إلى تصوير الخوارج وإخلاقهم لعقيدتهم وتقواهم وزهدهم في الدنيا وجهادهم في سبيل الله متعذرين للاستشهاد إذ يرون فيه الحياة كل الحياة ، الحياة الباقية التي لا تفنى ، يقول متحدثاً عن شبابهم : " شهاب والله مكتهلون في شبابهم غضيضة عن الشر اعينهم ثقيلة عن البادل أرجلهم ، أنضاء عبادة وأطلاق سهر ، ينظر الله اليهم في جوف الليل ، منحية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بأية من ذكر الجن بكى شوقاً إليها وإذا مر بأية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير

جهنم بين أذنيه . موصول بكلالهم ، كلال الليل بكلال النهار ، حتى إذا رأوا السهام قد فوقت والرماح قد أشرعت والسيوف قد انتصبت ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت استخفوا بوعيد الكتيبة لوعد الله ، ومضى الشباب منهم قدماً ، حتى اختلفت رجلاً على عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه فأسرعت إليه سباع الأرض ، وانحطت عليه طير السماء . فكم من عين من منقار طائر بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف زالت عن معظمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله .

وهى صورة رائعة لشباب الخوارج أحكم أبو حمزة اخراجها فى ألفاظ طلية تستميل القلوب بعذوبتها ومعان تحيط بكل ما أراد من تمثيل تقوى الخوارج وإيثارهم لما عند الله من النعيم ، وتمثيل اندفاعهم على حياض الموت كل ديوان أن يكون السابق إلى دار الخلود وأن يموت قعصاً بالرماح ، وأن تنوشه سباع الحيوان والطير ، حتى يستحق رضوان ربه .

وعلى نحو ما كان للخوارج خطباؤهم كان للشيعة خطباء كثيرون ، وكانوا على شاكلة خطباء الخوارج يبدون دائماً ببنى أمية ، وأنهم اغتصبوا الخلافة ، وساروا فيها سيرة جائزة عطلوا فيها أحكام الشريعة وما رسمه القرآن ورسوله الكريم . وكانوا لا يزالون يرددون أن أباء على هم أصحاب الخلافة الشرعيون : هى عليهم بواسية إذا انتزعوا منهم ميراثهم عن

الرسول الكريم ، وندور هذه الأفكار دائماً في خطابتهم وخطابة أئمتهم ، على نحو ما نجد عمدة الحسين حين اقترب من الكوفة واجتمع الناس من حوله ولقيته مقدمات الجيش الذي أرسله له عبيد الله بن زياد ، فقد انصرف إلى القوم بوجهه ، يقول في كلمة له :

" أما بعد : أيها الناس فانكم أن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى الله ، ونحن - أهل البيت - أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدعين ما ليس لهم ، والسائرين فيكم بالجور والعدوان " .

وتتطور الأمور ويقتل الحسين ويتخذ الشيعة من مقتله دليلاً واضحاً على ظلم بني أمية وأنهم يسوسون الأمة سياسة جائرة ، فقد استباحوا دم حفيد الرسول - ﷺ - ويتوفى يزيد بن معاوية فيتجمع كثير من شيعة الكوفة بقيادة سليمان بن صرد ، فيعلنون توبيتهم من السكوت عن الثأر للحسين وما كان من القعود عن نصرته ، ويخطب سليمان وكثيرون غيره محرضين على الثورة ، وهم في تضاعيف ذلك يقررون حتى آل البيت في الخلافة لقرابتهم من الوصول مستنيرين الناس على الأمويين لما سفكوا من دم الحسين الطاهر ابن بيت الرسول ، ومن ذلك قول سليمان بن صرد في إحدى خطبه :

" قتل فينا ولدينا ولد نبينا وسلالته وعصارتة وبضعة من لحمه ودمه .. اتخذها الفاسقون غرضاً للنيل .. ألا انهضوا فقد سخط ربكم ولا ترجعوا إلى

الحلائل والابناء حتى يرضى الله . والله ما أظنه راضياً بون أن تتاجزوا من قتله أو تبيروا " .

وكان من زعماء التوابين معه عبيد الله بن عبد الله المرى ، وكان خطيباً لا يبارى ، فمضى يعظ الناس ويحرضهم على الانتفاض على الامويين بمثل قوله :

" هل خلق ربكم فى الاولين والآخرين أعظم حقاً على هذه الأمة من نبيها ؟ وهل ذرية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقاً على هذه الأمة من ذرية رسولها ؟ لا والله ما كان ولا يكون ، أم تروا ويبلغكم ما اجترم إلى ابن بنت نبيكم .. وترميلهم اياه بالدم وتجرار هموه على الأرض ؟ لم يراقبوا فيه ربهم ولا قرابته من الرسول - ﷺ - ... ابن أول المسلمين اسلاماً وابن بنت رسول رب العالمين ، قتله عدوه وخذله وليه ، فويل للقاتل وملامة للخاذل .. الا أن ينصح لله فى التوبة ، فيجاهد القاتلين .. وعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويقبل العثرة .. انا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل بيته وإلى جهاد المسلحين والمارقين ] .

وخرج التوابون من الكوفة إلى الشمال فالتقوا بجيش أموى لكل بهم وفرق جموعهم ، فارتدوا إلى الكوفة ، وهناك تلقاهم المختار الثقفى زاعماً ان ابن الحنفية - على الرغم من تبرئة منه - بعثه على الشيعة أميراً وأمره بقتال الملحدين والطلب بدماء أهل بيته . وهو يعد المؤسس الحقيقى لفرقة



الكيسانية المشهورة فى تاريخ الشيعة ، وقد مر بنا تصوير عقيدتها ومدى ما ذهبت إليه من غلو واسراف ، وكيف أنها كانت تدعو لابن الحنفية محمد بن على ، وتعدده وصيه والامام المهدي المنتظر ، وكان المختار خارجياً ثم صار زبيرياً ثم صار كيسانياً وكان لسنا فصيحاً ، من أهل الدهاء ، فجمع الشيعة حوله ، ووجههم بقيادة ابراهيم بن الأشتر لحرب أهل الشام فالتقوا فى " خازر " وعصفوا بهم عصفاً ، ولم يلبث مصعب بن الزبير وإلى البصرة لأخيه عبد الله أن قضى عليه بعد معارك طاحنة ، وكانت فى المختار شعوذة كثيرة ، جعلته بتأثر فى خطابته كهنة الجاهلية ، حتى كان يزعم - على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع ، أنه يوحى إليه ، مصوراً هذا الوحى فى فقرات من السجع يوشىها بالإيمان واللفظ الغريب على شاكلة قوله :

" أما ورب البحار " والنخيل والأشجار ، والمهامة والقفار ، والملائكة الأبرار ، والمصطفين الأخيار ، لأقتلن كل جبار ، بكل لدن خطار ، : مهند بتار " فى جموع من الأنصار ، ليسوا بميل أغمار ولا بعزل أشرار ، حتى إذا أقمت عمود الدين ورأيت شعب صدع المسلمين وشفيت غليل صدور المؤمنين ، وادركت بثار التبيين . لم يكبر على زوال الدنيا ولم أحفل بالموت إذا أتى "

وأكبر الظن أنه قد اتضحت لنا المعانى التى كان يرددها خطباء الشيعة ، وهى معان ترد إلى بيان حقوق آل البيت فى الخلافة ، وأن على المسلمين ان

ينصرونهم ، وان يأخذوا بثأر من قتله الأمويون منهم .  
وفى تضاعيف ذلك يحمل خطباؤهم على بنى أمية عنيفة مصورين ظلمهم  
ونقضهم لأحكام الكتاب والسنة . ومن أعلام الخطابة الشيعية زيد بن علي  
وابنه يحيى ، وان كانت كتب الأدب والتاريخ الوثيقة لم تحتفظ بشئ من  
خطابتهما ، وكذلك هي لم تحتفظ بشئ من خطابة بنى صوحان : صعصعة  
وزيد وسيحان وكانوا شيعة وفى الذروة من البيان والفصاحة وقد احتفظ ابن  
أبى الحديد بكثير من المخاصمات والمحاوير بين الحسن ابن علي وعمرو  
بن العاص وبعض بنى أمية ، وهى مخاصمات يغلب عليها الانتحال ومثلها  
المخاصمات التى دارت بين ابن عباس ومعاوية وبعض أصحابه مما احتفظ  
به ابن أبى الحديد والعقد الفريد والمسعودى .  
ولم يعش حزب الزبيريين طويلاً ، ولذلك لم يتكاثر خطباؤه ، وعبد الله بن  
الزبير خطيب هذا الحزب ، وكان معوها بليغاً يعرف .  
كيف يخلب الألباب بكلامه ، ويستولى على النفوس بحلاوة منطقه ، وهو  
فى خطابه يتناول الأمويين بالقدح والتجريح ، وقد إستغل مقتلهم للحسين  
ليبين غدرهم وما يتورطون فيه من آثام ، وله مناظره مع الخوارج تدل على  
قوة منطقه وحدة ذكائه ، وله أيضا خطبه مشهوره خطبها حين جاءه نعى  
أخيه مصعب وإستيلاء عبد الملك بن مروان على العراق ، وهى تصور رباطة  
جأش وصدق يقينه وفيها يقول :

«إن يقتل فقد قتل أبوه وعمه وابن عمه وكانوا الخيار الصالحين إنا والله لا نموت حتف أنوفنا ، ولكن قعصا بالرماح وموتا تحت ظلال السيوف ، وليس كما يموت بنو مروان والله ما قتل منهم رجل في زحف في جاهلية ولا إسلام قط . ألا وإنما الدنيا عارية من الملك القهار الذليلزول سلطانه ، ولايبيد ملكه ، فان تقبل الدنيا على لم آخذها أخذ الأشر البطر ، وإن تدبر عنى لم أبك عليها بكاء الخرق المهين »

ولأخيه مصعب خطب مدونه ، وقد جعل إحداها آيات قرآنية خالصة ، ولأمها أسماء مع ابنها عبد الله محاوررة طريفة حين حاصره الحجاج فى مكة وتخلى عنه الناس .

## ٢- خطباء الثورات فى العصر الأموى :

وإذا تركنا خطباء الأحزاب السياسية إلى خطباء الثورات كان أول من تلقاه منهم عبد الله بن حنظلة زعيم ثورة المدينة ضد يزيد بن معاوية ، ثم عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشدرق لبلاغته فى خطابته ، وقد ثار على عبد الملك بالشام سنة ٦٩ هـ وقضى عليه .

ويلقانا بعد ذلك عبد الرحمن بن الأشعث فى ثورته على الحجاج وكان مدرها مفوها ، ومن خطباء ثورته عامر بن وائل الكنانى وعبد المؤمن بن شيبه بن ربعى ، ولا نصل إلى عصر سليمان بن عبد الملك حتى يثور عليه قتيبه بن مسلم الباهلى فى خراسان حاضا الجند على متابعتة ، ونستقبل مع أوائل القرن الثانى ثورة يزيد بن المهلب على يزيد بن عبد الملك ، وكان خطيبا بليغا ، وطالما خطب فى جنوده يحرضهم على أهل الشام .

يكل من سميناهم من هؤلاء الثوار تتناثر خطبهم فى الطبرى وكتب الأدب ، وهى كلها تدور على إثارة الناس ضد بنى أمية وبيان ما فى حكمهم من ظلم وما يأخذهم به ولاتهم من عسف وكيف أنهم جميعا عطلوا زحاما للشرع واستأثروا بالفئ ، حتى لنرى يزيد بن المهلب فى بعض خطبه يجعل جهادهم أعظم ثوبا من جهاد الترك والديلم .

وكان يقف فى الصف المقابل من هؤلاء الخطباء المعارضين خطباء بنى أمية . يتقدمهم الخلفاء « ثم الولاة والقواد ، وممن اشتهر من الخلفاء

باحكام الصنعة فى الخطابة مع جهارة المنطق وطلاوة الكلم معاوية وعبد  
الملك وعمر بن عبد العزيز وزيد والناقص ، وقد وصف بعض الشعراء مهارة  
معاوية فى خطابته فقال :

ركوب المناير وثابها ... معن بخطبته مجهر  
تريع اليه هودى الكلام ... إذا ضل خطبته المهذر  
تنوع خطابة معاوية :

وخطابته قسيمان : قسم سياسة خالصة ، وقسم مواعظ وترغيب وترهيب  
وهو فى السقم الأول يدعو إلى الطاعة ملوحاً بما فى يديه من قوة ومن  
عطايا وهبات ، ومن خير ما يمثل ذلك خطبته فى عام الجماعة سنة ٤١ هـ  
بالمدينة . وهو فى القسم الثانى ينفر من الدنيا وائتعلق بمتاعها الزائل ،  
ومن خير ما يمثل هذا القسم خطبة رواها له الجاحظ ، وقد إتهم نسبتها  
إليه وقال إنها حرية بأن تنسب إلى على بن أبى طالب والجاحظ بهذا الاتهام  
يقسو على معاوية ، وكأئنه نسى أنه من كتاب الوحي وأنه من جلة الصحابة  
وتتردد فى خطابة عبد الملك مطالبة الرعية بالطاعة لخليفتهم ، مع التهديد  
والوعيد لمن تحدثهم نفوسهم بالخروج عليه ، أما عمر بن عبد العزيز فخطبه  
مواعظ خالصة ، يتحدث فيها عما ينتظر الإنسان من الموت وإنتقاله إلى  
دار الخلود ومحاسبته على ما قدمت يداه على شاكلة قوله فى كلمة له  
« أيها الناس : إنكم لم تخلقوا عبثاً ولن تتركوا سدى ، وإن لكم معاداً

يحكم الله بينكم فيه ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء وحرم الجنة التي عرضها السموات والأرض ، واعلموا أن الأمان غدا لمن خاف الله اليوم وباع قليلا بكثير وفائتا بيباق ، ألا تعرفون أنكم فى أسلاب المهالكين ، وسيخلفها من بعدكم الباقون ، كذلكى تردوا إلى خير الوارثين » .

وليزيد الناقص حين ولى الخلافة بعد قتله ابن عمه والوليد بن يزيد خطبة بديسة تصور فيها سياسته ودستوره فى الحكم معلنا أنه إن وفى بما عاهد الله عليه فعلى الناس السمع والطاعة وإلا فلهم أن يخلعوه ويقول انه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وكان ولاة بنى أمية وقوادهم لايزالون يستوجهون على الناس الطاعة والولاء لخلفائهم ، نجد ذلك عند عتبة بن أبى سفيان والى مصر وعند ولاة العراق من أمثال زياد والحجاج وخالد القسرى ، وكانوا يضيفون إلى ذلك وعيدا وتهديدات باستخدام القوة ، ولعلب أحدهم لم يبلغ من ذلك ما بلغه الحجاج ومن خير ما يمثل ذلك خطبته فى الكوفة حين قدم على العراق واليا من قبل عبد الملك ، وفيها يقول :

« إنى لأرى رؤسا قد أينعت وحان قطافها ، وإنى لصاحبها وإنى لأنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى ، إنى والله يا أهل العراق والشقاق والنفاق ومساوى الأخلق ما أغمرتم تغماز التين ولا يقمع لى بالشنان ، ولقد

قررت عن نكاء وفتشت عن تجرية ، أن أمير المؤمنين كب كنانته ثم عجم  
عيدانها ، فوجدنى أمرها عودا ، وأصلبها عمودا ، فوجهنى إليكم فأنكم  
طالت أوضعتم فى الفتن واضطجعتم فى مراقد الضلال وسننتم سنن الغى  
أما والله لألحونكم لحو العصا ولأضربنكم ضرب غرائب الأبل .. أما والله  
لتستقيمن على طريق الحق أولادعن لكل رجل منكم شغلا فى جسده «  
وهو يفتتح هذه الخطبة بأشعار تمتلئ باللفظ الغريب ، حتى يأخذ على  
سامعيه أنفاسهم ، وقد زحرت خطبته بأسلوب تصويرى قوى ، وهو يعد فى  
الذروة من أهل الخطابة والبيان فى العصر، حتى ليوضع مع زياد بن أبيه  
فى طبقة واحدة ، وإن فضله زياد بحلاوة منطقته ، فقد كان يمتاز بجزالة  
اللفظ وفخامته ، ولعل من الطريف أن كتب الأدب ، احتفظت له بمواعظ  
كثيرة ، ويروى أن الحسن البصرى كان يقول عنه أنه يعظ الأزارقه ويبطش  
بطش الجهارين .»

ومن قوله فى بعض مواعظه : « اللهم أرنى الهدى هدى فأتبعه وأرنى  
الغى غيا فأجتنبه ولا تكلنى إلى نفسى فأضل ضلالا بعيدا .»  
وكان خالد القسرى خطيبا مفوها ، مع لحن كان فيه ، وكان إذا تكلم ظن  
الناس أنه يصنع كلامه لجمال لفظه وبلاغة منطقته ، وله خطب كثيرة يحث  
فيها على طاعة الخلفاء منذرا متوعدا من ينقض حبل الجماعة ، وأكثر فى  
خطب الجمع من المواعظ ، حتى سمي خطيب الله ، ويروى أنه كان

يخطبونها فسقطت جرادة على ثوبه ، فقال : « سبحان من الجردة من خلقه ، أدمج قوائمها ، وطوقها جناحها ، ووشى جلدھا ، وسلطھا على ما هو أعظم منها » .

وإذا كان قواد المعارك الدامية من خوارج وشيعة وتأثرين مختلفين حازبوا بنى أمية غضبا لدينهم كما دار على ألسنة خطبائهم فإن قواد بنى أمية فى دالصفوف المقابلة كانوا يزعمون نفس الزعم ، على نمط قول مسلم بن عقبة قائد أهل الشام فى وقعة الحرة : « يا أهل الشام أهذا قتال من يدافعوا عن دينهم وأن يعزوا به نصر إمامهم »

وقول الملهب بن أبى صفرة فى حث جنده على قتال الأزارقة : « يا أيها الناس إنكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج وإنهم إن قدروا عليكم فتنوكم فى دينكم وسفكوا دماكم » . فقواد بنى أمية فى هذه الحروب الفداخية كانوا مثل خصومهم يرون أن الحق وأن أعداءهم أهل غى وضلال . « .

وكان قواد الفتوح شرقا وغربا وفى بلاد الروم لا يزالون يحتون جنودهم على الإستشهاد فى سبيل الله مقتبسين من أى الذكر الحكيم ما يشعل حماسهم ، ويذكى جذوة شجاعتهم ويسالتهم ومن خير ما يمثل ذلك خطبة قتيبة بن مسلم الباهلى وقد تهبأ لغزو طخارستان سنة ٨٦ للهجرة وفيها يقول :

« وعد الله نبيه صلى الله عليه وسلم النصر بحديث صادق وكتاب ناطق



فقال ( هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ) ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم النحر عنده ، فقال : ( ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يألون موطنًا يخيف الكفار ولا يألون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ) وأخبر عن قتل في سبيل الله أنه مرزوق فقال ( ولا تجسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ) فينجزوا موعود ربكم .

واشتهر في خراسان بعد قتيبة غير قائد بالخطابة مثل أسد القصرى ونصر بن يسار ، ويلقانا في الغرب طارق بن زياد فاتح الأندلس وخطبته في جنده حين دخلها مشهورة ، ولعل من الخير أن نقف قليلاً عند زياد بن أبيه حتى تمثل تمثلاً واضحاً ما أصاب الخطابة السياسية في هذا العصر من نهوض ودرقى .

زياد بن أبيه :

ولد فى عام الهجرة أو قبله بقليل لسمية جارية فارسية كانت للحارث بن كلدة الثقفى المشهور بطبه ، ويقال أنه زوجها ثقفيا يسمى عبيدا ، ومن ثم كان يسمى فى بعض الروايات زياد بن عبيد ، ويذهب بعض الرواة رلا أنه إنما ولد على فراش الحارث وأن عبيدا كان عبدا روميا ، ولم يكن ثقفيا ، وما نتقدم معه إلى عهد عمر ، حتى نجد أبا سفيان بنسبه إلى نفسه مدعيا أبوته ، وقد تكون نسبة صحيحة ، وإن تضمنت أنه لم يولد لرشدة ، وليس بين أدينا شئ واضح عن نشأته ، ونراه يخرج مع الجيوش الغازية فى الشرق ، وسرعان ما يعهد إليه عتبة بن غزوان قائد عمر فى فتوح الأيلة تسجيل الغنائم وقسمها فى الناس ، مما يدل على اتقانه الكتابة والحساب ، ويلزم ولاة البصرة يكتب لهم ، ويوفده إليها أبو موسى الأشعري إلى عمر ، فيعجب بذكائه ولسنه ولكنه يأمر بعزله ، فيقول له : يا أمير المؤمنين أعن عجز أم عن خيانة صرفتتى ، فيرد عليه : لا عن واحدة منهما ولكنى أكره أن أحمل زعلى العامة فضل عقلك .

ويعود إلى البصرة حتى إذا كان عهد عثمان اتخذه عبد الله بن عامر وإليها كاتبا له ، ويفسد ما بينهما فيعزله ، حتى إذا صار العراق لعلى وولى على البصرة ابن عباس جعله على خاجها ، وأتابه عنه أحيانا وأظهر فى أثناء نيابته له حنكة ، ذلك أن معاوية دس إلى تميم بعض من أفسدها على علي

فاستجار زياد بالأزد واستطاع بما أوقعه بينهما أن يعيد الأمر إلى نصابه ، وأن يعود بتميم إلى طاعة إمامه ، ولما فسدت فازس على علي أرسل به إليها واليا عليهما ، فرم الفساد وأصلح الشعث ورأب الصدع متوسلا إلى ذلك بمهارة سياسة فائقة ، إذ « بعث إلى رؤسائها ، ووعده ومناه ، وخوف قومنا وتوعدهم وضرب بعضهم ببعض ، ودل بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة ، وأقامت طائفة ، وقتل بعضهم بعضا ، وصفت له فارس فلم يلق فيها جمعا ولا حربا ، وفعل مثل ذلك بكرمان ويقال أن أهل فارس مانوا يقولون : « ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربى فى النيل والمداراة » .

ولما قتل علي ظل على عهده ولابنه الحسن ، حتى إذا تحولت مقاليد الامور إلى معاوية اعتصم بفارس ، فكاتبه معاوية متوعدا ، ثم أخذ يتلطف له ووسط لديه المغيرة بن شعبة الثقفى ، ذاكرا ما بينهما من الرخم ، وما زال به ، حتى دخل فى طاعته ، وفرح به فرحا عظيما ، إذ كان يعرف فضله ، وأنه لا غنى له عنه فى استصلاح العراق ، ولما صار إليه جمع الناس وصعد المنبر وأجلسه بين يديه ، وأشهد الحاضرين على نسبته لأبيه ، وشهدت بذلك منهم جماعة ، غير أن كثيرين ظلوا يشكون فى هذا النسب ويتهمون به ، ولم يلبث معاوية أنم ولاء البصرة وخراسان وسجستان سنة ه للهجرة ، فأظهر من الحزم وحسن التدبير ما جعل معاوية يضم إليه الكوفة حين مات

واليها المغيرة بن شعبة ، وبذلك أصبح واليا على العراق جميعه حتى وافته  
سنة ٥٣ للهجرة . وقد أخذ الفساد والجناة بالعنف والشدة ، وكذلك صنع  
مع الخراج والشيعية وقصته مع حجر بن عدى مشهورة ، فقد أرسل به الى  
معاوية ، وهناك لقي حتفه ، على أنه كان يخلط سياسته باللبن ، ولم يكن  
يعمد إلى سفك الدماء إلا حين تعجزه الحيلة ، وقد إتبع سياسة ضرب  
القبائل بعضها بعض حتى يشغلهم عنه وعن الدولة ، ومن المحقق أنه كان  
سياسيا ماهرا بعيد النظر يحسن تصريف الأمور إلى أبعد غاية .

وكان خطيبا لا يبارى في جودة خطابته ، يعرف كيف يصوغ كلمه صوغا  
تهش له الأسماع وتصغى له القلوب والأفئدة ، وقد نوه بخطابته كثير من  
معاصريه على شاكلة قول الشعبي : « ما سمعت متكلمة على منبر قط تكلم  
فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفا من أن يسئ إلا زيادا فإنه كلما أكثر  
كان أجود كلاما » .

وخطبه مثل خطب الحجاج تدور في موضوعين هما السياسة والمواظ  
الدينية ، وقد بقيت من خطبه الأولى شظايا وفقرة وخطبة طويلة هي أروع  
خطبة سياسية خلفها هذا العصر ، وهي الملقبة بالبراء سميت بذلك لأنها  
لم تبتدئ بالتمجيد والتمجيد ، وقد أدخله عليها بعض الرواة .  
والخطبة تجعل سياسة زياد التي اشتهر بها والتي ردت إلى البصرة أمنها  
بعد أن عاث فيها الفساد والصوص واضطرب حبل النظام ، وقد بدأها

بتصوير ما صار إليه أهلها من الفساد وشيوع الفسق والانحراف عما  
رسمه الله للمسلمين في كتابه من السيرة المستقيمة الطاهرة ، يقول :  
« أما بعد : فإن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والغي الموفى بأهله  
على النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام بينت  
فيها الصغير ولا ينحاش عنها الكبير ، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ولم تسمعوا  
ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته في  
الزمن السرمد الذي لا يزول ، أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا وسدت  
مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية ولا تذكرون أنكم أحدثتم في  
الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله  
وهذه المواخير المنصوية والضعيفة والمسلوية في النهار المبصر ، والعدد غير  
القليل ، ألم يكن منكم نهاية تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار ؟ قريتم  
القرابة وبعدم الدين ، تعتذرون بغير العذر وتغضون على المختلس . أليس  
كل إمرئ منكم يذب عن سفيهه صنع من لا يخاف عاقبة ولا يرجون معادا ما  
أنتم بالحلماء وقد إتبعتم السفهاء ، فلم يزل بهم ما يرون من قيامكم دونهم  
حتى انتهكوا حرم الإسلام »

وعلى هذا النحو أسهل خطبته بتجسيم صور الفساد التي إنتهت إليها  
حياة الناس في البصرة ، وهو في أثناء ذلك يقرع سامعيه بأنهم انتبنوا  
كتاب الله وراء أظهرهم مؤثرين الفانية على دار الخلود ، وكأنما عادوا

يجتزون حياتهم الوثنية القديمة وكل ما كان فيها من إثم حتى إذا بلغ من ذلك كل ما أراد إنتقل يصور خطته فى حكمهم وما أعدده لهم من دروب العقوبات ، يقول :

« إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف ، وإنى أقسم بالله لأخذن الولى بالمولى والمقيم بالطاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصى والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : ( أنج سعد فقد هلك سعيد ) أو تستقيم لى قناتكم .. من نقب منكم عليه فإنا ضامن لما ذهب له ، وإياى ودلج الليل فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه .. وإياى ودعوى الجاهلية فإنى لا أخذ داعيا بهما إلا قطعت لسانه ، وقد أحدثتم إحداثا لم تكن وقد أحدثنا لكم ذنب عقوبة ، فمن غرق قوما غرقناه ، ومن أحرق قوما أحرقناه ،ومن نقب بيتا نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبرا دفناه فيه حيا ، فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكف عنكم يدى ولسانى بولا تظهر على أحد منكم ريبية بخلاف ما عليه عامتكم إلاضربت عنقه . وقد كانت وبين أقوم إحن جعلتها دبر إذنى وتحت قدمى ، فمن كان منكم مسيئا فلينزح عن إيساعته ، إنى والله لو علمت أن أحدكم قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعا ولم أهتك له سترا ، حتى ييدى لى صفحته ، فإذا فعل ذلك لم أناظره فاستأنفوا أموركم وارعوا على أنفسكم فرب مسوء بقد ومنا سنسرره ، ومسرور بقد ومنا

سنسوءه .»

وهذه الفقرة من الخطبة تصور بجلاء سياسة زياد ودستوره فى حكم البصرة ، وهو دستور أوضح فيه مواد العقوبة وأنه سىأخذ بالظنه ويغاقب على الشبهة ، وأنه قد جرد سيفه لقتل من لا ىرعوى ، وأن من عاد إلى العصبية الجاهلية سىستثير قومه سىقطع لسانه ، ونجحت هذه السياسة فى إعادة الأمور إلى نصابها فى ولايته واستقرار الأمن ، حتى قالوا أن المرأة كانت تبیت وبابها مفتوح عليها لا تخشى لصا ، وكان الشئ يسقط فلا يعرض له أحد حتى ىرجع إليه صاحبه فىأخذه وقالوا أيضا أن الناس هابوه هيبة لم يهابوه أحدا من الولاة قبله .

وفى نفس هذه الفقرة ما ىصور رفق دزياد برعيته ، فهو لا ىبطش للبطش وإنما ىبطش على الجرم ، أما بعد ذلك فلين رقيق بالناس ، وهو ىجهر بذلك حين ىلخص خطته فى الحكم بأنها لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف ، وأيضا حين ىجهر فى ختام الفقرة بأنه سىصانع الناس حتى أعداؤه ما صانعوه ، ويمضى فى فقرة ثالثة ، ىبين ما ىجب على الناس من الطاعة للخليفة وولاته ، ىقول :

« أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم زادة ، نسوسكم بسطان الله الذى أعطانا وننود عنكم بفقن الله الذى حولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فىما أحببنا ، ولكم علينا العدل والإنصاف فىما ولينا ،

فاستوجهوا عدلنا وفيثا بمناصحتكم لنا .. وادعوا الله بالصالح لأئمتنا  
فإنهم ساستكم المؤدبون وكهفكم الذى إليه تأوون ، ومتى يصلحوا تصلحوا ،  
ولا تشربوا قلوبكم بغضكم ، فيشتد لذلك غيظكم ، ويطول لكم حزنكم ، ولا  
تدركوا به حاجتكم ، مع أنه يعين كلا على كل ، وإذا رأيتموني أنفذ فيكم  
الأمر فأنفذوه على أذلاله ، وأيم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل  
امرئ منكم أن يكون من صرعاى » .

وزياد فى هذه الفقرة يستلهم فكرة التفويض الإلهى المعروفة عند الفرس  
إذ كانوا يؤمنون بأن ملوكهم مفوضون لحكمهم من قبل ربهم وفى ذلك دلالة  
واضحة على تآثر الخطباء بالأفكار الأجنبية ، وهو يلوح لسامعيه بما فى يد  
الدولة من أموال الخراج ومغانم الحروب وأنها ستنتثرها على رعاياها  
المطيعين الموالين لها نثرا ، ولا يلبث أن يهدد من تحدثهم أنفسهم بنقص  
الطاعة أنهم إن صنعوا فالسيف ينتظرهم وضرب الرقاب .

والخطبة علي هذا النحو خطبة سياسية خالصة ، إذ تزسم سياسة زياد  
وطريقته فى الحكم من جميع أطرافها ، وهى مقسمة إلى فقر تتسلسل فيها  
الأفكار تسلسلا دقيقا ، وكل لفظة تقع فى مكانها وقرارها مع جمال  
الديباجة ووضوح الدلالة ، فلا توغر ولا تعقيد ولا كلم غريب .

وكان زياد بحكم خطابته فى الجمع والأعياد يعمد إلى الوعظ كثيرا ، وهو  
فيه يبدع كما يبدع فى خطبه السياسية ، ونسوق له من هذا الباب موعظة



يقال ان عبد الملك بن مروان كتبها بيده ، وهى تطرد على هذا السياق :

« إن الله عز وجل جعل لعباده عقولا عاقبهم بها على معصيته وأثابهم بها على طاعته ، فالناس بين محسن بنعمة الله ومسيئ بخذلان الله إياه والله النعمة على المحسن والحجة على المسيئ . فما أولى من تمت عليه النعمة فى نفسه ورأى العبرة فى غيره أن يضع الدنيا بحيث وضعها الله فيعطى ما عليه منها ولا يتكثر مما ليس له فيها ، فإن الدنيا دار فناء ، ولا سبيل إلى بقائها ، ولا بد من لقاء الله عز وجل ، فاحذركم الله الذى حذركم نفسه ، وأوصيكم بتعجيل ما أخرته العجزة ، قبل أن يصيروا إلى الدار التى صاروا إليها ، فلا تقدروا فيها على توبة ، وليست لكم منها أوبة .»

وواضح ما فى الموعظة من حسن التقسيم ودقة التفكير وسلامة المنطق والقدرة على الإقناع بالحجة ، وحقا ما قاله عنه بعض معاصريه ، وقد استمع إليه فى بعض خطبه ، من أنه أوتى حسن البيان وبراعة الخطاب .

**تتمة :**

وقد كان هناك إلى جوار هذين النوعين من الخطابة فى العصر الأموى نوعين آخرين نكتفى هنا بالإشارة إليهما وهما :

١- خطابة المحافظ

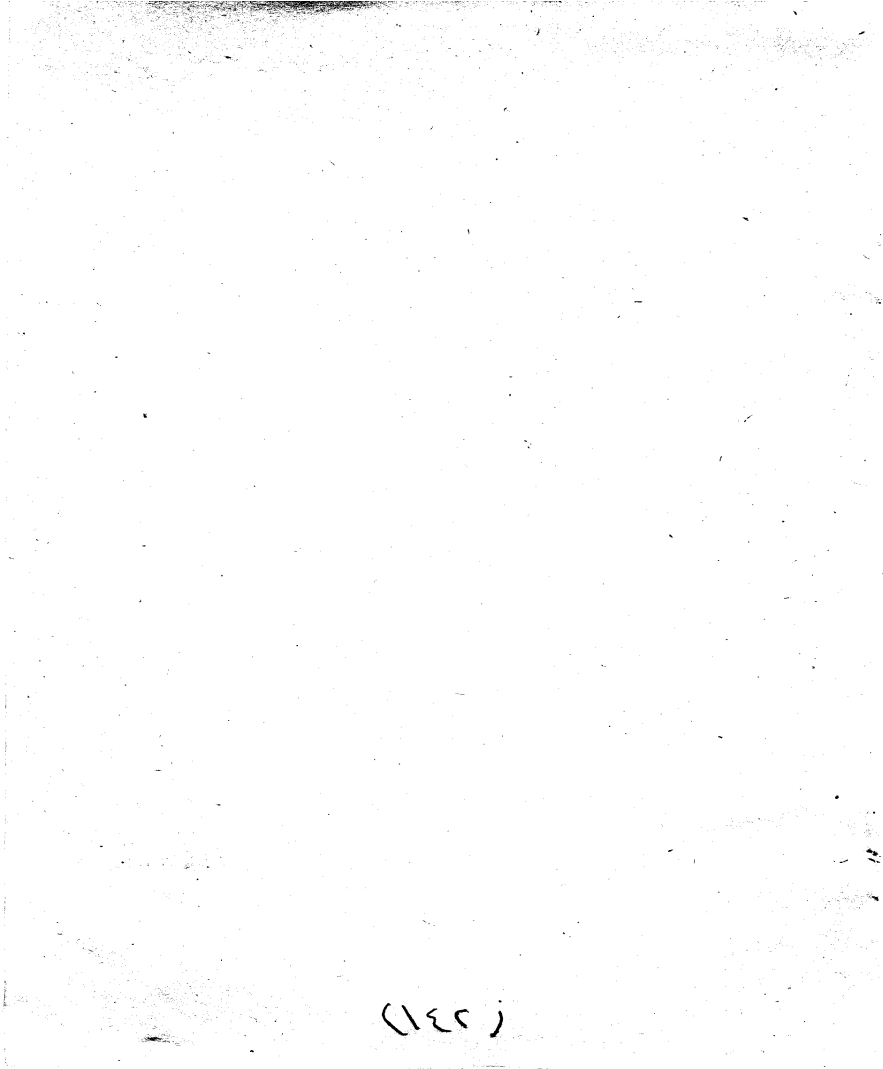
٢ - خطابة الوعظ والقصص

إلا أنهما لم يحفلا باهتمام الأخرين وإن كان ذلك لا يعنى

فقدانهما للبراعة فى الأسلوب والأداء ، ولولا ضيق المقام لتناولنا بالتفصيل .

وجملة القول :

أن الخطابة قد ازدهرت فى هذا العصر ازدهارا ، لعل العرب لم يعرفوه فى أى عصر من عصورهم القديمة ، فقد كانوا أصحاب مواهب بيانية ، قد علمت بواعث كثيرة على توهج هذه المواهب ، والانفعال الذاتى لقضايا ومشكلات كثيرة ألت بذلك العصر ، بأن أثرها فى الخطابة حين إذ ، وذلك بسبب خصومات سياسية عنيفة فكان هناك خطباء للخوارج وخطباء للأمويين ، وكل منهم يحاول استمالة الآخرين إليه واستلاب قلوبهم حتى حتى يتسنى استجلاب همهم وعزائمهم بالتفنن فى البيان ، كما نمت إلى جانب هذه الخطابة السياسية ( الحزبية ) خطابة المحافل بين أيدى الخلفاء والولاة إذ أخذ أصحابها يعنون بتحبير كلامهم ، وفى المقابل من هذه وتلك ظهرت واحتدمخطابة الوعظ ، والقصص الدينى اختدما شديدا . وقد حرص أصحابها على التمتع بكل وسيلة بيانية كى يؤثروا فى الناس حتى انتظم لهم أسلوب بديع ، ثبتوه تثبيتا قويا ، وهو أسلوب نهض على نمط من الإزدواج والخيالات والمقابلات ودقائق المعانى وقد مضوا يعلمون الشباب فى البصرة والكوفة كيف يبرعون فى الخطابة والمناظرة .



131

## الفصل السادس الخطابة في العصر العباسي

الخطابة الدينية في العصر العباسي

حرص خلفاء هذه الدولة خاصة في المائة الأولى لعهدهما على أن يكون شعارهم هو الدين والعمل على اعزازه والجمع بين الولاية والصلاة فأموا الناس في الصلوات الجامعة كالجمعة والعيد فكأنوا يخرجون في ابهتهم وعليهم بردة النبي صلى الله عليه وسلم فأحبههم الناس ووثقوا بهم ، وهابوا سلطانهم وقد وصف البحتري خروج المتوكل يوم عيد الفطر بقوله :

ذكروا بطلعتك النبي فهللوا . . . لما طلعت من الصفوف وكبروا  
حتى انتهت إلى المصلى لابساً . . . نور الهدى يبدو عليك ويظهر  
ومشيت مشية خاشع متواضع . . . لله لايزهى ولايتكبر

ويقى الخلفاء يمارسون الخطب في الجمع والأعياد ويبدو على السنة محاكيهم من فصحاء الولاة والأعمال سبه ماكان لها من سابقة من شأن واعتبار .

ومن هنا لم ينل الخطابة الدينية مانال الخطابة السياسية في العصر العباسي من تدهور وفتور ولكن طرأ عليها تغييرا واسعا من حيث طولها ومن الأفكار التي تحويها ونظرا لقلّة الأحداث وهروء الأحوال في هذا العصر أصبحت الخطبة دينية بحتة تعنى بالدعوة إلى الاستقامة في السلوك والترغيب في لالجنة والترهيب من النار ومن ناحية الأسلوب طالت مقدماتها

من صيغ التحميد لله تعالى والصلاة على النبي كما طالت الخطبة أيضا .  
كانت عليه في صدر الإسلام .

وفي العقد الفريد خطبة للخليفة المهدي ظهر فيها أسلوب الوعظ الديني  
المقتبس من القرآن الكريم والسنة النبوية يقول فيها بعد حمد الله والصلاة  
والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم :

« عباد الله إنكم لم تخلقوا عبثا ولم تتركوا سدى ، حصنوا إيمانكم بالأمانة  
ودينكم بالورع ، وصلاتكم بالزكاة ، فقد جاء في الخبران النبي صلى الله  
عليه وسلم قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له ، ولا صلاة  
لن لا زكاة له ، إنكم سفر مجتازون ، وأنتم عن قريب تنقلون من دار فناء  
إلى دار بقاء ، فساغرعوا إلى المغفرة بالتوبة ، وإلى الرحمة بالتقوى وإلى  
الهدى بالإتابة ، فإن الله - تعالى ذكره - أوجب رحمته للمتقين ومغفرته  
للتائبين وهداء للمنيبين».

لم يكن الوعظ مقصورا على الخلفاء بل كان منهم ومن غيرهم لأن الوعظ  
مبدأ ديني سام فرض في صلاة الجمعة والحج والعيدين وكان سريعة عامة  
تجب على كل مسلم ما استطاع إليه سبيلا بمقتضى إزام المسلمين جميعا  
بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كل بما يستطيعه ، ولذا كالت الوعظ  
الديني غرضا خطابيا للخطابة في كل عصورها الإسلامية .  
واشتهر من الخطباء في العصر العباسي - غير الخلفاء - عدد من

النسك الذين ابتعدوا عن زخرف الحياة ولذاتها ، وكان الخلفاء يدعمون هؤلاء الفساق ليعظوهم ، وربما أبكاهم وعظهم ، وكانوا يكافئوهم بالأموال فى بعض الأحيان .

وبهذا نرى الخطابة الدينية جرت فى تيارين مختلفين ، تيار يجرى على أسنة الخلفاء وتيار يجرى على أسنة الوعاظ والنسك ، وكل أسلوبه يختلف باختلاف الوعاظ أنفسهم ودرجات ثقافتهم ومقدرتهم على صوغ الكلام . وكثيرا ماكانت المجالس تعقد ، ويتسابق فيها أصحاب اللسن والبيان فى الإجابة وكثيرا ما كانت تلك المجالس مكان مناقشات علمية وكلامية ودينية يستخدم فيها كل أساليب الخطب الرائعة من محاولة تأثير ، واجتذاب إلى فكرة ، وقد كان أولو السبق فى تلك المجالس المعتزلة أصحاب الكلام وامتان من بينهم بالإجابة والفصاحة عمرو بن عبيد ويشر بن المعتمر ووسط هذه البيئة بيئة الوعاظ والنسك الذين تزخر بهم مساجد بغداد والبصرة والكوفة ومكة والمدينة .. إلخ العواصم الإسلامية ، ازدهرت الخطابة الإسلامية وأينعت وانضم إليها الوعظ والقص والتذكير بالآخرة والتخويف من عقابها ، واشتهر من الوعاظ عمرو بن عبيد المعتزلى واعظ المنصور وابن السماك واعظ الرشيد الذى وعظه يوما بقوله « يا أمير المؤمنين اتق الله وحده لا شريك له ، واعلم أنك واقف غدا بين يدي الله ربك ، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما جنة أو نار )

فبكى هارون حتى اخضلت لحيته .

وكان هؤلاء الوعاظ يستمدون وعظهم دائما من الذكر الحكيم وأحاديث الرسول الكريم وأقوال الصحابة ومن سبقوهم من الوعاظ وقد أشاعوا في وعظهم الإيمان الشديد بالله ، والثقة الوليدة بأن ما عند الله خير وأبقى .  
ولكن إذا كانت الخطابة الدينية قد رزدهرت في صدر العصر العباسي فإنها أخذت في الركود والضعف بعد ذلك لأن الرشيد أسن سنة سيئة للخطابة الدينية وهي أن يقوم الخطيب بإلقاء الخطبة مكتوبة بعد أن يكون قد أعدها له آخر ، فقد طلب الرشيد إلى الأصمعي أن يعد لابنه الأمين خطبة يخطب بها يوم الجمعة كما طلب غير الأصمعي أن يعد خطبة لأخيه المأمون ، وبذلك سن الخلفاء والخطباء أن يخطبوا بكلام غيرهم ، ومع مرور الزمن أخذوا يندبون عنهم من يقوم مقامهم في الصلاة والخطابة ، وظهر ذلك جليا في القرني الرابع حيث نال الخطابة الدينية ركود وضعف ووجدت كتب أو دواوين يستعملها خطباء المساجد ، واشتهر منها ديوان بن نباتة الذي ظل يحاكي بإخراج دواوين على صنفته حتى العهد الحديث ، وهي خطب تنظم على حسب الشهر لكل شهر أربع خطب أو خمس ففقدت الخطابة تأثيرها إذ أصبحت بعيدة عن حياة الناس .

وتتلخص أسباب ضعف الخطابة الدينية بعد المائة الأولى من حكم

العباسيين فيما يلي :

- ( ١ ) تثبت دعائم الدولة وبنائها أركانها وعدم الخروج عليها وزوال الخلاف بين العباسيين فيما بينهم فذهب بذلك الكون أعظم دوافع الخطابة وإن ضعف الداعي إلى الخطابة وقلت الحاجة إليها ضعف أمرها وهان شأنها .
- ( ٢ ) استعانت الدولة بالجنود من الفرس والترك ممن لا يحسنون النطق بالعربية فكان هؤلاء لا يثيرهم القول العربي البليغ ، فذهبت بذلك الخطابة في الجند حثا لهم على الجهاد فذهب من الخطابة داع مناعظم دواعيها .
- ( ٣ ) الاستعانة بالكتابة بدل الخطابة ، فقد اتسعت موضوعات الكتابة في هذا العصر وتعددت أغراضها حتى صار الخليفة أووالي إذا أراد أن يدعو من هم تحت إمرته إلى شئ أناب كتابه عن خطابه فأرسل إليه كتابا يقرأه وبذلك استغنى عن الخطابة في أخص موضوعاتها .
- ( ٤ ) تعود الخلفاء عن الخطابة أو أنابه غيرهم منابهم في الصلاة بالناس ، فاستهان الناس بمواقف الخطابة تقليدا لخلفائهم ومحاكاة لأمرائهم وقد تبع استهانة الناس بالخطابة استهانتهم بالخطيب وقلة احترامهم له، وبهذا ضعفت الرغبة في القول .



## نماذج للخطابة الدينية فى العصر العباسى :

### ١ - خطبة المأمون فى يوم الجمعة :

الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه ، ومستوجهه على خلقه ، أحماه وأستعينه ، أوًمن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له واشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

أوصيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله وحده والعمل لما عنده والتجنز لوعده والخوف لوعيده فإنه لا يسلم إلا من ألقاه وجاءه ، وعمل له وأرضاه فاتقوا الله وبادروا آجالكم بأعمالكم وابتاعوا ما يبقى بما يزول ويفنى ، وترحلوا عن الدنيا فقد جد بكم واستعدوا للموت فقد أظلمكم وكونوا كقوم صبح فيهم فأنتيهوا واعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا فإن الله عز وجل لم يخلقكم عبثا ، ولم يدرككم سدى ، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به ، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة الورحدة بقصر المدة .

وإن غائبا يحدوه الحديد أن - الليل والنهار - لجدير بسرعة الاونة وإن قادما يحل بالفوز أو بالشقوة لمستحق لأفضل العدة .

فاتقى عبد ربه ، ونصح نفسه وقدم توبته وغلب شهوته فإن أجله مستور عنه وأمله خادع له والشيطان موكل به ، يزين له المعصية ليركبها ، ويمنيه

التوبة ليسوفها حتى تهجم عليه منيته ، أغفل ما يكون عنها فيا لها حسرة  
على كل ذى غفلة ، أن يكون عمره عليه حجة ، أو تؤديه منيته إلى شقوة .  
نسأل الله أن يجعلنا وإياكم لا نبطره نعمة ولا نقصر به عن طاعة ربه غفلة  
ولا يحصل به بعد الموت فزعة ، إنه سميع الدعاء بيده الخير وهو على كل  
شئ قدير .

#### خطبة المأمون في عيد الأضحى :

قال بعد أن افتتح خطبته بالتكبير :

إن يومكم هذا يوم أبان الله فضله ، وأوجب تشريفه وعظم حرمة ووفق له  
من خلقه صفوته ، وابتلى فيه خليله ، وفدى فيه بالذبيح العظيم بنيه ، وجعله  
خاتم الأيام المعلومات من العشر ويقوم الأيام المعدودات من النفر ، يوم  
حرام من أيام عظام وفي شهر حرام ، يوم الحج الأكبر ، يوم دعا الله فيه  
إلى مشهده ونزل القرآن العظيم بتعظيمه . قال الله عز وجل ( وأخذ في  
الناس بالحج ياتوهكم رجالا وعلى كل خصم ياتين من كل فج عميق )  
فتقربوا إلى الله في هذا اليوم بذبائحكم ، وعظموا شعائر الله واجعلوها من  
طيب أقوالكم وبصحة التقوى من قلوبكم فإنه يقول ( لن ينال الله لحومها ولا  
دمائها ولكن ينال التقوى منكم )

الله الله و فوالله إنه الجد لا اللعب ، والحق لا الكذب وما هو إلا الموت  
والبعث والميزان والحساب والصراط والقصاص والثواب والعقاب ، فمن نجا

يومئذ فقد فاز ، ومن هوى يومئذ فقد خاب ، الخير كله فى الجنة والشرك كله فى النار .

فهاتان خطبتان للمأمون . صاحب الثقافة والمقدرة الخطابية وهما تدوران حول التذكير بالآخرة والتخويف من الموت لا يميز خطبة الجمعة عن خطبة العيد إلا ما أشار به عن العيد ، ثم يعود للتذكير بالآخرة والجزاء .

( ٣ ) خطبة عبد الله بن طاهر :

خطن عند الله بن طاهر وقد تهباً لقتال الخوارج فقال : إنكم فئة الله المجاهدون عن حقه ، الذابون عن دينه ، الذائدون عن محارمه الداعون إلى ما أمر به من الاعتصام بحبله ، والطاعة لولاة أمره ، الدين جعلهم رعاة ، الدين ونظام المسلمين .

فاستنجدوا موعود الله ونصره بمجاهدة عدوه وأهل معصيته الذين شذوا وتمردوا وشقوا عصا الطاعة ، وفارقوا الجماعة ومرقوا من الدين وسعوا فى الأرض فسادا ، فإنه يقول تبارك وتعالى ( إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ) .

فليكن الصبر معقلكم الذى إليه تلجئون وعدتكم التى بها تظهرون ، فإنه الوزر المنيع الذى دلکم الله عليه ، والجنة الحصينة التى أمرکم الله بلباسها غضوا من أبصاركم واخفتوا أصواتكم فى مصافكم وامضوا قدما على بصائرکم فازعين إلى ذکر الله والاستعانة به كما أمرکم الله فإنه يقول

يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا راذكروا الله كثيرا لعلكم

تفلحوا (

( ٤ ) ومن أقوال الوعاظ :

ما يحكى أن ابن السماك دخل على الرشيد يوما : فبينما هو عنده إذا استقى الرشيد فأتى بقلعة ماء ، فقال ابن السماك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشتريها ؟ قال : بنصف ملكي ، فقال اشرب هناك الله . فلما شربها قال : أسألك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كم لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتري خروجها ؟ قال بجميع ملكي ، قال ابن السماك : إن ملكا قيمته شربة ماء لجدير ألا ينافس فيه .

ويعد : فيتضح من هذه النصوص وغيرها أن خطباء العصر العباسي حرصوا على أن يطبعوا كلامهم بالطابع الديني مع الاستعانة بالقرآن الكريم اقتباسا واستشهادا كما بدت السهولة في المفردات والسلامة في التراكيب والجزالة في الأسلوب . وقد اشتهر كثير من خطباء هذا العصر وكان من أبرزهم : المنصور ، والرشيد والمهدى والأمين والمأمون وآل بيتهم .. وقد قال الجاحظ في شأن خطباء هذا العصر « لم يكن لهم نظير في أصالة الرأي وفي تقرير العلم ولا في قدرة دعواتهم على البيان العجيب والفور البعيد . ولا كانت الخطابة - كما رأيت عبر دراستنا التاريخية لا تزدهر إلا فيأجواء

معينة فقد أصابها عوامل الضعف الاضمحلال شكلا وموضوعا فيما تلا هذا العصر من عصور نظرا لأن الخطاب الديني قد أخذت على عاتقها إشباع الجانب الروحي وأهملت جانبي العملي والعقلي وظهر على الساحة دواوين تحفظ وتردد على أسماع الأمة في كل مناسبة وإن كان فيها ما فيها من الإسرائيليات والموضوعات والألفاظ المسجوعة سجعا متكلفا يحرص فيه قائله على القوالب اللفظية لا على المعاني الشرعية .

## الخطبة الدينية أحكامها وتاريخها

موضوع الخطبة فى الإسلام وميدانه هو نفس الميدان والمجال الذى يعمل فيه الإسلام ، والمجال الذى يعمل فيه الإسلام هو الحياة الأولى والآخرة جميعا ، فليس عمله هو الحديث عن الجنة والنار أو الحياة والموت كتلك الكلمات التى مل الناس سماعها ، وكتلك الخطب المقررة من بعض الدواوين (١) التى يسمعها الناس فى بعض مساجد القرى و ثم يخرجون لا يدرون ماذا قال خطيبهم إلا حديثا عن الجنة أو النار أو يخرجون وقد حفظوا ما قال لكثرة ما تردد عليهم ، أو كتلك الخطب التى تتناول النوح على الحياة والتخويف بالموت على نحو مفرق ، فإن هذا لا يحصل فى القلوب إيمانا بالله ولا توحيدا ولا تغيير معرفة خاصة ولا تذكر بالآله ولا تبعث النفوس على مخياه جل شأنه والشوق إلى لقائه ، فيخرج السامعون وهم لا يدرون من الخطيب شيئا ، إلا أنهم يموتون وتقسم أموالهم ويبلى التراب أجسادهم ، فياليت شعرى أى إيمان حصل بهذا . كما أن موضوع الخطابة فى الإسلام ليس هو الحديث عن هذا الجانب من الحياة ، أو ذاك وأغفال الآخر . لا . إن موضوع الخطبة فى الإسلام هو تلك المعانى الواسعة المحيطة بالحياة فى الدنيا والآخرة معا المتحدثة عن الدنيا والآخرة والجسم والروح والسلم والحرب والإنسان والجماعة ، وكل المعانى المفصلة لضروب الأحكام

(١) وقد نبهنا على ذلك وخطورته من خلال دراستنا لبعض النماذج انظر الكتاب ص ١٨٥ ، ١٨٦

فى شتى شئون الحياة .

ومن تأملب خطب الرسول صلى الله عليه وسلم وخطب أصحابه وجدها كفيلة ببيان الهدى والتوجيه وذكر صفات الله جل شأنه وأصول الإيمان الكلية والدعوة إلى الله ريبان نعمة وسرد نعمه التى تحببه إلى خلقه ، وذكر أيام الله والأمر بشكره وذكره ، فىنصرف السامعون وقد أحبوه وأحبهم ، الإسلام والحمد لله واسع جدا ، وفيه مجال للقول الكثير . وبالجملة .. ففى الإسلام نظام شامل لكل مرافق الحياة فيه الأحكام التى تنظم سلوم الناس فى كل ما يصدر عنهم من أعمال وعبادات على تعددها ومعاملات على تنوعها ، وقد استقصى الفقه الإسلامى الشئون الإجتماعية وبينها حتى دخل مع الرجل بيته وحكم بينه وبين زوجته ، فبين ماله عليها وما لها عليه ، وفصل ما عسى أن يقع بينهما من خصومة ، وحكم بين الرجل وولده ، وبينه وبين نفسه حتى بعد مماته بين تقسيم ميراثه ودفنه وقبره ، ثم أوصى بأيتامه خيرا ، وبين كيف يوصى على أولاده ، وقدر ما يوصى به ، وكيفية الحجر على السفية كل ذلك لينتظم أمر الحياة ، وليعيش المسلم عيشة منتظمة يتفرغ معها لإعداد أأزام ليوم المعاد ، ولما كانت هذه الأحكام صادرة عن الوحي كان فى إلتزامها والعمل بها سعادة للبشرية أفرادا وجماعات ، وكل ذلك تحقيقا للقصد من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم (وما أرسلناهم إلا رحمة للعالمين) .

---

نذكر هذا الكلام لتبين كيف أن الإسلام شمل كل الحقائق التي يحتاج إليها العالم في شئونه جميعا ، وصدق الله حيث يقول : ( ما فرطنا في الكتاب من شيء ) وذلك هو موضوع الخطبة والتوجيه في الإسلام .



## مصادر الخطبة الدينية

ينبغي أن يستمد الخطيب عظمته ونصحه من النصوص الشرعية والعلوم الكونية والفضائل النفسية والخطابة الإسلامية الرشيدة هي التي تستمد من القرآن الكريم والسنة المحمدية والنصوص الصحيحة وتسير في ضوئها . ولنا في هدى النبي صلى الله عليه وسلم خير قدوة وأفضل توجيه . فكثيرا ما كان يخطب بالقرآن الكريم ، وفي صحيح مسلم عن أم هانم بنت حارثة ما أخذت ( ق والقرآن المجيد ) إلا عن لسان رسول الله يقرأها كل يوم جمعة إذا خطب الناس . وكان عمر يخطب أحيانا بسورة النحل ( أتى أمر الله فلما تستعجلوه ) فالقرآن الكريم والسنة الشريفة والنصوص الصحيحة وأقوال السلف الصالح هي المصادر التي ينبغي أن تستمد منها الخطابة الإسلامية وتلك هي الروافد الدافقة التي تمد الخطابة في الإسلام ، وهي ينباع الصافية التي ينبغي للخطيب أن يجعلها مصدر روائه وغذائه ، ولا غرور فمن معانى القرآن الكريم تنفجر ينباع الخطابة الصحيحة ، والخطابة المستمدة منه هي وقود النهضة الرشيدة وضيء أمة تريد أن تستقيم على دربها إذ أن أسلوبه في خلق الضمير الزاكي والفكر الراقى وتقويم السلوك المعوج ، يكفى ويفنى ويشفى ويهدى للتي هي أقوم ( إؤ لهذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ) كما أن للقرآن قدرة فذة على قيادة الناس إلى الحق وعلى إستشارة أفكارهم واستضاءة مشاعرهم والسمو بهم إلى ما هو خير ، ولم يكن الوعاظ والمذكرون في صدر الإسلام يذهبون إلى أبعد من الكتاب والسنة في توجيهاتهم ونصائحهم ، وكان عماد الخطبة أو

العظة فى عصرهم إما القرآن وإما السنة وإما كلام مستمد منها يدور فى فلكها ولا يخرج من محيطها .

وعندما نتأمل الخطب المروية لنا عن الخلفاء الراشدين نراها محكومة بتلك المعانى التى أشرنا إليها وهى خطب فتحت لنفسها طريق الخلود والبقاء ، فما زالت قائمة يرجع إليها الدعاة حيناً بعد حين ليقتبسوا منها ويأثسوا بهديها ويأخذوا منها القدرة ، بل ويتعلموا منها فنون الكلام .  
وسنعرض - فيما بعد - فى هذه المذكرة نماذج من هذه الخطب الخالدة نستعين منها - فى سهولة ويسر - أسباب خلودها ويقائها ، والمواطن التى يمكننا أن نستعين فى الأخذ بها لتقوية أساليبنا فى الخطابة والدعوة إلى الله .

وعلى الخطيب أن يحاول جهده فى أن تكون خطبته محكومة بهذا الإطار السابق ، ولا مانع من الاستئناس ببعض القصص القصيرة والصحيحة خاصة للعامة التى تحب هذا النوع من القول وتطير وراء أصحابه ويكون ذلك بحذر وقدر .

وفى القرآن الكريم السنة المطهرة متسع كبير فى هذا المجال قال سبحانه  
(لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب . ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وهدى ورحمة للمؤمنين) (١)

أما المثقفون فى هذا العصر فقد يضيعون أو يتبرمون من هذا الإتجاه وإنما هم يحبون العبارة الرقيقة والأداء العالى فى أسلوب محكم نظراً لارتفاع

(١) يوسف : ١١١

مستوى الثقافة وكثرة اطلاع الناس على ما تقدمه المطابع من ألوف الكتب

خطر الإسرائيليات على الخطب الدينية والخطيب :

والذى نوصى به الخطيب أن يكون عماد درسه أو خطبته القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة وأقوال السلف الصالح وعدم الجرى وراء القصص المملة والإسرائيليات الموضوعة ، فإن ذلك موضع نقد شديد وشكوى كثيرة من الجمهور للخطيب ، ثم إنه لا ينبغي ألا يغفل جانب الخطورة التى تعود على المسلمين من رواية الإسرائيليات نظرا لما تحويه من أباطيل وخرافات نسب بعضها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، وذلك من حيث أنها تفضى إلى الآتى :

( ١ ) أنها تظهر الإسلام بمظهر الدين الذى يعنى : الترهات والأباطيل التى لا أصل لها . كما أنها تصوره فى صورة دين خرافى يعشق الخرافات ويطير ورأئها ، ويعنى بأوهام من صنع الخيال.

ومن أمثلة ذلك ما ذكره بن الجوزى وابن جرير الطبرى فى شأن آدم وداوود عليهما السلام وما هو موجود فى بعض كتب التفسير ، كتفسير القرطبي لآية ( الذين يحملون العرش ) ( ١ )

وذكره أشياء مضحكة عند تفسيرها لأنها لا تتناسب مع جلاله الآية وسمو معناها وليرجع إليه من شاء

( ١ ) أن رواية مثل هذه الإسرائيليات تكاد تصرف الناس عما هو أهم فى

دينهم وديناهم وتشغلهم بالتوافه والصغائر عن البحث فى الأحكام

والتفاصيل المهمة ، وعن التدبر فى آيات القرآن والانتفاع بعبه وعظاته

( ١ ) سورة غافر من الآية : ٧

وقصصه الحق مع أن شغل الناس يمثل هذه الأمور مضيعة للوقت فيما لا فائدة من معرفته وما يعتبر البحث عنه عبثاً محضاً . انظر مثلاً البحث عن طول سفينة نوح وعرضها وارتفاعها وأسماء الحيوانات التي حملت فيها وأسماء أصحاب أهل الكهف ولون كلبهم وعدتهم ، وعصى موسى من أى الشجر كانت ؟ وأسماء الطيور التي أخقاها الله عن إبراهيم ، وتعيين البعض الذى ضرب به المقتول ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى إلى غير ذلك مما أبهمه القرآن الكريم ، مما لا فائدة من تعيينه تعود على الناس فى دينهم ولا دنياهم .

( ٣ ) . إنها تعطى معلومات عن الكون ونظامه وسننه التي يسير عليها ، ذلك أن كل ما خلقه الله تعالى قائم على سنن وقوانين شرعها الله تعالى وجعلها نظامه الذى لا محيص عنه ولاغ خروج على حدوده يستوى فى هذا عالم الإنسان وعالم الحيوان الأعجم وعالم النبات وعالم الجماد وعالم الكواكب ( إنا بكل شئ خلقناه بقدر ) .

لكن نظرة فيما يرويه بعض المفسرين والواعظين تخيل للشخص أن أموراً تجرى هكذا دون ما سبب ولا مسبب ، كيف ؟ وعلى أى أساس .. لا أحد يدري ، وهذا ممل جعل الخرافة تعشعش فى ببعض الأذهان وتسير الارتباط فى بعض القول ، وصور ذلك ما هو موجود فى تفسير ابن الجوزى والطبرى والخازن من أمور لا تخفى على العين البصيرة ، الأمر الذى جعل بعض المشتغلين بالتفسير والوعظ يتخذون من رواية الإسرايليات مادة يشرحون بها نصوص القرآن الكريم ويرغبون أو يرهبون وذلك مما يشكل مساوئ

وأضرار بنا بعض صورها فيما سبق ونزيد .

( ٤ ) ان مثل هذه الروايات لا تذكر هكذا . وإنما تنسب إلى بعض الصحابة والتابعين ، الأمر الذي يسيء إلى سمعة صحابة أجلاء وتابعين كرام ، ويهز الثقة فيهم ولعل نتيجة ذلك ما كتبه أبو رية في كتابه ( أضواء على السنة المحمدية ) ونال فيه من أمثال الصحابي أبي هريرة وطعنه في روايته ولن تؤثقه مما جعل العلماء يتصدون له ويردون عليه ( أنظر السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي لمصطفى السباعي ( ١ ) ، والدفاع عن السنة للدكتور محمد أبو شهبة )

( ٥ ) أنها تشوش على عقائد العامة وأفكارهم لعدم تمييزهم بين الحق والباطل ، والحق أن النفس إن لم يكن لها حصانة من علم صحيح وبصيرة نيرة تميز بها بين الحق والباطل ، كثيرا ما تنطلي عليها تلك الأعاجيب وتسلم في بساطة ويسر للغرائب ولو كانت أكاذيب ، وكثيرا ما تأخذني الدهشة مما يرويه على بعض العوام من قصص فيها هدم للسنن الكونية ، بل وهدم لأركان الدين وأحكامه وترويج للفسق والفجور ودعوة إلى تشيع الفاحشة في الذين آمنوا انظر مثلا إلى هذه القصة القصيرة من كتاب الروض الفائق في الوعظ والرقائق ( حكى أن بعض الأولياء أراد أن يزور صديقا له فذهب إليه وكان عند المزور خادمة حسناء فأعجب بها ذلك الولي الزائر ولم يزل بها حتى وقع عليها في زمن يسير وأدرك أن صديقه قد ينزل

( ١ ) التعريف به إنظر رجال ومفكرين عرفتهم للأستاذ محمد المجنوب من ط دار الإعتصام وقد كان - رحمه الله مفكرا عبقريا وخطيبا مصقما - وسوف نورد له نموذج من خطبه التي إرتجلها على قبر فقيد الإسلام الأمير شكيب أرسلان ، إنظر ص

به من صبب العذاب والأذى ما لم تحمد عقباه ففر هاربا ، ولما عاد صديقه  
وعلم بما كان عدا خلفه ، فلما أدركه وكان بالقرب من البحر وجده يمشى  
فوق الماء . فسأله فى ذلك . فقال : ذاك قضاؤه وهذا رضاؤه فسر بذلك  
وخلى سبيله )

إن العاصى من العامة إذا سمع مثل هذا يعتصم به فى مساهلاته وهفواته  
ويمهد لنفسه عذرا فيه قائلا : ( إن عصيت الله تعالى فقد عصاه من هو  
أكبر منى مقاما وأحسن حالا ) ويزيده ذلك جرأة على الله تعالى من حيث  
لا يدرى .

وهكذا كل الحكايات التى لا أصل لها إلا فى خيال هؤلاء القاصين . وفيما  
يلى عرض للخطبة التأبينية التى ألقاها الدكتور « مصطفى السباعى على  
قبر الفمروحوم فقيه الإسلام الأمير / شكيب أرسلان فى ساعة دفنه  
« عليهما رحمة الله وبركاته » فى العاشر من سبتمبر سنة ١٩٤٦ م . وهى  
خطبة رائعة جديدة بأن تقال فى صاحبها ، كما أنها تعرض جانبا من أربه  
الراقى وبلاغته الرائعة حين الإرتجال ، مما لا يتوفر إلا للأدباء الكبار إلا  
بعد طول تدبر وعناء . وإليك نص الخطبة نقلامن كتاب ( عظماؤنا فى  
التاريخ صفحة ٢٢٠ وما بعدها طبعة المكتب الإسلامى :

خطبة تأيينية على روح / شكيب أرسلان

ألقاها الدكتور / مصطفى السباعي

[ عظامونا في التاريخ ص ٢٢٠ وما بعدها ]

ط / المكتب الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

سلام عليك أبا غالب ... أمير الجهاد أمير القلم

هتكت برأيك حجب الظلام ... م وثرث إباء إذا الخطب عم

وطوفت في الأرض تيغى السلا ... م لقومك والحق ممن ظلم

فخضت العمار وصنت الدمار ... وكنت الإمام وكنت العلم

ومازلت تفضح كيد الألى ... بغوا في البلاد وخانوا الرحم

وترشد قومك للواضحات ... تنير العقول وتزكى الهمم

إلى أن أصاخ لك المسلمو ... ن ولبي نذاك أسود الأجم

فأن لجسمك أن يستريح ... وتهجر روحك دنيا الأكم

أصبت بدنياك مجد الخلود ... وعند الإله الثواب العمم

إيه أبا غالب يا مالى الدنيا وشاغل الناس [ يا من كنت إلى آخر أيامك فى

الحياة تنصح وترشد وتعلم وتوقظ فما عرف فكرك الجمود ولا جسمك الراحة

ولا قلمك الركود ، وإنما كنت ثورة جامعة ، تزلزل أركان الإستعمار بما

تنفخه فى العرب والمسلمين من آيات النار والنور ، وهى القوة والحياة

فكافأك العرب والمسلمون بالحب والإعجاب ، وعاقبك المستعمرون بالتشرد

والاغتراب ، أما هؤلاء فقد رأوا بأعينهم أن ما بيتوه لهذه الأمة من كيد

أفسدته عليهم الأقدار وأما **أنت** **أفقد** **كأيت** فى حياتك ثمرة جهادك ! لقد رأيت



أوطان العروبة تحطم القيود وتسير نحو المجد وبلاد الإسلام تسرى فيها  
عزة عنيفة من اليقظة والوعى والنهوض ، وها أنت يا أبا غالب تدفن فى  
أرض تحررت من الأجنبي ، فلم يبق له فيها جيش ولا مستشارون ولا سلطة  
ولا أمر ، ولطالما أعلنت على جيش الاستعمار وسلطانه حربا عوانال وكننت  
لآمال قومك فى الجلاء حجة وتبياناً ولو قدر لك أن تعود إلينا لحظات لرأيت  
هذه الجموع تبكك بكاء التلكى ، ولرأيت فى بلاد العروبة مناحات وماتم ،  
وقد خلف نعيك فى كل عينك دمة وفى كل قلب حسرة ، وفى كل عين زفرة .  
فسلام عليك فى الأولين ، وسلام عليك فى الآخرين ، وسلام عليك إلى يوم  
الدين ، يأبها المسرعون بفقيد العروبة والإسلام ، تمهلوا قليلا رويدكم لا  
تعجلوا ! إنكم لات تحملون على أعناقكم رجلا ، وإنما تحملون جبلا من  
المفاخر أعياء التاريخ إحصاؤها وتسجيلها .  
وإنكم لا تدفنون إنسانا كسائر الناس ، إنما تدفنون أمة وتغيبون فى أطباق  
الثرى آمال الشعوب ، ورجاء أجيال كانت ترى فى الأمير إمامها وعلمها  
وباعث نهضتها ومبدد ظلمات حياتها .  
قفوا يا حملة النعش فما ينبغى للأب الروحى للجيل المؤمن والقائد الأمين  
للركب المسرع والمعلم الثابت للأمة المتعطشة للحقيقة ، والخصم اللدود للقوى  
الباغية المستعمرة ، وما ينبغى له أن يدفن هنا ، فى مكان ناء وفى أرض  
جرداء ، أن مكانه مع أبطالنا الخالدين ، أن مكانه دمشق مع صلاح الدين !  
لن يدفن إمام العروبة والإسلام إلا فى عاصمتها ، ولا يستقر زعيم أبطالنا  
فى تاريخنا الحديث إلا مع زعيم أبطالنا فى تاريخنا القديم ، ايس مكان

الأمير المجاهد إلا بجانب السلطان المجاهد ، هناك يجب أن يرقد جسمه  
الرقده الأخيره . أما حقيقته ، أما تعاليمه ، أما صرخاته ونداءاته ، أما  
شكيب أرسلان فإنه لن يموت ولن تنطفى شعلته ، إن محله فى القلوب وإن  
مثواه فى النفوس التى انطوت على حبه وسنورث هذا الحب للأجيال المقبله  
جيلا بعد جيل ، ما دام فى الدنيا عرب ، وفى الدنيا مسلمون . يال الفقيد  
وقرابتة وبنى عشيرته لستم أنتم الذين فقدتموه فحسب ولستم فى النصيبه  
وحدكم تكون وتآلمون ، وليس ابنه وحده هو الذى أصيب باليتم من بعده  
إنما ذقتة الرجوله والبطوله والحقيقه ، وإنما أصيب به البعريون و المسلمن  
وأبناء الشرق قاطبه ، وإنما أصيب باليتم أبناؤه الذين أفاقو فى الحياه  
عرب ألعانه ، وسخر بيانه ، وآيات جهاده فى قلمه وتبيانه .  
نحن الشباب المؤمن فى دنيا العروبه والإسلام .

اليكاء ، وفى قلوبنا فتشوا عن اللوعه والألم ، لنا فاسألوا نحن الذين فقدناه  
فألينا العزاء ، ومنا انتظروا الصبر والسلوان وإنما لله وإنا إليه راجعون .  
يا روح الفقيد العظيم ! انطلقى اليوم فى دنيا الخلود . فلطالما كنت فى هذه  
الدنئ حبيسه سجينه ، وغردى ما شئت أن تغردى ! فلطالما كان تغريدك فى  
دنيانا آلا بعثا وإيقاظا ، وانطلقى يا روح الفقيد فى دنيا لا تعرف الظلم ولا  
البغى ولا المكر ولا العدوان ، وابحثى عن أرواح أبطالنا الخالدين فيبلغهم  
الشر ويى ويثى إليهم الأحزان وانقلى إليهم من دنيانا ما يكون أعجوبه  
الاع جيب فى دنياهم ! غردى يا روح الأمير وانطلقى وارتعى ثم رفرفى علينا  
دائمه وأبدا وذكريتنا الدين فى أسمى معانيه والوطنيه فى أقوى مظاهرها

والعلم فى أوسع أفاقه ، والوفاء فى أروع آياته ، سلام عليك يا روح الامير  
ورحمة الله ورضوانه وبركاته .

---

(174)

## الفصل السابع الخطابة وعلاقتها بالدعوة ومقتضياتها فى العصر الحديث

حاجة الدعوة إلى لسن ذات طاقات خلقة جديدة :

إن العالم بما فيه من خزائن وكنوز وثروات ، وحكومات ومخططات لا يستطيع أن يقاوم عقيدة الإنسان التى لا تعرف الشك والضعف والحب الذى لا يعرف المادة والأشغال ، والعطف الذى لا يعرف الفوارق والحدود والإخلاص الذى لا يتعلق له بغرض أو منفعة ، والأخلاق التى لا تعرف المساومة ، والخدمة الدؤوب الصادقة التى لا تريد جزاء ولا شكورا . وفى هذا العصر الذى نشط فيه الباطل وحشد حشوده وجند جنوده وأعد العدة ، فى محاولات عديدة لقطع الطريق على الحق ، فقد بات لزاما على من حملوا أمانة صنع الجيل العلمى الجديد - ليكون فى غده لسانا للدعوة إلى الله - عز وجل - وجالا يرى فيه من يصدع فيهم بكلمة الله ورسوله صبرة صادقة لدعوته ، وواقعا عمليا لصوت القرآن - ضرورة الكشف عن هذه الطاقات المادية والروحية واستثمارها فما أن يتم الكشف عن هذه الطاقات الموهوبة - التى يتوسم فيها الخير وجدوى التربية - والإعداد - إلا وينبغى على المكتشفين من يوهم وضع برامج مخططة ومدروسة لإحياء تلك الملكات المعطلة وإطلاقها فى كل إتجاه ، لتقول كلمتها فى معركة حياة أو موت ، والبقاء فيها للكلمة الأقوى ، والحج الأعلى والبراهين الأسمى .. ولن يصل المسلم بالعقل الذكى وحده إلى ما يصبو إليه .. ولن يحقق النصر المأمون به ، فكم من فلاسفة عباقرة ، كانوا على مرمى حجر من الحقيقة ، لكنهم ضلوا وأضلوا ، وكم من قادة لا ينقصهم الإستعداد ولا التدريب بل كانوا يملكون أسباب النصر ، لكنهم لم يحققوه إليه غائما لأنهم جميعا لم

يستمسكوا بالعروة الوثقى ، لم يصلوا طاقاتهم واستعدادهم بالمدد الذى لا ينقطع ، والصبح الذى لا ينفذ زيتة ، ولا يخفت ضياؤه أبدا ، ولا تغنى عنه قوى الدنيا مجتمعة . فلقد كان المغول إعصارا فتيا ، إحتل معظم دول أوروبا وأسيا والشرق الإسلامى ، ولكنهم بادوا ، من حيث كانوا قوة مادية بلا روح .

واليابان التى بلغت فى التقدم العلمى شأننا بعيدا ، ما زالت تتلمس الطريق إلى المعرفة التى تجعل لحضارتها قيمة ، وقد قرأنا أخيرا كيف كلف مستشارها الصحفى بالقاهرة ليتعلم اللغة العربية تمهيدا لدراسة " مقدمة ابن خلدون " ونقلها إلى اليابانيين ، وصولا إلى ما فيها من معرفة تجعلها أقدر على تناول حياتها بأسلوب يحقق غايتها البعيدة .

وقد حان الوقت فى عصر الأقمار الصناعية والتلفاز ، والإتصالات اللاسلكية الرهيبة ، وانفتاح العوالم والبلدان التى كانت مغلقة بعضها على بعض طوعا وكرها ، حان الوقت لنفسح الطريق إلى معرفة أوثق بديننا الحنيف عن طريق التعريف به من قبل دعاة خطباء من طراز خاص ، يدركون قيمة الكلمة وأهميتها ويقدرون لها قدرها ومسئوليتها ، يمثلون - فى هذا - الرائد الذى لا يكذب أهله .

إننا لا نحتاج إلى شرح جديد ، فقد من الله - تعالى - علينا به واضحا جليا ، ولكننا فى حاجة إلى خطباء بمنهج جديد تلائم دعوتهم وكلمتهم روح ، العصر بلسان يتجاوب مع الحياة المندفعة فى رحلة يزامل فيها إنسان العصر ، ليصل به ومعه إلى مرفأ اليقين .

لقد ملكنا زمنا قطعة من أوربا ( الأندلس ) وكان من الممكن أن تكون - كما قيل بحق - نقطة إرتكان إلى بقية الأقطار هناك ولكننا فقدنا - يومها - الخطيب الداعية النابه ، الذى سكت صوته ، وغشى حياة الناس ليلته ، فاستترى الفساد ، وضاع الفردوس فى غفوة الحراس ، فما أحوجنا - فى الخطيب الداعية - إلى وعى كامل بدرس التاريخ وفقهه ، حتى لا يعيد نفسه مرة أخرى .

علاقة الخطابة بالدعوة إلى الله :

كانت الخطابة ولا تزال وستظل هى السر الرئيسى الذى تعبر منه كلمة المبلغين عن الله - تعالى - سبيلها إلى النفس البشرية على إختلاف مشاربها العنمية وقدراتها الفردية ، وقضاياها البيئية ومشكلاتها الإجتماعية والسياسية، فضلا عن هذا كله كرامتها العقديّة . فالخطابة إذا هى أبرز وسيلة من وسائل البلاغ عن الله - عز وجل - ومهمة الخطيب فى الإسلام من أشرف وأخطر المهام فى آن واحد ، فالشرف فيها ينبع من أن الخطيب الداعية يحمل بين جنباته علوم النبوة ، وبالأداء يتحقق منه وظيفتها " فالعلاء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا درهما ولا دينارا وإنما ورثوا العلم ، ومن ثم فلا ينبغي أن يتحدث فى الناس باسم الإسلام إلا عالم متمكن يدرك مسئولية الكلمة ، ويفقه توجيهها ، وكيفية توظيفها باقياسش رالمسئلة ليأخذ من ماضى الدعوة لحاضرها ، ومن حاضرها ما يشرق فجر الإسلام فى سماء جيل غدها . وإما خطرها فينبع بداية من اغفال الهمة المنوطة بالخطيب الداعية كداعية وليس كخطيب فحسب ، ثم من عدم عناية

الخطيب الداعية بما ينبغي أن يتكون لديه من حيله علميه وثقافيه تمكنه من مخاطبة الناس بلغة عصرهم ، ومقدار عقولهم وهذا النوع من الخطباء كثير على الساحه سقطوا وأسقطوا معهم الدعوة وافقدوا العديد من الناس الثقة فيهم ، وما زك إلا لأنهم أهملوا في حق أنفسهم قبل أن يهملوا في حق الله - عز وجل - ودعوته حتى صار حتى صار أكثرهم يتحدث لمجرد الوظيفة ، لا لإحساسه بمسئوليته كداعية حمله الله أمانة الكلمة ، وأثمنه على إبلاغ ميراث خاتم الأنبياء والمرسلين - عليهم جميعا الصلاة والسلام - للناس ، بهدف هدايتهم إلى الله - تعالى - وإخراجهم من ظلمات الجهل والضلالة والشرك إلى نور العلم والرشاد والوحدانية .

وإلى جانب ذلك أيضا تبرز الخطورة في استسغار أنفسهم وهمهم وعلومهم واعتبارها كما مهملا - أو قديما - أو أن الناس قد فقدوا الإحساس أو التأثير بهذا الكلام ، أو - ما يشاع على ألسنة الناس من أن كل الناس يعرفون الحلال والحرام - فما الداعي إذا لأن نتكلم في الناس ؟

ولكن من قال أن الخطيب يتكلم في الناس بالحلال والحرام أو أن هذه هي مهمته ؟ إن هذا مهمة الخطيب أو صاحب الإفتاء ، وليس مهمة الخطيب ، وإنما مهمة الخطيب حث الناس على الفضائل ودعوتهم إلى مكارم الأخلاق وربط كل ذلك بالعقيدة الصادقة في الله - عز وجل - وكذا معالجة المشكلات أو الرزائل الأخلاقية ، وذلك بالترهيب منها ، واستظهار خطرهما على النفس والدين والمجتمع ، والترغيب في التغلب على المفاسد والتغلب على شيطان النفس وهواها ، بالحرص على مرضاة الله - تعالى - وانتغاء وجهه الكريم ،



ومحاولة إثارة العواطف نحو الخير باستخدام الطرق العقلية ، والوسائل

الفكرية ، وكل هذا إنما باعثة في الخطيب أمور :

**أولها :** إحترام الذات الإلهية التي يتحدث في الناس باسمها وتوقيرها ، بأن يكون صورة عملية لما يتمتع به من صبغة علمية .

**ثانيهما :** إحترامه للعلم الذي تعلمه ، وتوارثه من خزانة النبوة ونورها واحساسه بمسئوليته العلمية والتعليمية تجاهه ، وكذا مسئوليته العملية وهو ما لا يتحقق قط بكتاب هذا العلم ، بل من الضروري إذاعته لأن إذاعته هي البرهان العلمي على تحقيق الاحساس بالمسئولية في الخطيب الداعية ، وإثبات انتفاعه هو ذاتيا بما تعلمك ، خوفا وخشية وحبا لله - عز وجل - وتوقيا لجريرة اللعن والطرده من رحمة الله - تعالى - والسنة اللاعنين بسبب التقصير في حق توجيههم - في الدنيا والآخرة . ( **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا** **أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَيْنِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ** **يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ** ) .

حب الناس وحب الخير لهم : لأن من يحب الناس ، يحب الخير لهم ، ويحرص شدة الحرص على هدايتهم والأخذ بأيديهم إلى طريق السعادة والنجاة ، وتحقيق مصالحهم ، والخلص من كبوتهم النفسية ، والجسدية ، والاجتماعية ، والسلوكية .

وذلك لأن من يجافى الناس ، أو يسىء عشرتهم ، أو يتمنى لهم موارد الهلاك والدمار والشقاء ، هو إنسان مريض لا يصلح أن يكون داعية - فكيف يكون خطيبا ؟ والخطيب كالطبيب - مع الفارق - فكيف لو كان الطبيب مريضا هل

ينتظم على يديه علاج مريض واحد ، أليس الأولى به أن يداوى نفسه أولاً .

وغير تقى يأمر الناس بالتقى .. طبيب يداوى والطبيب مريض فالخطيب الداعية لا يصلح أن يكون " أنانيا " ولا " سلبيا " ولا " أمعيا " لأن كل هذه الصفات محل بغض وكره من جميع العقلاء حتى من يتصفون بها لو توقفوا مع أنفسهم للحظة من الزمان .

**الخطيب الداعية بين المستولية والأناية :**

الأناية مرفوضة في أفراد المسلمين ، فكيف يقبل مجرد تصدر وجودها في الخطيب الداعية ؟ ، كيف لو كانت موجودة فعلا ؟  
إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو المثل الأعلى للمسلمين عامة ، وللدعاة خاصة ، يقول في حديث صحيح عنه " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه "

ولقد كان من مظاهر حبه هو نفسه - صلى الله عليه وسلم - وعطفه وشفقته على مجتمعه عامه والمسلمين خاصة ماسجله القران الكريم في آيات عديده منها :

١- قوله تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) .

٢- قوله تعالى (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) .

٣- قوله تعالى (وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبغض

نقفا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآيه ، ولو شاء الله لجمعهم  
على الهدى فلا تكونن من الجاهلين .

ألا ترى مقدار الحرص والحب الشديد الذي كان يملئ قلب النبي صلى الله  
عليه وسلم على الناس وللناس ؟ ألا ترى كم كان انفعال النبي - صلى الله  
عليه وسلم - لدعوته التي تحمل قضية الإيمان بكل معانيها وأفرادها إلى  
الناس ؟ لا تستشعر ينابيع الإيمان والخير والعطف والشفقة التي تتفجر  
وينهمر زلالها من عقيدة وسلوكيات ودعوة الرسول - صلى الله عليه وسلم -  
يريد أن يرتوى من معينها الرائق كل الناس ، لدرجة أن الله - عز وجل -  
يترقق به ويشفق عليه من فرط همته وشدته على نفسه ، لأجل هداية الناس  
وحب الناس ؟

إنظر إليه وهو يعبر لهم عن هذا الحرص والعطف والحب والشفقة فيحفظ لنا  
التاريخ لدعوته السامية - صلى الله عليه وسلم - أنه قد خطبهم قائلا : " إن  
الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتهم ، ولو غررت  
الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذي لا إله إلا هو إنى رسول الله إليكم  
خاصة ، وإلى الناس كافة ، والله كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ،  
ولتجزون بالرحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها الجنة أبدا أو النار أبدا  
، وإنكم لأول من أنذر بين يدي عذاب شديد " .

كما برز رعماده - صلى الله عليه وسلم في بداية أمر الدعوة الجهرية على  
الخطابة مركزا على ماله من سالف عهد ، وصادق حب ، وصفاء فكر ، ونقاء  
جوهر بين القوم ، عن طريق الاتصال المباشر بال جماهير ، وهو ما يؤكد على

أهمية الخطابة فى علاقتها بالدعوة إلى الله - تعالى - كما يبين من جانب  
آخر أهمية انخلاع الخطيب الداعية من الأنانية وعبودية الذات ، وذلك  
بالتفانى فى حب الآخرين حبه لذاته .

فقد أخرج البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ( لما نزلت  
"وانجذرعشيرتك الأقويين" صعد النبى صلى الله عليه وسلم على الصفا  
فجعل ينادى : يا بنى فهر ، يا بنى عدى ، يا بنى هاشم ، يا بنى عبد مناف  
- لبطون قريش - حتى إجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل  
رسولا لينظر ما هو ؟ فجاء أبو لهب وقريش فقال - أى رسول الله صلى الله  
عليه وسلم - أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم  
مصدقى ؟ قالوا نعم ، ما جربنا عليك إلا صدفا .. قال : إني نذير لكم بين  
يدى عذاب شديد ، إني رسول الله إليكم ) .

فانظر كيف خاطبهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتدبر أسلوبه ودقة  
كلامه ، ووجازة لفظه ، ووجاهة فكره ، ورجاحة عقله ، وهكذا ارتبطت  
الخطابة بالدعوة الإسلامية منذ أول عهدها فى عصرها المكي ذلك لأن النبى  
- صلى الله عليه وسلم - جاء بذلك الدين فى قوم القبول صناعتهم ، والبلاغة  
جل عنايتهم ، فنأدهم بأبلغ الكلام ، وأفصح الأساليب ، وخاطبهم بأروع  
بيان وخطب فى مجامعهم مؤيدا رسالته ناشرا دعوته ، فكانت الخطابة  
الوسيلة الأولى للدعوة حيث فرضتها الظروف البيئية للعرب ، التى برعت فى  
صناعة البيان ، ومن ثم حرصت الدعوة الإسلامية على إستخدام نفس  
الصناعة فى مجال وسائل التبليغ والنشر .

### الخطيب بين المسئولية والسلبية :

ليت الخطباء الدعاة يدركون أن دور الخطابة لا يتوقف عند حد الدور الوظيفي أو بمعنى أوضح " الروتين الوظيفي " وإنما هي مسئولية يتوقف عليها حياة أمة ، وبعثها من ثباتها لتنشط لما يرجى لها من قوة في الإيمان ، ورسوخ في اليقين ، وتجلد استعداد لمواجهة نوايب الحياة ، ويوم الدين . وهو ما يعنى أن الخطابة لا ولم يقتصر دورها في الإسلام على جانب معين - لأن انحصارها في جانب معين نوع من السلبية - وهو أقل درجات السلبية - بل اتسع دورها ليشمل سائر جوانب الحياة الإنسانية - في كل زمان ومكان - ومن ثم كان منها " الوعظي والحربي والسياسي والقضائي والمحفلي والتكريمي والتأبيني والتهنئي وما ذاك إلا لشمولية الدين ذاته لكل هذه الأنواع ، وقد سارت الخطابة على هذا النمط الشمولى في كل عصورها ، حتى جاء العصر الحديث فحجم دور الخطابة الدينية ، واقتصر على الجانب الوعظي " داخل المساجد : فحسب ، وقلص دور الدين وعطلت معظم الملكات التنموية للسان العربي الخطابي ، بسبب إقصاء الدين عن دوائر إختصاصاته التي تتسع لكل مجالات الحياة الإنسانية على عمومها . وأشد من هذا خطرا ما إذاغ زاد الخطيب الداعية - الطين بلة - بأن يصيب دعوته باللامبالاة ، وصم، الأذن ، وعمى العين ، فيعيش هو في واد ودعوته في واد آخر ، وهذا النوع من الخطباء ضرره يحقق ولا نفع يرتجى منه . إن الإهتمام بأمر المسلمين كله من أصغر شئ فيه إلى أعظم شئ فريضة أوجبها الإسلام على كل مسلم تجاه إخوانه ، فكيف بالحرى من وكل إليهم

أمر توجيه المسلمين والتصدي لمشكلاتهم ، والعمل على صلاح أمر دينهم  
ودنياهم ؟

إن الإحساس بالمسئولية هو وليد الشعور بدور الكلمة وأهميتها فى حياة  
المسلمين واعتبار المهمة المنوطة بالداعية الخطيب ذاتية فى الأمة الإسلامية .  
لفول الرسول صلى الله عليه وسلم " من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم "  
ولجعله صلى الله عليه وسلم ولجعله صلى الله عليه وسلم - النصيحة  
أساس الدين وأصلا من أصوله ، إذ يربط برباط وثيق ، دون ما واصل قط  
بينهما ، فيقول - صلى الله عليه وسلم - " الدين النصيحة " قلنا لمن يا رسول  
الله ؟ قال : لله ، وارسوله ، ودينه وإئمة المسلمين وعامتهم " .

وهو ما يؤكد أن دين الداعية الخطيب على وجه الخصوص - لا يستقيم قط  
ما لم يتخلص من كل ألوان السلبية تجاه دعوته لدين الله وشريعته .  
ومن ثم فإذا ما أردنا التنبيه على ضرورة إيجابية الداعية الخطيب تجاه  
دعوته ، والقضاء على مواطن السلبية العديدة التى ألت بساحة الخطباء فى  
العصر الحديث ، فإن هذا لن يتحقق قط ما لم ندركن الإهتمام بالخطابة  
الدينية فى العصر الحديث - على النحو الذى نأمل ونرجوه - يتم من  
منطلق الوقوف على دورها فى المجتمع الإسلامى ، وإن تستطيع الخطابة  
الدينية أن تؤدى دورها إلا إذا قام بها خطباء على مستوى المسئولية والوعى  
الدينى خطباء دعاة يؤمنون بما يدعون إليه ، ويعملون بما يعلمون ، ويعلمون  
خطباء لا يبيغون بعلمهم إلا ونجه الله تعالى ، خطباء يتمتعون بإيجابية  
الكاملة فى العلم والعمل معا ، خطباء يحملون لواء الدعوة إلى الله وليسوا

عينا بسليبتهم المدمرة .

### الخطيب بين المسئولية والأمعية :

إن الخطيب الداعية لا ليد وأن تكون له مميزات التي لا يباريه فيها من يتوجه إليهم بالدعوة ، بمعنى أنه ينبغي عليه أن يكون سابقا إلى الخير الذي يدعو إليه الناس ، ويطلب منهم التوجه إليه ، فيكن من مدعويه متبوعا لا تابعا ، قائدا لا مقودا ، متقلدا لا مقلدا .

فالأمعية في الخطيب لا تتوافق مطلقا وما يراد منه ، أو يرتجى فيه أو يقصد به ، وهو ما يتنافى تماما ومسئوليته تجاه دعوته لله - عز وجل - لأن الأصل في الخطيب الداعية ، أن يغير مدعويه - أو - مخاطبيه - ويحدث في نفوسهم إنقلابا من حال التردى إلى حال الترقى ، وليس العكس ومن النقيض إلى النقيض ، ومن الكفر إلى الإيمان ، ومن الشرك إلى التوحيد ، ومن الضلال إلى الهداية والرشاد ، ومن الجهل إلى العلم ومن الكسل إلى العمل والجد ... إلخ .

والأمعية في الخطيب الداعية تنافى هذا الأصل ، بل وتقلبه رأسا على عقب ، فهي تجعل منه إنسانا تافها ، ، تابعا لا قيمة له ولا كيان ، فأنى يحترم أويوقر ، أويؤبه له ، أو به ، أو يقام لكلامه في الناس مثقال ذرة من وزن أو اعتبار ، ألا ترى أنها جزيمة كبرى في حق الدعوة وانتكاس لمهمتها ، وتدمير لبنياتها وإهدار لشأنها من قريب ؟

إن الإمعية في الخطيب الداعية - هي السم الزعاف القاتل لشخصيته ثم لدعوته ، كما أنها هي السم الزعاف القاتل لكل من ينتمون إلى ركبها ،

ولذلك يحذر الرسول - صلى الله عليه وسلم - سائر المسلمين منها وينهاه عن الوقوع في حباثها ، فيقول - صلى الله عليه وسلم - : " لا يكن أحدكم إمعة يقول إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أسأوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم ، إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أسأوا ألا تنسينوا " .  
هذا فى شأن سائر أفراد الأمة المسلمة ، فكيف يكون شأن دعائها وخطبائها إذا ؟

وعدم الإمعية - فى الخطيب الداعية - يعنى تمتعه باستقلالية الذات عن التأثير بسلبيات المجتمع والوقوع فيها ، سواء كانت هذه السلبيات تتعلق بجانب من جوانب العقيدة ، أو الشريعة ، أو الأخلاق التى يترتب عليها جميعا سلوكه الذاتى فى المجتمع الذى يخاطبه بدعوته إلى الله - عز وجل - ليحقق هو فعليته على هذا المجتمع ، ويثبت تأثيره عليه بالإيجاب لا السلب .  
بين الخطيب والأديب :

إن الخطيب الداعية مثل الأديب ، كلاهما يشارك الآخر زو يشابهه فى أمور منها :

- ١- أن كليهما يعايش الواقع وينقل أفكاره .
  - ٢- أن كلاهما شديد الحساسية بالأمم الناس وآمالهم .
  - ٣- أن لدى كليهما مخزون من المعلومات يصبح كامولد الكهربائى مشحون بالطاقة أو كالنحل يستمد الرحيق ، لينقلها إلى الناس شرابا طهورا .
  - ٤- أن كليهما بالنسبة للواقع الإجتماعى كالمرآة تعكس الضوء .
- ورغم ما بينهما من مماثلة فى الأمور سالفة الذكر إلا أن لكل واحد منهما



خصائص يفارق فيها الآخر ، وهذا الفارق قد يكون واضحا إذا دققنا النظر  
لوقت قصير : فربما جلس الكاتب على حافة النهر ، أوفى ظل شجرة  
خضراء ، يسجل أفكاره ، فى جو يوحى بالانطلاق والحرية ، ثم يقدم هذه  
الأفكار للناس ، بالواسطة ، ويقرأ الجمهور أفكاره مكتوبة ، لكنهم لا  
يشاهدونه ، وقد لا يشاهدونه أبدا ، وربما شاهدوهم من البعد عبر أجهزة  
"التلفاز" أو ربما شاهدوا أفكارا مترجمة علميا " ممثلة " عبر الأجهزة  
العلامية المختلفة " السينما ، المسرح ، الفيديو ، التلفاز " .  
والأهم من هذا كله أن الأديب لا يكتب إلا حين يعتدل مزاجه ، بالإضافة إلى  
أنه يخاطب جمهور متقارب المستويات على نحو ما .  
فأين هذا من الخطيب الذى يواجه الناس فعلا . . متحملا تبعه هذه المواجهه  
المستمرة بكل أعبائها وما يترتب عليها من تأثير فى حياته هذا التأثير الذى  
تحدث عنه " عبد الملك بن مروان " فقد كان أخوف ما يخافه مواجهة الناس  
من فوق المنبر ، وهو ما أسرع بالمشيب إليه ، ثم إن جمهور الداعية مختلف  
النزعات والمشارب والفكر والغاية . وهو مع ذلك مطالب بمخاطبته للقوم بلغة  
يفهمها الجميع ، ليحقق النصر فى معركة متعددة الجهات .  
كما أن الخطيب الداعية محكوم بأهداف وقواعد الشرع وأصوله ولا بد أن  
يجبى تحركه فى الإطار الإسلامى ، وصوره حية لما يدعو الناس إليه . فإذا  
ما تحقق فيه هذا الذى ذكرناه فهو بلا شك يصير زعامة دينية لها خطرها  
فى مواجهة التحديات والفساد .  
وإذا كان الداعية فى أذهان الناس يمثل القيد الضاغط ، ومن ثم يتعرض

لمقاومة عنيفة منهم ، فإنه يحتوى هذه المقاومه لصالح الدعوة أو هكذا يجب أن يكون .

وإذا كان ما يمكن أن يضرب به المثل على الأديب أنه كالنغم العذب الذى يشجى السامعين ويجذب انتباههم ، فإن الخطيب يمثل الدائن الذى يطالب لمدن بالسداد ، والذى يطرق على الناس أبوابهم ليؤيدوا ما عليهم من طاعات (نكوات وصدقات ) لله تعالى .

ولهذا تشتد القبضه عليه ، وتتكاثر قوى الحقد والكراهه والبغض من أصحاب الأهواء والميول الخاصة ، والأغراض الدنيئة من ذوى الطباع الخبيثة ، والبقلوب القاسية ، والأرواح والأمزجة الفاسدة والسلوكيات الشيطانية ، على مقاومة الخطيب الداعية الناجح ، الذى يدير فى مواجهة هؤلاء القساة ، معركة يخوضها بنجاح يحقق به سعادة الفرد والمجتمع .

بل إن بعض البرامج الإعلامية إن يكن أغلبها - تمهد السبيل أمام أفكار الكاتب - الأديب - وتعمل على نشر أفكاره ، وأهوائه وخيالاته .

صورة الخطيب الداعية والأديب فى الإعلام المعاصر :

بينما الداعية يخاطب الناس على غير ما تشتهيئه أنفسهم ، فتراهم يتأقلون فى المجئ إليه والمثول للإستماع منه بين يديه ، وإذا ما جلسوا إليه أعرضوا بقلوبهم عنه ولووا رؤوسهم ، أو طأطأوا رؤوسهم ، ومنهم من يشبع نفسه نوما صامل عنه كل ممتلكاته ، فإذا ما فتئ ينتهى من كلامه ثم من صلاته ، ولوا عنه مدبرين سراعا ، وكانهم كانوا فى أسر أوحسب إشتد عليهم قيده ، وطال إنتظارهم للخلاص منه ، وماذاك إلا لأنه يخاطب أفرادا - أو جمهورا

جاء إليه من بيت ، ومن قبل أسرة هيأت له الجلوس أمام "التلفزيون"  
ساعات رأى فيها :

١ - الفضيلة عابرة الرذيلة ضاحكة مرحة

٢- صورة المحب الذليل راكعا ساجدا أمام محبوبته يجأر بعبوديته لها  
استجابا لرضاها .

٣- مدرس العربى والدين والمأثون - الذى يلبس ثوب رجل المنمير - يلب  
وشيخ الجامع - كما يقولون - فى صورة هزيلة منفرة سافرة ، ينفر منها  
الشباب والفتاة ، والكبير والصغير - لأنه لا يريد أن ابنه على هذه الصورة  
الهزيلة التى يصور الإعلام عليها رجل المسجد أو شيخ المسجد ، كالشيخ  
"علام" و"قس" "سلامة" والشيخ "هاشم" والشيخ "محفوظ" .. حتى لا  
يكون مثله مثار للسخرية ، هذا فى الوقت الذى يمجده فيه شخصية الطبيب  
والمحامى ووكيل النيابة والقاضى ورجل الأعمال ، والبلطجى الظالم ،

والفاجر البغى ، والمليونير الثرى ، ولكن ماذا بعد ؟

إنها الأسرة المخدوعة التى يكذب عليها أديب - فرنسى - حين يدعوها إلى  
الحياة .

وهو نفسه الذى يرميها بأشكال الملابس ، وصور التبذل التى لاتبقى فى  
النفوس حياء .. كما أنه هو - أيضا - الذى حول انتباه الشباب ليركز على  
نجوم لكرة ، ونجوم الفن ، بينما تندب الدعوة - ورجالها - حظها العاثر .  
وإذا كنا نطالب المسئولين عن الإعلام وأجهزته المتعددة فى العالم الإسلامى  
دائما بضرورة المزيد من العناية بالدعوة ، وإفساح المجال لها لتعبر عن

نفسها عن طريق مسئولين متخصصين فيها ، يقدرون للكلمة قيمتها ومسئوليتها ، فإن ذلك لا ينبغي أن ينسبنا - بحال - دوز المجتمع نفسه في التمكين لهذه الأجهزة كي تقوم بدورها بل ودور المجالس التشريعية في العالم الإسلامي والتي سمحت بدخول بلاء ما يسمى " بالدهش " إلى البلاد الإسلامية ، وفيه على الدين والأخلاق والتربية ما فيه مما يضيق المقام بحصره .

الخطيب الداعية والمجتمع :

إن بعضنا مصاب بعقدة الحاكم الذي يحمله وحده مسؤولية الدعوة والإبلاغ وبالفعل قد يكون هو المسئول الأول .. ولكن .. واجب المجتمع يبقى حتميا ، لأن التغيير يبدأ من القاع لا القمة حال البناء ، ويبدأ من القمة إلى القاع حال الهدم ، ونحن نريد البناء لا الهدم - وإن كان غيرنا يريد عكس ما نريد فعلينا إذا أن نبدأ من القاع ، ومن ثم فإن على المجتمع أن يغير نظرتة وتقديره للخطيب الداعية ولدعوته أو بمعنى أدق - للدعوة والدعاة - الذين يلقون منه عنقا ، وسخرية ، واتهامات بالتقصير بينما الناقد نفسه يقدم أذكي أبنائه للطب والهندسة والشرطة والحقوق ، ثم يبعث أضعفهم إلى الكليات الدينية أو كما هي في تصورهم - الكليات الدونية - حتى يكون آخر الدواء الكي .

فمن أين تأتي الدعوة باممتازين من الدعاة ، وقد ولد الآباء فيهم عقدة الدونية عن إخوانهم وأخواتهم ؟ من أين تأتي الدعوة بالمتازين وصورة الرجل الدعوة مشوهة مهينة في المجتمع وفي وسائل الإعلام ؟

من أين تأتي الدعوة بالمتأزين وأهلها متهمون بالقصور والتقصير فى الوقت  
الذى هم محبوسون عن أداء الكلمة فى حرية وأمانة وإحساس بمسئولية  
توجيهها ؟

من أين تأتي الدعوة بالمتأزين من الدعاة وأنت أيها الناقد المتفتق الغيور  
على دينك ودعوتك بولدك الذكى فلا ترصد لها ؟ كيف تطالب بإصلاح وضع  
أنت صانعه، وواضع أسسه فى البيت ؟

مركز الإمام الخطيب فى الناس وخطورته :

قال أحد العلماء المتخصصين : " إن مسئولية الدعاة أمام الله وأمام الناس جسيمة إن أحسنوا فيها كما أمر الله رفعتهم إلى عليين ، وإن أساءوا أنزلتهم إلى درك الأسفلين ، فهم خلفاء الله فى إبلاغ دينه وورثته رسله فى أداء أمانتهم فى العلم الذى ورثوه والنور الذى حملوه ، وجنة الناس أو نارهم بين فكبيهم ، فإن سنوا لهم سنن الخير فلهم أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة كما جاء فى الحديث الشريف " .

فالوعظ أو الدعوة بوجه عام أجل وظائف الحياة إنها العمل الذى يرتقى بصاحبه إلى أسمى المراتب لو نهض به على الوجه الأكمل ، إنها وظيفة الرسل وهم صفوة البشر وأعلام الهدى ، وأيما عمل تعتز الأمة الإسلامية به وتعلق كبار الآمال عليه هو دون الدعوة شائنا وأقل منها خطرا .

إن رسالة الإمام الخطيب إنما تعنى القيام على شأن كل مسلم يرتاد المسجد فيعود منه بغاية ، وفى الحقيقة إنه المربى والمهذب والرائد إذا قيس بجهد الداعى هين ، متى توفر له من الكمال والتوفيق ما يرجى منه . إن الذين تنوط بهم مهمة الإمامة والخطابة إنما تلقى على كواهلهم أحمالا ثقيلة من جهودهم المضنية وغايات نبيلة .

إن نظرة إلى الذين ينضرون وجوههم باقصد إلى بيوت الله وإلى ما تحمله صدورهم وقلوبهم من معانى وأحاسيس تفصح عن الخطر العظيم الذى يناط بالواعظ أو الداعى ، إنه طبيب هؤلاء جميعا على إختلاف منازعهم وتباين

حاجاتهم ، فالمسلم الذى يسعى إلى المسجد قد يحمل فى صدره هما وحرزنا  
من العيش ونكد الدنيا ، فهو يلتمس من الداعى مع أداء فرض الله وسائل  
من السلوى وأفانين من العزاء يعود بها فى صبر ورضا وقرّة عين ، وقد كون  
من التجار الذين يطفقون الكيل والميزان ويغنون السعر ويحبسون السلعة  
وما نخال الداعى الموفق إلا متسللا إلى دخائل نفسه يستل منها الخيانة  
والجشع وينتهل منها الإسراف فى الكسب الحرام .

وقد يكون ممن خلطرا عملا صالحا وآخر سيئا وليس بينه وبين التمحص  
للخير والتوفر عليه إلا أن يصغ إلى كلمات ذات إشراق تضى نفسا حائرة  
بين الخير والشر مترنحة بين كأسين يفصح له الداعى عن حلوة والحدة  
ومرارة الأخرى .

وفى الذاهين إلى بيوت الله فريق يرعون الناس ولا يخلصون العبادة لوجه  
الله تعالى ، ويتوفيق الداعى المؤمن اللبق تنقية للمرائى ترده إلى صراط  
مستقيم .

ومنهم فريق تحيا فى المساجد أجسامهم وترى على بسطها نواتهم لكن  
رواحهم هائمة خارج المسجد تفكر فى شئون الدنيا وتغرق فيها حيناً  
تتلظى بنار الحقد على الناس حيناً وتدبر أساليب من المكر للجار أو  
لصديق أو الزميل حيناً ، ويتوفيق الداعى المؤمن تخلص هذه النفوس من  
أسر الدنيا وغل الحقد وشر المكر .

فى هؤلاء بخلاء أشحة نفوسهم يؤدون الفرد والنافلة ، لكنهم عبيد الدرهم  
والدينار ، ورب موعظة نافذة ذات بلاغة وهدى تشق مسامع البخيل وتنفذ

إلى قلبه العليل فيفئ إلى رشده ، ويبرأمن دأته .  
وبالجملة فإن الناس مختلفون فى الخلجات والمشاعر والشئون والخواطر  
والغايات والمشاكل والعقول والمدارك ، والمسلمون الذين يغشون المساجد أين  
تنشر عليهم عظة الخطيب فى المحافل والمجالس مختلفون أشد الإختلاف فى  
كل ملابساتهم ، وكل واحد منهم ينظر إلى الداعى بعين ويسمع منه بأذن  
ويفهم منه بعقول ، والداعى الموفق أستاذ هؤلاء ورائدهم وحكيمهم وهادئهم  
وطبيبهم الذى يستحق لقب الإمام الجليس " من أدى لهؤلاء جميعاً غاياتهم  
أو كاد ووجد كل منهم رافضداً من عطائه أو على الأقل نال أكثر مما يرنو به  
ببصيرته حين يستمع إليه ويتلقى الحكمة والموعظة منه .  
ولا شك أننا بهذا نقدر الجهد الكبير الذى ينبغى على الإمام القيام به  
مسجده أنه أولاً : مطالب بأن يعرض على الناس عقله كل أسبوع مرة فى  
خطبة الجمعة أمام جمهوره أغلبه ثابت يسمعه بانتظام ويعى ما يقول كل مرة  
، وهو مطالب باستمرار بالتجديد ، وهو فى تجديده أحد رجلين :  
١- إما أن يركز خطبته على سلبيات المجتمع أو سلبيات الحياة فيقف على  
المنبر ناقد لا ترى عينه إلا الخطأ ولا تقع إلا على نقط الضعف فيصيح  
خطابته بصيغة قائمة من اليأس ، ويلجأ إلى أسلوب من النقد العنيف  
ينعكس عليه وهديراً معادياً لما حوله ، ويقوده هذا إلى نوع من الإنعزال  
الفكرى غير المتوازن ، وقد يستطيع الإمام أن يجتذب أنظار بعض الناس



بعض الوقت ولكن هذا سيجعله أسير هذا الأسلوب .

٢- ولما أن يهتم ببناء النفوس وتأكيد الإيجابيات فى داخل الفرد والأسرة والمجتمع والكيان الإسلامى ، وحديث الإيجابيات بطبيعته يحتاج منه إلى عناء أكثر كما أن دراسته للمجتمع الإسلامى الأول على عهد النبى صلى الله عليه وسلم والذين جاؤا من بعده وساروا على هديه بإحسان يحتاج منه إلى فتح آفاق العمل وتوجيه أذهان المسلمين إليها بحيث يحسون معه أنهم يسيرون على الطريق الصاعد على آمالهم ، وهو فى تحذيره من الأخطاء والإنحرافات يمسها كما يمس الطبيب داء المريض ، مع التشخيص علاج وأمل فى الشفاء ، وبين عينيه قوله تعالى على لسان يعقوب ( يا بنى اذهبوا وتجنسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ) يوسف : ٨٧

والإمام القادر على إيجاد هذه الصلة بينه وبين المصلين يجعل المسجد محبباً إلى قلوبهم ويشجعهم على إحضار أبنائهم معهم وتصبح صلاة الجمعة لقاء علمياً يتحقق به قول الله تعالى : ( يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير ) المجادلة : ١١ ولقد قرب القرآن الدعاء إلى الله ، والواعظين الناس هم خير طوائف هذه الأمة ( كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ) فعلق الخيرية على خاصية الزمير والنهى المقرونين بالإيمان

وتلك هي مهمة الأئمة والوعاظ ، بل هناك ما أصرح من هذا في إثبات الكمال والامتياز .

قال تعالى (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين) فصلت الآية : ٢٣

قاله سبحانه وتعالى ينكر أن يكون هناك من هو أطيب حديثاً من الداعين إلى الله العاملين بما يدعون الناس إليه كما أثبت كتاب الله الإشادة بهؤلاء النفر المضطاعين بمهمة الأمر والنهي فقال (وهو خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) الأعراف : ١٨١

قيل : وهم العلماء والدعاة إلى الدين كما ذكره النسفي في تفسيره والزمخشري في كتابه ، ومما تلحظه في هذه الآية أن هؤلاء بقيامهم بوظيفة الدعوة والهداية إلى الحق هم الأمة بكل مقوماتها فلم يطلق القرآن عليهم وصف النفر أو الأشخاص أو القوم ولكنه سماهم أمة فهم سياج عزتها وصمام أمنها وهداة طريقها وعنوان استقامتها بل هم ميزانها الضابط لتصرفاتها ، ومهما برز من خلل أسرعوا فأصلحوه ، أو انحراف بادروا فقوموه أوخير وبر أعلنوا شرعيته وسددوه ، وتلك سنة القرآن في الشجعان في الحق (ولتكن منكم أمة) (وهو خلقنا أمة) ومع أن خليله إبراهيم كان فراداً علماً واحداً لكن سماه الله أمة (إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ، شاكراً لأنعمه اجتناباً وهداه إلى صراط مستقيم) النحل : ١٢٠

وهكذا كل من أشفق على أمته ووعظها وأمرها ونهاها وسهر على صونها من المويقات وأرشادها لسبيل الخيرات كان هو ممثلاً لهذه الأمة (وهو من خلقنا أمة يهتدون بالحق وبه يصطلون) ولا عجب فإن تكوين الدعاة يعنى تكوين الأمة . فالأمة العظيمة ليست إلا صناعة حسنة لنفر من الرجال الموهوبين ، وأثر الرجل العبقري فيمن حوله كآثر المطر فى الأرض والموات أو الشملع فى المكان المتألق .

وما تاريخ العالم إلا صفائح لنفر من الناس لعت أسماؤهم فى شتى الآفاق بينما استخفت ألوف مؤلفة من العامة والدهماء ومن هنا فإنى أرى إذا كنا نريد لديتنا قيام نهضة ناجحة ، وإذا كنا ننوى - بحق - القيام بعبء المهمة الملقة على عاتقنا نحو هذا الدين الحنيف .

نرى أن تعد - على عجل - جماعات من الدعاة والوعاظ والمرشدين المديرين المخلصين ينتشرون فى أقطار العالم الإسلامى لينشروا تعاليم دينهم وسنة نبيهم عليه الصلاة والسلام ويبلغونها للناس كما أمرهم رب العالمين - وطريقة إعدادهم سنعرفها فيما بعد وينظفوا ما علق به من خرافات ويردوا عنه كيد خصومه ومكر أعدائه ويزيلوا من طريقه الحواجز التى شعبت أهله وقسمتهم إلى طوائف ومذاهب وجعلت كل حزب بما لديهم فرحون . الإسلام اليوم فى أمس الحاجة رلى رجالات متجردة تهب حياتها لله ، وتجعل مماتها فيه مناسبة للإمام الأعظم والقدوة الحسنة والأسوة الطيبة

الذى نزل فيه قوله تعالى ( قل إني صليّاتى ونسكى ومحيّاي ومماتى لله رب  
العلمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين ) من سورة الأنعام :

. ١٦٣ ، ١٦٢

## الفصل الثامن

إعداد الخطبة والخطيب  
ومقوماتها في الإسلام

## إعداد الخطبة والخطيب

### تمهيد :

من المهم جدا أن يعد الإمام خطبته ويحضر موضوعه حتى يكون كلامه مركزا ومنظما ، فيفيد جمهوره ويرضى ضميره ، ويحاول أن يكون موضوع الساعة ومشكلة الأسبوع حتى يربط بين الدين والحياة ، يفكر في موضوعها ويرتب عناصرها في نقاط ، ثم يشرح تلك النقاط مسندا على القرآن الكريم والسنة النبوية ، وأقوال السلف من الأئمة والصالحين وأعمالهم ، ويستخلص النتائج التي تناسب الظروف الراهنة والأحوال الطارئة وبذلك يشد انتباه المصلين إليه ويجعلهم ينتظرون موعد خطبة الجمعة بفارغ الصبر ، فيؤمه الناس ويقصده الجماهير من كل مكان مما هو معروف من سيرة بعض الدعاة في ماضيها وحاضرنا .

أما إذا لم يعد خطيب الجمعة موضوعه ، بدا وكل الدلائل تشير إلى أنه شارد الذهن مشتت الفكر ، يشرق ويغرب ، ويأتي بأفكار من هنا وهناك ، ويكلام أكثره غير متساو يشيع فيه التناقض والاضطراب وكثيرا ما ينسى شيئا وتغيب عنه أشياء ، فيكرر نفسه ، ويطول الكلام ويمضى الزمن بدون جدوى ويدب إلى السامعين الملل والتذمر ، وكل ذلك نتيجة إعتاد الخطيب على الكلام المرتجل الذي قد يخطر على بال صاحبه في اللحظة والتودون سابق تحضير .

## الذاتية الفكرية للخطيب ودورها فى إعداد الخطبة :

وإذا لم يكن من إعداد الخطبة بد فكيف نعدّها ؟

ذلك ما يفصله الآتى :

هب أنتنى مقدم على الحديث مع مسئول كبير لى عنده حاجة ، فماذا أفعل ؟

إنه على - والحالة هذه - عدة أمور :

١ - أن أستبين الموضوع الذى سأتكلم به إليه وأحدد غايته منه تحديدا

كاملا .

٢- أن أرتب مقدمات الحديث وأساليب النقاش مستعدا للرد على كل

ملاحظة يمكن أن تثار .

٣- أن أكون مرنا ولبقا فى كل ما يوجه إلى من كلمة أو رأى معارض .

٤- أن أستعد بالأسلوب الشيق السهل والكلمات ذات المعنى الأكثر تعبيراً

عن الفكرة .

وهكذا ، وعلى ضوء هذا من الممكن أن تعد الخطبة ، وأنه من الخير دائما أن

يخلو الإنسان إلى نفسه قبل الخطابة أو الكلام ، ثم يذهب فى هدوء يتصور

نفسه قائما فى الموقف الذى سيكون فيه ، ثم يشحذ عقله ومواهبه لمواجهة

هذا الموقف واحتمالاته ، إن هذا تماما " كالبروفة " التى يستعد بها الممثلون

قبل الدخول إلى المسرح فبقدر إتقان الممثل لدوره بقدر نجاحه .

كذلك بقدر إتقان أساليب الخطابة والإستعداد لها والمران عليها فى "

" البروفات " مرانا كافيا يكون النجاح المرجو .

### الخطيب الداعية و معاشته للواقع :

على الخطيب أن ينظر فيما حوله من الأمور المهمة والأحداث اليومية التي تشغل الناس في أحاديثهم ، و تدور على ألسنتهم ، ولها آثار بينة بينهم ، ثم يتخير من هذه الحوادث أجلها ، و يجعلها موضوع خطبته و مدار عظمته ، ثم يستحضر ما ورد من الآيات و الأحاديث الصحيحة في الموضوع الذي اختاره ، و يفكر إن كان موضوع التنفير من الرذيلة في الأضرار التي تنشأ عنها و يتوسع في فهم هذه الأضرار .

و يستحضر الألفاظ و الأساليب التي تخص موضوع خطبته ، فإن كان موضوعه مثلاً التنفير من شرب الخمر يفكر في الأضرار الصحية و المالية و الخلقية و الإجتماعية فوق ما أعد الله من العقاب لشارب الخمر ، و إن كان موضوعه دعوة إلى عمل نافع .

يفكر في آثاره الجليلة و منافعه الجزيلة في الدنيا و ما أعده الله في الآخرة من النعيم لفاعله .

فإذا أراد الكلام في حث الناس على تكوين جمعية للبر بالفقراء ، فكر في آثار هذا العمل في نفوس الفقراء و في معيشتهم و حالتهم الإجتماعية . و في هذا أيضاً يصرفهم عن التفكير في سلب أموال الناس و إقلاق راحتهم ، فتستقر النفوس و يستتب الأمن و تصفو الحياة و يفكر في الثناء الذي تنطق به الألسن على هؤلاء الخيرين ، و الذكر للإنسان عمر ثان .



ثم يفكر فى أن هذا العمل يجعل الأغنياء و الفقراء متحابين تشيع بينهم  
المودة و المحبة ، متضامنين يشعر كل واحد منهم بحاجته للآخر ، و يتذكر  
ما أعدّه الله للمحسنين من جزيل الثواب فى الدنيا و الآخرة .  
و ليكن تفكيره فى جو من الهدوء و صفاء النفس و طهارة القلب و النية  
الصادقة و الإخلاص فى الدعوة إلى الله و ما أجعله - قبل التفكير - أن  
يطهر قلبه و لسانه بقراءة ما تيسر من كتاب الله و يستلهمه المعونة  
و التوفيق .

و لا ينتظر الخطيب من الناس ثناءً و لا شكراً ، و لا يؤمن منهم بل أجره  
على الله رب العالمين ، و لا يأتى للحاقدين و الحساد بل يسير فى طريقه  
داعياً إلى الله ناصحاً لعباده ، قدوته أمام الخطباء عليه السلام الذى نزل على لسانه  
﴿ قُلْ لَأَسْأَلَنَّكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

#### **الميكال العام للخطبة :**

و بهذا نرى أن هناك أركاناً ثلاثة لا بد للخطيب من رعايتها :

١ - موضوع الخطبة ، أى « عنوانها » .

٢ - المادة العلمية التى تقوم عليها الخطبة .

٣ - صياغتها النهائية .

و لتسهيل الأمر عليه فإنه ينبغى له أن يقسم الخطبة إلى عناصر و فقرات  
متراپطة ، ثم يستحضر هذه العناصر و يستحضر فى نفسه أساليبها  
و العبارات التى تؤدى بها .

و يجب على الخطيب أن يجعل كلامه فى الخطبة الثانية امتداداً لمضمون  
الخطبة الأولى فى عبارات موجزة و أسلوب سهل .  
و من العيب أن يلزم الخطيب فى الخطبة الثانية خطبة يكررها كل أسبوع  
لا يحيد عنها و لا فائدة للناس بها ،  
حتى أن البعض تعود أن يقرأ على الناس عبارات ملوا سماعها  
و حفظوها من كثرة التكرار ، و تركوا التفكير فيها .  
أما إذا شرح الموضوع الذى يريد الكلام فيه فى الخطبة الأولى و رأى أنه  
لا مجال فى الثانية لجديد يضاف .  
فإننا نرى الأكتفاء فى الخطبة الثانية بالدبياجة التى تضمن الثناء على  
الله ثم الدعاء المطلوب للمؤمنين و المؤمنات .  
و إذا كنا قد تحدثنا فيما سبق عن إعداد الخطبة فإنه لابد من الحديث  
عن إعداد الخطيب ، لأن الخطبة الجيدة لا يستطيع أن يعدها إلا من أعد لها  
إعداداً جيداً لحمل مسئولية الكلمة و إدراك قيمتها و أهميتها و استشعر  
خطورتها و هو ما ستكشف عنه بعون الله تعالى فيما يلى :

### إعداد الخطيب الداعية

من أهم موضوعات الخطابة « إعداد الخطيب الداعية » .  
هذا المرسل للرسالة كما يقول علماء الإتصال له أهميته وخطورته في  
تبليغ الرسالة « إن أحسن إعداده » كان مبلغاً ناجحاً ، وإن أسوأ إعداده  
كان ضرره أكثر من نفعه .  
و يلحظ القارئ أنني ذكرت الخطيب الداعية بهذا التحديد ، ذلك لأن هناك  
الكثير من الخطباء الذين تتوافر فيهم مقومات الخطيب لم تكن لخطبتهم  
ثمرة مرجوة كما هو مطلوب للخطيب الذى يحس الرسالة بصدق  
و إخلاص .  
لهذا أردت بتحديد « الخطيب الداعية » أى الخطيب الذى تجرى العوة فى  
عروقه و دمه كما كان الأنبياء و الدعاة المخلصون من أمة الإسلام .  
يقول أحد العلماء : أن الداعية غير الخطيب ، الخطيب خطيب و كفى .  
و الداعية مؤمن بفكرة « يدعو إليها بالكتابة » و الخطابة و الحديث  
العادى ، و العمل الجدى فى سيرته الخاصة و العامة ، و يكن ما يستطيع  
من وسائل الداعية .  
فهو كاتب و خطيب و محدث و قدوة يؤثر فى الناس بعلمه و شخصه ..  
و الداعية قائد فى محيطه ، و سياسى فى بيئته و زعيم لفكرته و من  
ينبع فى ناحيته .

و كل هذا لا ينهض الخطابة وحدها بحقوقه فلا بد له من التأثير النفسى ، و الهيمنة الروحية ، و الإتصال بالله تعالى و استعانة العقل بما حصل من تجارب التاريخ و أحوال الناس .

هذا هو الداعية الصادق ، تحس إيمانه بدعوته فى النظرة و الحركة و الإشارة كما كان يفعل مصعب بن الزبير فيما سبق من الحديث . و فى السمة التى تختلط بماء وجهه ، و هو الداعية الذى ينفذ كلامه إلى قلوب الجماهير فيحرك عواطفهم إلى ما يريد من أمر دعوته . و إذا كان - هذا - لازماً للرسالات الأرضية على ما فيها من باطل فهو ألزم للإسلام ، لأنه رسالة الحق الخالص ، و بين الحق و فطرة الإنسان نسب فكلاهما من روح الله تعالى .

قال تعالى ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ بِمَا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فِكِينَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ .

ذلك بأن الحق مسطور بقلم الله فى كل فطرة و الفطرة الطاهرة التى لا دين عليها إذا سمعت الحق يتلى فى أى وجه ، أحست أنه صدق أحاديثها و صورة ما هو مكتوب فى أطوائها .

قال تعالى ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ من سورة العنكبوت آية : ٤٩ .

هذا هو الخطيب الداعية الذى أعنيه فى دراستنا هذه عن الخطابة فى

الإسلام ، وإلا فهناك الكثير من الخطباء الذين تعجبك أقوالهم ، ولكن للأسف الشديد ليس لهذه الدراسة الموجزة - إن شاء الله تعالى - بعض النماذج المباركة التي أثرت في الجماهير مدة طويلة من الزمان ونعتقد أن هذا التأثير سيظل في عطائه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

#### **تجربة عملية في حياة داعية خطيب ناجح:**

وحتى يتضح لك مدى تأثير النماذج الصالحة من الخطباء الدعاه و دورهم في التفسير أقص عليك تجربة عملية لواحد منهم صدرت عن تلمه و هو الدكتور / مصلح بيومى فيقول :

اذكر أنني خضت هذا المجال فترة من الزمان ، و من خبراتي و تجاربي في ذلك كنت أعمل في وقت ما - إماماً و خطيباً و مدرساً - بإحدى قرى جمهورية مصر العربية و كان عددها كبيراً و الأمزجة فيها متعددة و متنوعة ، و كانت تحتوى على عدة مساجد - بل و كنائس - مما يجعل العمل في هذا المجال من الصعب بمكان و من فضل الله على أنني بدأت العمل في أول شهر رمضان .

و أخذت أفكر كيف أجمع هذه القلوب المتنافرة المتباعدة ... عن الله تعالى ؟

و لم أجد أمامي إلا أن أعمل على إحياء سنة من سنن رسول الله ﷺ ألا و هى : صلاة العيد فى الصحراء .

- وكان الحديث والعمل على ذلك يؤدي إلى الكفر و العياذ بالله - نى  
نظر الكثير ، لأنهم اعتبروا أن هذا هجر و خراب لبيوت الله تعالى حينئذ  
أخذت أعد للأمر عدته و ذلك بالخطوات التالية :
- ١ - قمت بمشاركة أهل البلدة جميعاً فى السراء و الضراء داخلها  
و خارجها .
- ٢ - عملت على الحرص و الإلتزام الكامل بالإنتظام فى الدروس و خطب  
الجمعة مع الإمامة فى الصلاة بالطريقة التى جذبت الناس إلى تعاليم  
الإسلام .
- ٣ - كنت بعيداً - بفضل الله تعالى - عن الأمور المادية التى تشوه  
سمعة الإنسان فى حياته السلوكية .
- ٤ - و مع هذا و غيره كنت أمهد لهذا الأمر أثناء الدروس العلمية حتى  
أقنع أهل البلدة فى نهاية شهر رمضان بضرورة إحياء سنة النبى ﷺ فى  
صلاة عيد الفطر بالصحراء .
- ٥ - لم أكل على ذلك بل كونت مجموعة من المحيين لنشر دين الله تعالى  
، و استيقظوا قبل فجر يوم العيد ، و كان معنا مكبر الصوت و بعد الصلاة  
انقسم الجمع إلى قسمين :
- قسم أخذ يعد المكان الذى سيؤدى فيه صلاة العيد .  
و قسم آخر يطوف حول البلدة .

و ينادى بصوت يدل على الحب و الصفاء لإحياء تعاليم الإسلام ، و دعوة  
النبي المصطفى عليه الصلاة و السلام ينادى بهذا النشيد العذب « الله أكبر  
الله أكبر ، لا إله إلا الله و الله أكبر ، الله أكبر و لله الحمد .. » .  
و هكذا أخذ الناس يتجمعون بطريقة لم تخطر على بال لدرجة أنكر في  
هذا اليوم أنى أخرت صلاة العيد حوالى نصف ساعة من كثرة ما كان يأتى  
الناس من كل الإتجاهات .  
ثم أدت صلاة العيد ، و ألقىت خطبة العيد ، و كان التوفيق من العلى  
الكبير .

و بعد ذلك كانت التعليقات العجيبة من أفواه المصلين كما يلى :  
و منهم من يقول : حقاً لم أحضر للصلاة إلا لإخراج الخطيب الذى جعل  
الناس يهجرون بيوت الله فى هذا اليوم ، و لكن للأسف لم أستطيع أن أتفوه  
بكلمة واحدة أمام هذا الخير العظيم .  
و من السيدات الفضليات من قالت بعد أن شهدت هذا الجمع عن قرب  
و كانت قد أدت حج بيت الله الحرام : أننى فى هذا اليوم كأننى كنت على  
سرفات أستعيد الذكريات العظيمة .  
إلى غير ذلك من التعليقات الكثيرة التى جعلت أهل البلدة جميعاً هم  
نفسهم الذين كانوا ينادون فى كل عيد يأتى - عيد الفطر أو عيد الأضحى  
يسرعون بالإعداد للصلاة خارج المساجد .

و صدق الله العظيم إذ يقول ﴿إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ من سورة هود : (٨٨) .  
**الطريقة المثلى فى الإعداد :**

و على ذلك فلا بد من إعداد الخطيب الداعية فكيف تعد هذا الخطيب ؟  
و الجواب ما يلى :

**أولاً : أن نحسن اختيار أصحاب المواهب التي تحمل الصفات  
و القادرة الخطابية فى سن مبكرة .**

و هذا الإختيار يقوم به أصحاب الخبرة ، و علماء هذا الفن كما يحدث -  
مثلا - فى اختيار السباب للكليات ، و المعاهد العسكرية التي تؤهلهم فيما  
بعد ليكونوا حماة و درعاً حصيناً للوطن و المحافظة عليه .  
و لا شك أن تعهد الإنسان على شئى معين من الصغر له أثر كبير فى  
تكوينه و صدق من قال :

و ينشأنا شئى الفتيان منا \* على ما كان عوده أبوه  
و من قال أيضاً :

الأم مدرسة إذا أعددتها \* أعددت شعباً طيب الأعراق  
و المجتمع الإسلامى - أفراده و جماعات كل على حسب موقعه مسئول  
أمام الله تعالى على هذا النوع من التربية لأبنائه الذين يعد للأمر بالمعروف  
و النهى عن المنكر .



قال تعالى ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ آل عمران : ١١٠ .  
وقال ﴿ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٧﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ سورة آل عمران : ١١٤ .

وتربية الناشئين على هذا الأساس معناه أن نصون فطرتهم الطاهرة من التدنيس ورتكاب الخطايا أو من أن تستهويهم الرذيلة لأن مجرد استحسانها سيُعدّهم لارتكابها إذا كبروا. وأصبحوا قادرين عليها ، هذا من جهة ، و من جهة أخرى فإن من واجب الراشدين أن يغرّسوا معاني الإيمان في قلوب الناشئين بشتى المناسبات .  
بأن يلفتوا نظرهم إلى كل ظواهر الكون الدالة على قدرة الله وعظمته و وحدانيته ، وأن يوجهوها و يهذبوا سلوكهم بأداب الإسلام ، وأن ينصحوا إذا دخلوا المسجد و يعلموهم عبادة الله و آداب المساجد .  
من أجل هذا اهتمت بعض المؤسسات الإسلامية في المجتمع الإسلامي بهذا اللون من التربية ، و إعداد الخطباء ، الدعاة إلى الله عز و جل .  
فعمدت المؤتمرات المتعددة في عدد العواصم الإسلامية و قدمت البحوث المختلفة - و لا تزال - تبين ما يجب فعله نحو هذا الإعداد المهم للأفراد و الجماعات حسب ما تقتضيه ظروف و أحوال المجتمعات و مشكلاتها

المعاصره و من بين هذه المؤتمرات المؤتمر الإسلامى العالمى الثالث الذى عقد بمكة المكرمة عام ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م .

و قد ناقش هذا المؤتمر الدعوة الإسلامية و سبل تطويرها و تحدث فيه بعض الشخصيات الإسلامية بعمق و عرفان .

و كان البيان الختامى للمؤتمر يدل على أهمية الموضوع و خطورته .

و مما جاء فيه : و فى مجال الدعوة دعا المؤتمر إلى التوسع فى إنشاء كليات و معاهد الدعوة الإسلامية و تطوير مناهجها ، بحيث تشمل كافة العلوم التى تؤهل الداعية للقيام بواجب الدعوة .

كما دعا إلى إنشاء مراكز التدريب الدعاة على صعيد العالم الإسلامى .

و دعا الهيئات و المنظمات العاملة فى حقل الدعوة الإسلامية إلى تمويل نشاطاتها بالطرق الذاتية عن طريق المشروعات الإستثمارية و الوقف الخيرى ، و باشد المؤتمر الحكومات الإسلامية تشجيع الإنتاج الإعلامى الملتزم فى شتى المجالات .

كما باشد الحكومات الإسلامية إفساح المجال و توفير الإمكانيات للدعاة إلى الله لنشر حقائق الإسلام و رد أباطيل خصومه بالحكمة .

و فى تحقيق صحفى مع الدكتور / عبد الودود شلبى أمين عام اللجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف ذكر فضيلته إنشاء المعهد العالمى لتدريب الدعاة بالعالم الإسلامى .

و أن هذه الفكرة بدأت عندما قام فضيلة الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الجامع الأزهر بزيارة للأقطار الإسلامية فى آسيا وإفريقيا و ناقش مع المسئولين هناك المستوى العلمى و الثقافى للوعاظ و أئمة المساجد .

و أستقرت الآراء على تتابع إرشادهم و رفع مستواهم و تزويدهم بالثقافة الإسلامية تحت رعاية الأزهر الشريف و ذلك بعقد الدورات التدريبية المستمرة و المتنوعة .

و بالفعل خرجت الفكرة إلفى حيز الوجود حتى قال الدكتور / شلبى :  
و نحن من جانبنا سنقوم بتطوير هذا المعهد ، ليصبح أول مركز عالمى للدعوة الإسلامية . ليتولى إعداد و توجيه و تدريب أبناء العالم الإسلامى من رجال الدعوة الإسلامية .

#### **و يقول المشرف العام على مدينة البحوث الإسلامية بالقاهرة :**

لقد قمنا بإعداد عمارات سكنية داخل مدينة البحوث الإسلامية لإقامة لدارسين بالمعهد العلمى لتدريب الدعاة بالعالم ، و قد تم تزويدها بكل ما يحتاج إليه الدارس ، فإلى جانب غرف النوم المجهزة تجهيزاً طيباً هناك أماكن المخصصة لاستذكار المحاضرات ، و مكتبة تضم الكتب الإسلامية اللغات العربية و الأجنبية التى يتحدث بها الدارسون فى الدول المشتركة فى هذه الدورات التدريبية .

و هكذا خرجت الفكرة إلى حيز الوجود و لو أنها نفذت في حدود ضيقة  
- بسبب الإمكانيات - إلا أنها من الممكن أن تتسع و تتسع حتى تشمأ  
العدد الكبير الذي نريده و الله من وراء القصد .  
و مما يساعد على وجود مثل هذه الفئة المؤمنة - مستقبلاً - بعد حسن  
الإختيار في وقت مبكر - كما ذكرنا - إنشاء الجمعيات و المراكز الخطابية  
، و إيجاد التنافس بين الشباب في هذا المجال عن طريق المسابقات  
و التشجيع المستمر، و تدريبهم على مواجهة الجماهير ، و قوة الصوت  
، و الإستماع دائماً إلى الخطباء المجيدين و قراءة الكلام الجيد شعراً و نثراً  
، و حسن الخلق ، و الصفات الحميدة و وضع دروس و قواعد و مناهج يلتزم  
بها الخطيب من صغره حتى يصبح فيما بعد قدوة و قائداً يقتدى به في علمه  
و عمله هذا إلى ترسيخ العقيدة الحقة في نفسه حتى لا يتزعزع أبداً مهما  
وقفت العقبات في طريقه .

#### **ثانياً : إعداد الخطيب الداعية عقلياً :**

لاشك أن الخطيب في أمس الحاجة إلى الإعداد العقلي ، و أهم مظهر  
لذلك هو الذكاء العام أو الحكمة ، معنى هذا أن يكون لديه الإستعداد لحسن  
التصرف حينما يواجه بأي أمر من الأمور - خاصة الدرجة منها -  
و الخطيب الناجح يحتاج إلى الذكاء بكل أنواعه .  
سواء كان نظرياً أو عملياً أو إجتماعياً طالما أنه يتعامل مع مسائل

و قضايا نظرية ، و مع مواقف و أمور عملية حسية ، و مع مواقف  
و مشكلات اجتماعية ،

و مما يزيد من حاجة الخطيب إلى الذكاء بأنواعه الثلاثة كما ذكرنا هو  
اشتغاله بأمور عملية و نظرية ، و تعرضه لكثير من الأسئلة و توقع الناس  
منه أن يكون مصدراً موثقاً منه للإجابة على أسئلتهم .

و أن يكون سريع البديهة لبقاً فى حديثه كيساً فطناً حذراً حسن التدبير  
يخاطب الناس على قدر عقولهم و يدعو إلى ربه على أساس من الحكمة  
و البصيرة و العلم ، امثالاً لقول الله تعالى ﴿إِدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ  
و الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ .

و قوله تعالى ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ .

و يتوقع المجتمع منه بالإضافة إلى كل هذا أن يساهم فى إثراء الفكر  
و بث الرعى و تجديد الثقافة و هو لا يستطيع أن يقوم بكل هذا بدون درجة  
عالية من الذكاء الفطرى و المكتسب .

و مما يدل على أهمية الناحية العقلية عند إعداد الخطيب ما قاله أحد  
الباحثين : « إن الإيمان بالله ليس غريزة فطرية فحسب ، بل هو ضرورة  
عقلية كذلك ، و بدون هذا الإيمان سيظل هذا السؤال الذى أثاره القرآن قلقاً  
حائراً بغير جواب ﴿أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ سورة الطور : ٣٥ - ٣٦ .

و ليس لهذا السؤال إلا جواب واحد ، لا يملك الإنسان - إذا ترك و نقد -  
- إلا أن يجيب به ، كما فعل المشركون أنفسهم ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ سورة الزخرف : ٩ .  
و لقد علم القرآن الكريم - الخطيب الداعية - كيف يستدل على وجود الله  
عز و جل ، و كيف أنه دعا العقل إلى التفكير و البحث و التأمل في الكون  
و كشف أسراره .

قال تعالى ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْرَاهِيمَ كَيْفَ خُلِقَ \* وَ إِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ  
\* وَ إِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ \* وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ .

و قال تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ  
وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ  
فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ  
الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ سورة البقرة : ١٦٤ .

ليس هذا فقط ، بل إن القرآن الكريم كرر لفظة « الالباب » ست عشرة  
مرة ، و لفظة « العقل » أو ما يشتق منها تسعاً و أربعين مرة ، و لفظة  
« فكر » و ما يشتق منها ثمانى عشرة مرة .

يقول العقاد « و فريضة التفكير فى القرآن تشمل العقل الإنسانى بكل ما  
احتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها و مدلاتها فهو يخاطب العقل  
الوازع و العقل المدرك و العقل الحكيم و العقل الرشيد ، و لا يذكر العقل

عرضاً مقتضياً ، بل يذكره مفصلاً على نحو لا نظير له في كتاب من كتب الأديان .

و يزيد العقاد الأمر وضوحاً في قوله : « ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبية إلى وجوب العمل به والرجوع إليه » .  
أما النبي ﷺ فقد كان يعمل على إعداد العقل و تنميته في الجيل المثالي الذي رباه لحمل الرسالة الإسلامية إلى البشر .  
و من ذلك : أنه كان يلقي بالسؤال فينتبه الجميع إليه و يفكرون فيه و يشغلون عقولهم في الجواب ...

بعد ذلك يجيب النبي عليه الصلاة و السلام فتقع الإجابة في قلوبهم و لا ينسوها أبداً ، مثل ما رواه البخارى في صحيحه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : أن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها و أنها مثل المسلم ، فحدثوني فوقع الناس في شجر البوادي ، قال عبد الله : و وقع في نفسى أنها النخلة ، فاستحييت ، ثم قالوا : حدثنا ما هي يا رسول الله ؟

قال : هي النخلة .

فهذا اللون من التعليم النبوي يربي العقل و ينميه .

### الأساليب التمهوية لتكوين الذاتية الفكرية للخطيب الداعية :

و من الأساليب التي تعمل على إعداد العقل إعداداً طيباً ، وضع منهاج من الأسس ، و العمليات العامة .. التي تربي في نفوس الشباب أعمال الفكر و التنافس في ذلك ، مثل :

#### (أ) فوازيرو :

- ١ - ما هو الشيء الذي في رأسه صنع فتحات ؟
- ٢ - ما هو الشيء الذي تكمله ، و لكنك لا تستعمله أبداً و أحياناً تفقه ، و لا تعثر عليه إلا بعد حدوث أشياء معينة ، و نستطيع أن تحركه و نستطيع أيضاً أن تجعله يكبر و لكن بمساعدة شيء ؟
- ٣ - متى تستطيع أن تبقى الماء في الشبكة ؟

#### الإجابة :

- ١ - رأس الإنسان .
- ٢ - الخيال .
- ٣ - عندما يكون الماء ثلجا ... إلخ .

#### (ب) إسلا ميات :

- ١ - من هم العشرة المبشرون بالجنة ؟
- ٢ - قال رسول الله ﷺ « لقد رأيتك بمكة و ما بها أحد أرقى حلة منك و لا أحسن لمة منك - ثم أنت أشعث الرأس في بردة من المقصود بهذا القول ؟



٢ - رتب هذه المعارك حسب حدوثها من الأقدم إلى الأحدث .

١ - ذات السلاسل      ٢ - السزار .

٣ - ألبس .      ٤ - الولجة .

### الإجابة :

١ - أبو بكر الصديق ، عمر بن الخطاب ، عثمان بن عفان ، علي بن أبي طالب ، عبد الرحمن بن عوف ، الزبير بن العوام ، طلحة بن عبيد الله ، سعد بن أبي وقاص ، سعيد بن زيد ، أبو عبيدة بن الجراح .

٢ - مصعب بن عمير .

٣ - نفس الترتيب .

إلى آخر هذه الأشياء الطيبة التي تربي العقل وتعدده وتفتح ذهنه للإكتساب ولإطلاع والمناقشة وغيرها .

### ثالثاً: إعداد الخطيب من الناحية الجسمية :

من الحكم الماثورة : العقل السليم فى الجسم السليم .  
و لابد للخطيب الداعية من جسم قوى يستطيع به أن يؤدى رسالة هذة  
قال ﷺ « المؤمن القوى خير و أحب إلى الله من المؤمن الضعيف » ، و اذا  
نظرنا إلى الأنبياء و المرسلين نجدهم جميعاً كانوا فى قوة جسمانية  
جعلتهم يواصلون تبليغ دعوة الله تعالى .  
و على سبيل المثال : رحلة النبى ﷺ من مكة إلى الطائف ، و المعارك  
الذى خاضها ، و مصارعته لركانة ... كل هذا و غيره كان يحتاج إلى  
جسم قوى .

كذلك سيدنا موسى عليه الصلاة و السلام و رحلته من مصر إلى مدين  
و من مدين إلى الطور ثم إلى مصر ثم رجوعه مرة أخرى ، مما جعل ابنة  
شعيب تقول لوالدها ( إن خير من استأجرت القوى الأمين ) ألا يحتاج هذا  
المجهود الجهار إلى جسم قوى ؟

و على هذا فالخطيب لا يستطيع أن يقوم بواجبه كاملاً فى مجال الدعوة  
و الإرشاد إلا إذا توفر له بجانب الصفات الإيمانية ، و العقلية ، و العلمية  
، و الخلقية . . . . صفات بدنية و مظهرية تجعل منه الشخص القوى فى  
جسمه اللائق فى بدنه ، القادر على تحمل مشاق العمل و متاعب التبليغ -  
و على احتمال التغيرات الطبيعية و الإجتماعية و على مواجهة الصعاب

و المشاكل و التحديات ، الحسن فى هيئته الكريم فى مظهره الجميل فى هندامه .  
لهذا يقول تعالى ﴿ وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ سورة البقرة : ١٩٥ .  
و يقول ﷺ « لا ضرر و لا ضرار » رواه أحمد و ابن ماجه .  
و يقول تعالى ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ سورة الأعراف : ٣٠ .  
و يقول ﷺ « تنظفوا فإن الإسلام نظيف » رواه ابن حبان إلى آخر هذا الحشد الكبير من آيات الله ، و سنة رسوله ﷺ الذى يسبق المقام عن ذكرها .  
و يكفى أن تلفت النظر إلى أن المربين الأوائل أمثال :  
الإمام السمعانى ، و الإمام الغزالى و غيرهما ، يعتبرون حسن الهيئة و المظهر ، صفة من الصفات المرغوبة فى المعلم المسلم ، و الخطيب - طبعاً - معلم .  
و لقد روى الإمام السمعانى عن مالك بن أنس رضي الله عنه : أنه قال : « إذا عرض عليه الموطن لبس ثيابه ، و أخذ ساجه و عمامته ، ثم أطرق و لا يتنحم و لا يعبس بشئ من لحيته حتى يفرغ من القراءة ، إعظاماً لحديث رسول الله ﷺ » .  
و مما يروى أيضاً عن مالك بن أنس أنه كان « إذا أراد أن يجلس

للحديث اغتسل و تبخر و تطيب ، فإن رفع أحد صوته فى مجلسه زجره  
و قال :

قال الله عز و جل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ  
النَّبِيِّ ﴾ فمن رفع صوته عند حديث رسول الله ﷺ فكانما رفع صوته فوق  
صوت رسول الله ﷺ .

و إتماماً للفائدة سنورد فيما يلى بعض الوصايا النبوية لتربية النشى فى  
هذا المجال :

- أوصى الرسول بتكبير الشباب للزواج إذا كان قادراً على ذلك  
قال ﷺ :

« يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض  
للبصر و أحسن للفرج ، و من لم يستطع ، فعليه بالصوم » رواه البخارى  
فى صحيحه ج ٧ ص ٣ .

و أوجب ﷺ على الآباء أن يجيبوا أولادهم أماكن الهوى و الفجور ، لأن  
فى ذلك ضياع صحتهم و هلاك أجسامهم .

قال ﷺ « ما نحن والد والدا أفضل من أدب حسن » .

- و لقد جاء فتى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا نبي الله أتأذن لى فى الزنا  
، فصاح الناس به ، فقال النبي ﷺ : قربهه ، إذن ، فدنا حتى جلس بين  
يديه ، فقال النبي ﷺ : « أتحبه لأمك » ؟ قال لا ، جعلنى الله فداك ، قال

« كذلك الناس لا يحبونه لامهاتهم » ... « أتعبه لابنتك ؟ » قال : لا  
« جعلني الله فداك . قال « كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم » .  
« أتعبه لاختك ؟ » قال و زادت بعض الروايات أنه ذكر العمه و الخالة  
و هو يقول فى كل واحدة : لا ، جعلني الله فداك ، فوضع الرسول ﷺ يده  
على صدره و قال ( اللهم طهر قلبه و اغفر ذنبه و حصن فرجه ) فلم يكن  
شئ أبغض إليه منه ، يعنى الزنا .  
و النبى ﷺ يأمر بتدريب الشباب رياضياً حتى ينشأوا أقوياء ، و حتى  
يستطيعوا بقوتهم الجسمانية مواجهة أعدائهم ، و السير فى مناكب الأرض  
طلباً لأرزاقهم .  
يقول ﷺ :  
« حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتاب - أى القرآن - و السباحة و ألا  
يرزقه إلا طيباً » .  
و خص السباحة بالذكر لأنها تنشط جميع الأعضاء ، و هى أيضاً من  
أهم ما يجب على الإنسان أن يتعلمه حتى يستطيع إنقاذ نفسه إذا ما  
تعرض لعواصف البحار و أخطارها .  
كما أوصى أيضاً بتدريب الشباب على الرمي .  
قال تعالى ﴿ وَ أَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِباطِ الخيلِ تُرهبُونَ بهِ  
عَدُوَّ اللهِ وَ عَدُوَّكُمْ ﴾ .

وقال ﷺ « ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي ... ألا إن القوة الرمي » .

وقال ﷺ « كل شئ ليس من ذكر الله فهو لهو أو سهو ، إلا أربع خصال : مشى الرسل بين العرضين ، وتأديبه فرسه وملاعبته أهله ، وتعليم السباحة » .

ويوصى النبي ﷺ بأن ينام الشباب وحدهم إذا بلغوا العاشرة فما فوق ، لقوله ﷺ : « ..... وأن يفرقوا بينهم في المضاجع » .

وهذا دليل على أن التربية النبوية تنشى إستقرار الشباب جسمانياً لكي لا يتحرك عن طريق الشهوات الهالكة القاتلة .

لم تقتصر التربية النبوية في تدريب الشباب على السباحة و الرمي فقط بل أوصت بالكثير من أنواع الرياضة كالمصارعة المعتدلة و الفروسية ، و العدو و أنواع الكرة إذا خلت من التعصب و ضياع الوقت ، و الرحلات الهادفة التي تضيف إلى الإنسان الكثير من المعلومات .

وكذلك الفتيات يمارسن الرياضة ولكن بشرط عدم ظهور العورة و لا يكون أمام الرجال .

و أعود مرة أخرى إلى وصية الرسول ﷺ بالأدب الحسن للشباب مبتعداً عن التبرج و لإختلاط و سفر المرأة وحدها ، و الخلوة بالأجنبية و عدم اللمس و كل ما يؤدي إلى الخنا و الفجور .

كما لا ننسى وصية الرسول ﷺ بالآ يرزق الإنسان أهله إلا طيباً سواء كان هذا الطيب من حلال أو كان هو في ذاته حلالاً .

#### رابعاً : إعداد الخطيب علمياً وثقافياً :

من الصفات الهامة للخطيب التي يجب أن يتحلى بها و تعمل على إعداده من خلالها ، أن يكون لديه القدر الكبير من العلم و الثقافة الواسعة التي تدعم رسالته و تكسبه وعياً بمشكلات مجتمعه ، و قضايا عصره . و بالواقع المحيط به من جميع نواحيه الجغرافية ، و التاريخية و الإجتماعية و الإقتصادية و السياسية .

إذ بقدر سعة ثقافته يكون نجاحه في تبليغ رسالة ربه ، و تأدية أمانته ، و يكون تأثيره فيمن حوله أمراً ملحوظاً فهو إذا ناقشهم أقنعهم و أثر فيهم بسعة ثقافته و وعيه و أجاب على أسئلتهم و على ما يشغل بالهم إجابته الواعى الواسع في علمه و إطلاعه ، و إذا تكلم في أمر من أمور الدين تكلم بلغة العصر الذي يعيشه .

و عن وعى بشمولية تعاليم الدين و مرونتها و قدرتها على الاستجابة لنقتضيات الزمان و المكان في كل عصر ، و عن وعى بالواقع الذي يعيش فيه و بمشكلات هذا الواقع .

طبعاً كل هذا في ضوء مصادر الإسلام الأصيلة التي لا يحيد عنها قدر أنملة .

من أجل هذا نادى المربون المسلمون و كذلك المحدثون الذين لم يألوا جهداً في الحث على طلب العلم و التوسع فيه على مدى الحياة .

و فى بيان أنجح الوسائل و الطرق لاستكمال التعليم و توسيع الوعى و الثقافة العامة .

قال تعالى ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿۱﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿۲﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿۳﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿۴﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿۵﴾ .

و قال ﴿ وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

و قال ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ .

و قال ﷺ « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة » أخرجه الترمذى .

و قال « العلم ثلاثة و ما سوى ذلك فضل : آية محكمة ، أو سنة قائمة أو فريضة عادلة » أخرجه أبو داود .

و قال « حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله و رسوله » أخرجه البخارى .

و قال عليه الصلاة و السلام « لن يضر الله إمراً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع » أخرجه الترمذى و أحمد و ابن حبان .

و يقول « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » رواه البخارى فى صحيحه .

و يقول ﷺ :



« لا حسد إلا في إثنتين : رجل أتاه الله ملاً فسلط على هلكته في الحق ، ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها » .  
ويقول عليه الصلاة والسلام : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله به طريقاً إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة و غشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة و ذكروهم الله فيمن عنده » .  
و كان [ يبين أهمية طريقة بث المعرفة فيقول عليه الصلاة والسلام « يسروا و لا تعسروا ، يشرروا و لا تنفروا » .  
و كان ﷺ يحث على إعطاء النفس من التعليم بقدر ما تتحمل خوفاً من الملل و السامة التي تؤدي عكس الرغبة في التعليم .  
و من ذلك : أن عبد الله كان يذكر الناس في كل يوم خميس ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن لو ددت أنك ذكرتنا في كل يوم . قال : أما أنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملككم و أني أتخولنا بها مخافة السامة علينا » .  
و كان ﷺ له طريقته المثلى في التعليم ، و ذلك أنه كان يلقي بالسؤال فينتبه الجميع و يفكرون فيه .  
و غالباً ما كانوا يجهلون فيجيب النبي ﷺ فتقع الإجابة في قلوبهم و لا ينسوها أبداً .

و من ذلك ما رواه الإمام البخارى فى صحيحه عن ابن عمر كما عرفنا سابقاً قصة النخلة .

و من طريقته ﷺ أنه كان يستعمل التكرار حتى لا تضيع على المستمع كلمة مما قال وحتى يفهم فى المرة الثانية من لم يكن قد فهم فى المرة الأولى ، و يفهم فى المرة الثالثة من لم يفهم فى المرة الثانية .

فعن أنس بن مالك فيما رواه البخارى عن النبى ﷺ أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه ، و إذا أتى على قوم فسلم عليهم ثلاثاً . و لقد بين النبى ﷺ أهمية حرص الأمة على العلم فى قوله : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد و لكن يقبض العلم بقبض حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا و أضلوا » . رواه البخارى .

هذا العلم النافع الذى يحرص النبى ﷺ على تعليمه للأمة خاصة الشباب لا يتلقاه الناس على طريقة سواء ، بل كل منهم على قدر ما وهبه الله من القدرة على التلقى و الحفظ و الفهم .

لهذا يقول ﷺ فيما رواه البخارى :

« مثل ما بعثنى به الله عز و جل من الهدى كمثل غيب أصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ و العشب الكثير ، و كان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها و سقوا

و رعوا ، و أصاب طائفة منها أخرى ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء و لا تنبت كلاً .

فذلك مثل من فقهه في دين الله و نفعه بما يعثني الله به ، فعلم و علم ، و مثل من لم يرفع بذلك رأساً و لم يقبل هدى الله الذي أرسلت به .  
و لقد بلغ من إهتمام النبي ﷺ بالعلم و تعليمه أنه اعتبر حفظ المسلم لبعض آي الذكر الحكيم مسوغاً للزواج ، كمثل من يمتلك ثروة مادية يمكن التعامل بها ، فقد أراد رجل أن يتزوج امرأة و لم يكن له شيء من مال ، فجا ، إلى النبي ﷺ فسأله :

ما ا معك من القرآن ؟ قال : معي سورة كذا و سورة كذا و عددها .  
فقل : تقرؤهن عن ظهر قلب ؟

قال : نعم ، قال : ملكتها بما معك من القرآن .  
و كان ﷺ يحرص الأمة - بما فيها الشباب - على التعليم ، فهذا هو أبو رفاعة قال :

اذ هيت إلى النبي ﷺ و هو يخطب ، فقال : فقلت : يا رسول الله : رجل غريب يسأل عن دينه لا يدري ما دينه .  
قل : فاقبل على رسول الله ﷺ و ترك خطبته حتى انتهى إلى فأتى بكرسي حيث قوائمه من حديد له .  
قل : فقدمه عليه رسول الله ﷺ و جعل يعلمني مما علمه الله ، ثم أتى خطب . فأتهم آخرها .

و لقد بلغ من حرص النبي ﷺ على تعليم الأمة أنه كان يتناول التعليم بأى وسيلة من الوسائل المختلفة كالقصة و المثل ..... إلخ .  
من هذا المنطلق يجب أن نعد الخطيب علمياً و ثقافياً على الأسس التالية :-

(أ) أن يحفظ كتاب الله تعالى ، و هذا يجعلنا نبدأ فى تحفيظه لهذه الفئة المؤمنة من الصبا ، حتى المرحلة العليا ، حينئذ من الممكن أن ييمه فعلاً طالب العلم ، أو على الأقل إذا اقتضت الضرورة أن يحفظ الآيات و النصوص التى يستشهد بها فى خطبة و دروسه .  
و كم سمعنا و قرأنا عن صبيان حفظوا كتاب الله تعالى قبل سن العاشرة .

و أنا أكتب هذا الموضوع وقع فى يدي آخر عدد من جريدة « المسلمون » جريدة المسلمين الدولية فى السنة الرابعة العدد ١٧٦ ) و فى الصفحة الأولى بخط واضح « الطفل الفقيه » عمره ٧ سنوات و يحفظ القرآن و موسوعة السنة النبوية ، جدل علمى مثير حول إمكانية إلحاق الطفل بالجامعة مباشرة .

قرر شيخ الأزهر عقد لجنة لمناقشة الطفل الفقيه و اختباره فى القرآن الكريم و الفقه و أصوله و العبادات و الأحاديث تكونت اللجنة برئاسة مدير عام المعاهد الأزهرية و من موجهى المواد الأساسية و بعض أساتذة جامعة

الأزهر كما حضر المناقشة شيخ الأزهر بنفسه ، توالى الأسئلة من المتشابهات فى القرآن و أحكام التلاوة و الطفل يجيب بدقة .  
انتهت المناقشة بعد أن تصيب المناقشون عرقاً بينما ابتسم الطفل الضرير الذى لم ير وجوههم .  
قرار أعضاء اللجنة إلحاق الطفل بالصف الأول الإعدادى مباشرة و ابتداء من العام القادم .  
لقد بكى المسنول الكبير و هو يصافح الطفل الكفيف ، كما قرر محافظ أسوان بمصر منحه شقة تملك على أن تتولى المحافظة الإنفاق عليه فى مراحل التعليم المختلفة .  
و التقى محرر « المسلمون » مع الطفل الفقيه و أجرى معه تحقيقاً واسعاً مكتوباً و مصوراً .  
و مع حفظ القرآن يجب أن يدرس الطالب شيئاً من علومه خاصة التفسير الذى عن طريقه يفهم كتاب الله و يتحرى فى أثناء ذلك البعد عن الأمور الآتية :

- ١ - الإسرائيليات التى تشوه الإسلام .
- ٢ - الروايات الضعيفة و ما لا يوثق بها .
- ٣ - الخلافات التى لا طائل تحتها .

و لحكم و المتشابه ، و المطلق و المقيد ، إلى غير ذلك من علوم القرآن

الكريم ، و من الكتب النافعة في هذا المقام ما يلي :

- النبأ العظيم : للدكتور محمد عبد الله دراز .
  - مناهل العرفان : للشيخ الزرقاني .
  - تفسير ابن كثير .
  - في ظلال القرآن الكريم .
  - مباحث في علوم القرآن : للدكتور صبحي الصالح .
  - مباحث في علوم القرآن : للأستاذ / مناع القطان .
- و ما دمنا نتحدث عن أهم مصادر و مراجع الخطيب و في مقدمتها كتاب الله تعالى يقتضينا المقام أن نقف - قليلاً - أمام هذا المصدر الأهم لتتعرف على عظمته و إعجازه .
- القرآن الكريم هو :

كلام الله تعالى الذي نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ لينقذ البشرية من الظلمات إلى النور و من الضلالة إلى الهدى و من الغي إلى الرشاد و من الظلم إلى العدل .

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ سورة المائدة : ١٥ - ١٦ .

و لعظم هذا القرآن أنزله المولى على رسوله ﷺ في أعظم ليلة خلقها

البارى سبحانه ، ألا و هى : ليلة القدر المباركة فقال تعالى :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ سورة القدر .

و أنزله أيضاً فى أعظم شهر ألا و هو ( شهر رمضان المعظم ) ﴿ شهر رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ .  
على قلب أفضل نبي ورسول : ألا و هو :

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عليه الصلاة و السلام .

و القرآن معجزة الإسلام الخالدة ، ﴿ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَن يَأْتِرَا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ سورة الإسراء : آية ٨٨ .

و عجاز القرآن الكريم فى كل وجه من الوجوه المختلفة .

منها : فصاحة ألفاظه ، و بلاغة أساليبه ﴿ أَلَمْ يَكُنْ أَهْلَ عِلْمٍ تَمَدُّنًا ﴾ سورة هود آية : ١ .  
و منها : اتساق آياته على كثرتها ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ سورة النساء : ٨٢ .

و منها : أنه أخبر بوقائع ماضية ، و وقائع مستقبلية ، و تحقيق ذلك : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾

فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿ سورة هود : ٤٩ .

ومنها : أنه يؤثر في النفوس ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ سورة الزمر آية : ٢٣ .

ولأهمية القرآن الكريم أعلن النبي ﷺ قوله فيما رواه الترمذى عن على رضي الله عنه قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، فقلت : وما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله .

فيه نبي ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حيل الله المتين وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه .

وهو الذي لم تنته الجن إذا سمعته أن قالوا :

﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا \* يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ﴾ من قال به صدق ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم .



و لم يستطع العرب - رغم قوة معارضتهم - أن يستروا أحاسيسهم فقد  
سمع الوليد بن المغيرة يوماً القرآن ، فأعجب به أشد الإعجاب و أعلنها  
صريحه مدويه لأبى جهل حينما ناقشه حول القرآن :

( ماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ، و لا برجزه ، و لا  
بقصيدة و لا بأشعار الجن ، و الله ما يشبه الذى تقول - يعنى القرآن -  
شيئاً من هذا ، و والله إن لقوله الذى يقول لحلاوة ، و إن عليه لطلاوة ، و أنه  
مثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، و إنه ليعلوا و لا يعلى عليه ، و إنه ليحطم  
ما تحته ) .

و فضل القرآن الكريم ليس على العرب وحدهم ، فإن العالم أجمع جنى  
أكرم الثمرات من هذا الكتاب العظيم ، ذلك أن تعاليمه أعادت بناء الإنسانية  
من جديد ، و أزال ما خلفته القرون الأولى من عوج فى عقلها و فؤادها .  
و الوجهة التى انساق إليها العالم من ظهر القرآن هى التى أنشأت  
المنطق الحديث ، و حررت أساليب المعرفة ، و أمكنت من السيطرة  
على الكون .

و لا ما شرع القرآن من طرق النظر الصحيح و العمل الطيب ، لظل  
العالم يتدحرج مع خرافات الرومان و الفرس حتى يبلغ الحضيض .  
و كن الله برحمته و بره أنقذ البشرية من هذا المصير المظلم ، و ذلك  
بنزول القرآن على قلب النبى ﷺ .

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّٰهِ هِيَ أَقْرَبُ وَيَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (١) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿ سورة الإسراء آية : ٩ - ١٠ .

﴿ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ (٢) قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيَشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٣﴾ مَا كُنِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٤﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٥﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿ سورة الكهف : ١ - ٥ .

و لقد أوصى الله تعالى بتلاوة كلامه ، و العمل به ، و تطبيق أحكامه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ (٢٥) لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿ سورة فاطر : ٢٩ - ٣٠ .

كما أوصى بذلك النبي ﷺ فيما روى عن عبد الله ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ ، من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، و الحسننة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، و لكن ألف حرف ، و لام حرف ، و ميم حرف « .

لقد تلقى أصحاب النبي ﷺ هذا القرآن بشغف شديد حتى كانت له ثمرة فى حياتهم ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَىٰ

نَحْبُهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿سورة الأحزاب : ٢٣﴾ .

و من الرجال الذين صنعهم القرآن الكريم و أصبحوا سادة بعد أن كانوا عبيدا : بلال بن رباح ، و خباب بن الارت ، و صهيب الرومى ، و سلمان الفارسى . . . هذا عن الكثير من سادة العرب الذين صنعهم القرآن لتحمل المسؤولية .

و على سبيل المثال لا على سبيل الحصر فيما قاله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشِرْكَ الْكُفْرِ أَضْغَانًا فَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيهِمْ كَمَا يُبْتَلُونَ النَّاسَ بِأَمْوَالِهِمْ وَالنَّفْسِ بِذَنبِهِمْ لَعَلَّ هُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢) وَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿سورة

العنكبوت : ١ - ٢ .

عن الشعبي قال « دخل خباب بن الارت على عمر بن الخطاب فأجلسه على متكئه و قال : ما على الأرض أحد بهذا المجلس من هذا الأرجل واحد ، قال له خباب : من هو يا أمير المؤمنين ؟

قال بلال ، فقال له خباب : يا أمير المؤمنين ما هو بأحق منى ، إن بلالاً كان له فى المشركين من يمنعه الله به و لم يكن لى أحد يصنعنى .

فلقد رايتنى يوماً أخذونى و اوقدوا لى ناراً ثم سلقونى فيها ثم وضع رجله على صدرى فما اتقيت الأرض إلا بظهرى ، قال : ثم كشف عن ظهره فإذا هو قد برص .

و لقد بلغ من صنع القرآن لهم أن وصلوا إلى درجة الإيثار ﴿وَالَّذِينَ

تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِيبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ  
حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴿ سورة

الحشر : ٩

و لقد قال النبي ﷺ فيما رواه أبو موسى الأشعري « إن الأشعريين إذا  
أرملوا في الغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب  
واحد ثم اقتسموا بينهم في إنائٍ واحد فهم مني و أنا منهم » .

و لكن خلف من بعدهم خلف انحرفوا عن كتاب الله ، و سنة رسوله  
فتعرضوا بذلك للضياع و الشقاء و الدمار .

و صدق الله العظيم إذ يقول ﴿ فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا  
يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ  
كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمِ تَنْسَىٰ (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ  
وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿

سورة طه ( ١٢٣ - ١٢٧ ) .

و لهذا قال الإمام القرطبي : ضمن الله لمن قرأ القرآن ، و عمل بما فيه  
ألا يضل في الدنيا و لا يشقى في الآخرة - و تلا الآية .

و قال تعالى أيضاً ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ  
لِيَذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿ سورة الروم : ٤١ .

يقول الإمام ابن كثير : أى أن النقص فى الزروع و الثمار بسبب المعاصى ، و قال أبو العالية : من عصى الله فى الأرض فقد أفسد فى الأرض لأن صلاح الأرض و السماء بالطاعة و لقد جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود :

« لَجَدُّ يَقَامُ فِي الْأَرْضِ أَحَبُّ إِلَى أَهْلِهَا مِنْ أَنْ يَنْظُرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحاً ، وَ السَّبَبُ فِي هَذَا أَنَّ الْحُدُودَ إِذَا أُقِيمَتْ انْزَجَرَ النَّاسُ أَوْ أَكْثَرَهُمْ أَوْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَنِ تَعَاطِي الْمَحْرَمَاتِ وَ إِذَا تَرَكْتَ الْمَعَاصِيَ كَانَتْ سَبَباً فِي حَصُولِ الْبَرَكَاتِ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ .

و لهذا ثبت فى الصحيحين قوله ﷺ ( إن الفاجر إذا مات يستريح منه العباد و البلاد و الشجر و الدواب ) .

و لا عجب فى ذلك ، فقد قال تعالى فى محكم تنزيله ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ لَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ الاعراف : ٩٦ .

و على هذا ، فإذا أراد المسلمون خاصة و الناس عامة أن يعيشوا فى أمن و سلامخ و عزة و كرامة ، و سعادة فعليهم بالرجوع فوراً إلى كتاب الله و سنة ورسوله عليه الصلاة و السلام .

قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُوْئِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ

الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٩﴾ سورة النساء : ٩ .

قال الإمام ابن كثير فى تفسيره لقوله تعالى ﴿ فَبِأَن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ قال مجاهد وغير واحد من السلف : أى إلى كتاب الله وسنة رسوله ، وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شئ تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يُرد التنازع فى ذلك إلى الكتاب والسنة كما قال تعالى ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ .

أى ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ .

فدل ذلك على أن من لم يتحاكم فى محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما فى ذلك فليس بمؤمن بالله ولا باليوم الآخر .

وقوله تعالى ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أى التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله والرجوع إليهما فى فصل النزاع خير وأحسن تأويلاً ، أى أحسن عاقبة ومالاً .

وما دمتنا قد ذكرنا السنة مع الكتاب فلا بد من التعريف بها ، خاصة وأنها مصدر ومرجع للخطيب الداعية يجب أن يلم بها على القدر المستطاع حتى لا يعرض نفسه للأقوال المكذوبة على رسول الله ﷺ .

#### ب - السنة النبوية وأهميتها فى إعداد الخطيب الداعية :

السيرة والسنة الشريفة وضرورة إهتمام الخطيب الداعية بدراستها

و التحقق من صحة نسبتها للنبي - ﷺ - قبل إعلانها على الناس ، أمر لا غنى عنه اليته للخطيب الداعية .

فالسنة مصدر من مصادر الخطيب الداعية ، يجب أن يلم بها على قدر المستطاع و حتى تعرف بأهمية السنة للخطيب الداعية نذكر ما يلي :

إن إهتمام الصحابة و التابعين ، بالسنة النبوية الشريفة لا يقل عن إهتمامهم بالقرآن الكريم ، ذلك لأن السنة هي المصدر الثاني لشريعة الإسلام .

و على هذا كان الهجوم على السنة من المستشرقين و المبشرين و غيرهم من أعداء الإسلام لا يقل خطراً عن الهجوم على القرآن الكريم .

إذا كان الأمر كذلك فلا بد من معرفة شئ من تاريخ السنة ليتبين لنا قيمة الإهتمام بها و الحفاظ عليها من الصحابة و التابعين و غيرهم .

#### **التعريف بالسنة :**

عرفها العلماء المهتمين بهذا الفن بأنها ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة أو نحو ذلك مما يتصل بهداية الناس إلى ما فيه سعادتهم في الدارين .

و مثل هذا أو قريب منه : الحديث ، و الخبر ، و الأثر .. و السنة أعم ، قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

وقال ﷺ « نضر الله وجه إمرئٍ سمع مقالتي فحفظها ووعاها فأداها  
كما سمعها قرب مبلغ أوعى من سامع » .

وقال أيضاً « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله  
وسنتي » .

وقال « ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان متكئ  
على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه و ما  
وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا وإن ما حرم رسول الله كما حرم  
الله .. » .

#### وقال بعض العلماء :

حدث وشنف بالحديث مسامعي . . . . . فحديث من أهواه حل مسامعي  
لله ما أحلى مكروه السذى . . . . . يحلو و يَعدُّبُ في مذاق السامع  
بسماعه تلت الذى أملتته . . . . . وبلغت كل مطالبى و مسامعى  
وقد بنت السنة النبوية كيف كان الرسول الأمين يعلم الأمة و يربيههم على  
نهج سليم و تربية فريدة ...

أتى إليه يوماً فتى من قريش قائلاً له :

يا رسول الله اتئذنى لى فى الزنا ، فأقبل القوم عليه و زجروه ، فقالوا :  
مه مه ، فقال : أدنه ، فدنا منه قريباً ... فقال « أتحيه لأمك ؟ »  
قال : لا و الله جعلنى الله فداك ، قال : و لا الناس يحبونه لأمهاتهم قال :



أفتحبه لابنتك؟ قال : لا والله يا رسول الله ، جعلني الله فداك .  
قال : ولا الناس يحبونه لبناتهم ، ثم ذكر له رسول الله أخته وعمته  
وخالته ، وفي كل ذلك يقول مقالته : لا والله يا رسول الله جعلني  
الله فداك .

قال : فوضع يده عليه وقال : اللهم اغفر ذنبي وطهر قلبه ، وحسن  
فرجه .

قال الراوي : فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء .  
قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : كنت أنا و جاري من الأنصار في  
بني أمية بن زيد ، وهي من عوالي المدينة ، وكنا نتناوب النزول على رسول  
الله .. ينزل يوماً و أنزل يوماً ، فإذا جئته بخير ذلك اليوم من الوحي  
و غيره .  
و إذا نزل فعل مثل ذلك . فكان الواحد منهم يثق في أخيه و لا يكذبه و لا  
يدرون ما الكذب .

و هكذا حتى لقي الرسول ربه ، و القرآن قد ثبت في الصدور و السطور .  
أما السنة فقد ثبتت في الصدور لنهي النبي ﷺ عن كتابتها في أول الأمر  
خوفاً من الإلتباس بالقرآن الكريم ، مثل قوله ﷺ « لا تكتبوا عني شيئاً إلا  
القرآن و من كتب شيئاً فليمححه » اللهم إلا القليل بالنسبة لما قاله النبي ﷺ  
مثل ما حدث لأبي شاة اليمنى ، و قول الرسول ﷺ في شأنه « اكتبوا  
لأبي شاة » .

و ما كان من أمر الرجل الأنصارى الذى كان يجلس إلى رسول الله ﷺ  
فيسمع منه الحديث فيعجبه و لا يحفظه فنشكا ذلك إلى الرسول ... فقال  
« استعن بيمينك و أوماً بيده إلى الخط » .

وهكذا أخذت السنة تكثر كتابتها خاصة فى أواخر البعثة النبوية و بعد  
وفاة الرسول عليه الصلاة و السلام وقعت أحداث جسام فى الأمة الإسلامية  
مثل جروب الردة ، و مقتل سيدنا عثمان ، و معركة الجسل وصفين  
، و ظهور الخوارج و الشيعة ... إلخ .  
مما نتج عنه ظهور الوضاعين فى السنة المطهرة .

**يقول الدكتور السباعي :** كانت سنة أربعين من الهجرة هى الحد الفاصل  
بين صفاء السنة و خلوصها من الكذب و الوضع ، و بين الإضافة و التزويد  
فيها و اتخاذها وسيلة لخدمة الأغراض السياسية و الإنقسامات الداخلية  
بعد أن اتخذ الخلاف بين سيدنا على و معاوية رضى الله عنهما شكلاً حربياً  
سالت به دماء و أرهقت منه أرواح و بعد أن انقسم المسلمون إلى طوائف  
متعددة ، إلى آخر ما قال مبيناً الأمور التى أدت إلى الوضع فى السنة مثل  
: الخلافات السياسية و الخلافات الفقهية و الكلامية ، و الجهل بالدين مع  
الرغبة فى الخير ، و التقرب للملوك و الأمراء بما يوافق أهواءهم ، و ليس  
هذا فحسب بل إن تساهل حكام المسلمين مع الوضاعين فى السنة شجعهم  
على المضى فى تضليل المسلمين ، و خلطهم الصدق بالكذب تعالى الله عما

يقولون علواً كبيراً ، و تنزه رسوله - ﷺ - عن إفكهم و ضلالتهم .  
أما عن حركة الوضع و أثرها السيئ في المجتمع الإسلامي و ما يتصل  
بذلك فليس هنا مجاله ، المهم أن العلماء المخلصين قصدوا و نهضوا للدفاع  
عن السنة المطهرة و تنقيتها من الشوائب التي لحقت بها مما جعلهم  
يتشددون في أخذ الحديث ، و يظهر هذا من قول ابن سيرين :  
لم يكونوا يسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة قالوا : سموا لنا رجالكم  
، فيُنظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم و يُنظر إلى أهل البدعة فلا يؤخذ  
حديثهم إلى آخر ما قيل في ذلك مما هو مبسوط في موضعه .  
هذه السنة النبوية الشريفة التي تحدثنا عنها يجب اتباعها و ذلك بالأدلة  
القرآنية و الأحاديث النبوية فيما يلي :

#### **أدلة القرآن الكريم على وجوب التزامها :**

- (أ) قال تعالى ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ .  
(ب) و قال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا  
أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ شَغَلَ ضَلَالًا  
مُبِينًا ﴾ .  
(ج) و قال تعالى ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ  
لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ .  
(د) و قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي

الْأَمْرُ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ  
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿..... الخ .

و فضلاً عن أدلة القرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة على وجوب العمل  
بالسنة ، فهناك الكثير من أدلة الفقهاء الدالة على ذلك أيضاً .

و من أمثلة ذلك : ما ذكره الإمام الشافعى فى كتابه « الرسالة » .

يقول الإمام الشافعى رحمته الله : قال تبارك و تعالى ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى  
الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾

و قال ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾

و قال ﴿ وَآتُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾

ثم بين على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم عدد ما فرض من الصلوات و مواقيتها  
، و سننها و عدد ركعاتها و الزكاة و مواقيتها و كيفية غسل الحج و العمرة  
و حيث يزول هذا و يثبت و تختلف سنته و تتفق و لهذه أشياء كثيرة فى  
القرآن و السنة .

و قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبين كيفية الصلاة بقوله و عمله ، كان يبين  
أوقاتها و أركانها و عدد ركعاتها و افتتاحها و ترتيب حركاتها بعد الإفتتاح  
، و يقول صلى الله عليه وسلم « صلوا كما رأيتمونى أصلى » .

و يبين أيضاً صلى الله عليه وسلم مناسك الحج : أركانه و واجباته و سنته و يقول « خذوا  
عنى مناسككم » .

إلى غير ذلك من الأمور التي تحتاج إلى بيان من النبي ﷺ .

### **(ج) السيرة النبوية الشريفة . و أهميتها في إعداد الداعية علمياً:**

من مصادر الخطيب التي يجب أن يرجع إليها : السيرة النبوية و منها يعرف كيفية الدعوة إلى الله تعالى ، و يأخذ الكثير من العبر و العظات في كثير من نواحي الحياة ، و من الكتب النافعة في ذلك :

سيرة ابن هشام ، و الطبقات الكبرى لابن سعد ، و دلائل النبوة للبيهقي و الشمائل المحمدية للترمذي و محمد رسول الله للشيخ صادق عرجون ، و فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ، و مثله لمحمد سعيد الیوطبی ، و المنهج الحركی للسيرة النبوية لمنیر محمد الغضیان .

### **(د) الدراسات الفقهية و أهميتها في إعداد الداعية علمياً:**

من المصادر التي يحتاج إليها الخطيب « الفقه » سواء كان في جانب العبادات أو المعاملات . و يستحسن إذا كان سيؤدی رسالته في منطقة تلتزم بمذهب معين كالمذهب الحنفي - مثلاً - فيجب عليه أن يدرس كتاباً في هذا المذهب و هكذا .

أما إذا كان يعمل في منطقة لا تلتزم بمذهب معين ، فعليه أن يدرس - مثلاً - كتاباً مثل : فقه السنة للشيخ السيد سابق ، أو بداية المجتهد لابن رشد ... و إن كان في منطقة خليط ، فعليه أن يدرس كتاب « الفقه على المذاهب الأربعة » للشيخ الجزيري .

## (هـ) دراسة اللغة العربية و آدابها و أهميتها فى إعداد الداعية

### الخطيب علمياً:

من مصادر الخطيب أن يعنى بدراسة اللغة العربية و آدابها ذلك لأن الخطيب الذى لا يحس النطق ، يكثر من الخطأ فى اللغة العربية . ينصب الفاعل و يرفع المفعول و هكذا ...

فإن موقفه من الناس خاصة أهل الثقافة - يكون سيئاً .

و علاج ذلك : دراسة بعض كتب النحو و الصرف ، و البلاغة و الأدب مثل كتاب : ابن عقيل ، و شذور الذهب و قطر الندى و ويل الصدى ، و المنهاج لحامد عونى فى البلاغة ، و العقد الفريد لابن عبد ربه ، و الرسالة للزيات مع ادمان القرزعة ، و التدريب على الكلام ...

### (و) العلوم الإنسانية مثل : المنطق و الفلسفة و علم الإجتماع و علم

النفس و الإعلام و وسائله ، و آيات الله الكونية و الإنسانية .

و يجب أن تكون لديه فكرة و لو بسيطة عن هذه الموضوعات حتى يستطيع الرد على أعداء الإسلام و رسوله .

و الكتب فى هذا المجال كثيرة يضيق المقام عن ذكرها مثل :

الإسلام فى عصر العلم للدكتور / محمد أحمد الغمراوى و تفسير الرازى و تفسير طنطاوى جوهرى ، و واقعنا المعاصر للأستاذ / محمد قطب ... إلخ .

### (ز) الإسلام و التيارات المعاصرة :

من المصادر التي لا يستغنى عنها الخطيب و نمرته عليها و نشغله بدراستها على فترات من الزمان ما يتصل بموضوع ( الإسلام و التيارات المعاصرة ) و هذا موضوع من أخطر الموضوعات لأنه يتصل بالعقيدة الأساسية للإنسان فإن كانت صلبة نجح في دعوته و إلا أفسد أكثر مما يصلح .

و التيارات التي يجب أن يتعرف عليها كثيرة ، مثل :

اليهودية و النصرانية و الشيوعية و الوجودية و اليودية و الزرادشتية و الماسونية إلى آخر هذه التيارات التي أصبحت الآن تملأ الساحة الإسلامية .

و المؤلفات التي كتبت بأقلام علماء الإسلام الأقدان في هذا المجال كثيرة

لا مجال لذكرها هنا .

### خامساً: إعداده روحياً و أخلاقياً:

و من الأسس التي لا بد أن يربى عليها « الخطيب الداعية » إعداده من الناحية الروحية و الأخلاقية .

ذلك لأن الإنسان مهما كان قوياً في جسمه و عقله و علمه و ثقافته لكنه فقير من ناحية روحه ، و أخلاقه سرعان ما ينحدرز .

و إعداد الخطيب ... من هذه الناحية يتلخص فيما يلي :

(١) أن يكون ذا كراماً لله دائماً و أبداً .

يقول الله تعالى ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ ﴿ إِذْ كُرُوا بِذِكْرِهِمْ وَ أَشْكُرُوا لِي وَ لَأَ تَكْفُرُونَ ﴾ ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ، الَّذِي خَلَقَ فَسَوَى ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ ﴿١﴾ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نَصَفَهُ أَوْ انْقَصَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَ رَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَ تَسَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَ الرَّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَ لَا تَمُنَّ بِتَسْكَثِرٍ ﴿٦﴾ وَ لِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ .

و عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله « كل سلامى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس ، قال : يا رسول الله : من أين لنا صدقة نتصدق بها ؟

قال : إن الأبواب الخير كثيرة .

التسبيح و التكبير و التهليل صدقة .



و تميط الأذى عن الطريق صدقة .  
و تسمع الأصم و تهدى الأعمى .  
و تدل المستدل على حاجته .  
و تسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث .  
و تحمل بشدة ساعديك مع الضعيف .  
فهذا كله صدقة منك على نفسك .

## 2- أن يكون جسر الخلق :

قال تعالى لرسوله و مصطفاه ﴿و إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿رَدِّعْ بَأْتِي  
هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾  
و قال ﷺ « أكمل المؤمنين إيماناً أحاسنهم أخلاقاً » .

## 3- أن يجبر على أداء رسالته :

قال تعالى ﴿و إِصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾  
قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَحْكِي  
نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَ سَلَامُهُ عَلَيْهِمْ ضَرْبَهُ قَوْمَهُ فَأُدْمُوهُ وَ هُوَ يَمْسَحُ  
الِدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَ يَقُولُ ( اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

## 4- أن يكون حياً فهو حياته كما قال رسول الله ﷺ :

( ا حياء و الإيمان قرناء جميعاً فإذا رفع أحدهما رفع الآخر ) .  
لا ينزع المسلم أن يقول حقاً أو ياتمر بما أمر الله و ينتهي عما  
نهى الله عنه .

و من ذلك : أن أسامة بن يزيد - حب رسول الله و ابن حبه - جاء إلى النبي ﷺ يشفع في المرأة المخزومية فلم يمنع الحياء رسول الله ﷺ أن يقول لأسامة في غضب :

« أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة ؟ و الله لو سرق فتلافة لقطعت يدها » .

#### 5- 6 أتم بخلق الرحمة :

قال تعالى ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ سورة التوبة .

و قال ﷺ « مثل المؤمنین فی توادهم و تراحمهم و معاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر و الحمى » رواه مسلم

#### 6 - 6 أتم بخلق الإيثار و حب الخير :

قال تعالى ﴿ وَ يُؤْتِرُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَ مَن يُوقِ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ سورة الحشر .

و هذا هو سعد بن الربيع الصحابي الأنصاري يطبق هذا الإيثار على نفسه ، فيعرض على أخيه عبد الرحمن بن عوف الصحابي المهاجري زوجته ، و ماله ليأخذ نصف المال ، و يختار إحدى الزوجتين فيرفض عبد الرحمن بن عوف داعياً له و قال : دلني على سوق المدينة ..

7- **أَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ ...**

قال تعالى ﴿ وَ عَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ سورة المائدة .  
وقال ﷺ « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً و تروح بطاناً » رواه الترمذى و حسنه .

8- **أَنْ يَكُونَ مُتَوَاجِعاً لِأَمْثَلِ النَّاسِ :**

قال تعالى ﴿ وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ سورة الشعراء .

وقال ﷺ « إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد و لا يبغى أحد على أحد » رواه مسلم .

9- **أَنْ يَتَّجِعَ بِصِفَةِ السَّخَاءِ وَ الْكِبَرِ :**

قال تعالى ﴿ وَ مَا تَنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفِّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تظَلِمُونَ ﴾ سورة البقرة .

وقال ﷺ « اتقوا النار و لو بشق تمره » رواه البخارى .

10- **أَنْ يَكُونَ مُحْسِناً فِي قَوْلِهِ وَ عَمَلِهِ :**

قال تعالى ﴿ وَ أَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ سورة البقرة .  
وقال ﷺ « إن الله كتب الإحسان على كل شئ فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة و إذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة و ليحد أحدكم شفرته و ليرح ذبيحته » رواه مسلم .

11- أَوْ يَحْرِصُ عَلَى خَلْقِ الْعَدَلِ سِوَاكَ بِكُلِّ مَلْعُونٍ أَوْ نَجَسٍ :

قال تعالى ﴿وَإِسْطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ سورة الممتحنة .  
وقال ﷺ « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وساب نشأ في عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجلا دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من الدمع »  
رواه البخارى .

12- أَوْ يَتَخَلَّقُ بِخَلْقِ الْجَلْمِ :

قال تعالى ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَنِفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ سورة آل عمران .

ولقد حدث أن أعرابياً بال في المسجد « فقال الناس : ليقعوا فيه ، فقال النبي ﷺ : دعوة ، و اريقوا على بوله سجلا من ماء أو ذنوباً من ماء ، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين » رواه البخارى .

13- أَوْ يَكُونُ مُخْلِصاً فِي قَوْلِهِ وَعَمَلِهِ :

قال تعالى ﴿وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ سورة البينة : هـ .  
وقال ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت

هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله و من كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه « متفق عليه .  
و هناك الكثير والكثير من الصفات الروحية و الأخلاقية التي يجب على الخطيب الداعية أن يتحلى بها و يعد على أساسها مثل :  
التوبة و الصدق و التعاون على البر و التقوى ، و ستر العورات و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، و الإصلاح بين الناس ..  
و التي لا تخرج بمشيئة الله عز و جل عما ذكرناه ، و يكفي لكل هذا و غيره ما قاله الحق تبارك و تعالى في سورة الأعراف ﴿ خذ العفو و أمر بالعرف و أعرض عن الجاهلین ﴾ .  
14 - أن يكون رابط الجاش متمكناً من أداء رسالته مهما اعترض عليه  
المعتريون و قاطعه الجمهور سواء كان هذا بحق أو بباطل :

خطب النبي ﷺ يوماً فقال :  
« إن الله كتب عليكم الحج فحجوا ، فقام رجل فقال : أكل عام يا رسول الله ؟  
و القصة في كتب التفسير عند قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تُسْأَلُوا ﴾ .  
و هناك الكثير من المواقف الخطابية التي حدثت فيها المقاطعة رويت في كتب التاريخ الإسلامي و الأدب العربي .

### ملاحظات يجب ان تنبه عليها:

- ١ - فى إعدادنا للخطيب الداعية ليس معناه أن نربى جسمه حتى يقوى ثم بعد ذلك تقوى عقله و هكذا ، و لكن تكون التربية و يكون الإعداد . من جميع هذه النواحي المتعددة حتى نصل بذلك إلى إعداد الخطيب النموذجى الذى ينجح بتوفيق الله تعالى - فى تبليغ رسالته .
- ٢ - قد يعترى الخطيب بعض الأشياء التى تعوق عليه أمره ، و هى غالباً ما تكون خارجة عن إرادته و ذلك كالعى و الحصر . . . و هو :  
العجز عن الإتيان بالخطبة كما ينبغى أو يضيق صدره بالكلام ، و أيضاً :  
الرعشة ، و الرعدة ، و ضيق مخارج الصوت و دقته .  
و الخطيب حينما يصاب بشئ من ذلك عليه أن يتصرف فى مواقفه حتى لا يكون عرضة للسخرية و الضحك عليه من الجمهور .  
و سنذكر فيما يلى بعض المواقف من مشاهير الخطباء و كيف تصرفوا أمامها مما جعلهم عظماء فى أعين الناس .

#### (١) عبد الله بن عامر :

هو عبد الله بن عامر بن كريز ، و ابن خال عثمان بن عفان ، أحضر إلى رسول الله ﷺ وليداً ، فقال : هذا شبهنا و عوذه فابتلع ريق رسول الله ﷺ كان عبد الله شجاعاً ميموناً جواداً ، و لاه عثمان بن هفان البصرة عام ٢٩ هـ ، و كافح حتى مات عام ٥٩ هـ ، وقف يخطب يوم عيد الضحية

، فارتج عليه فمكث ساعة لا يتكلم ثم قال : لا أجمع عليكم عيا ولؤما ، من أخذ شاة من السوق فأ له و ثمنها على .

وبهذه الطريقة استطاع هذا الخطيب أن يفلت من الحرج .

#### (ب) عثمان بن عفان :

حينما تولى ثالث الخلفاء الراشدين أمر الخلافة وبدأ يخطب إرتج عليه فقال « أيها الناس إن أول كل مركب صعب ، وإن أعش تأتكم الخطب على وجهها . و سيجعل الله بعد عسراً يسراً إن شاء الله » .

من هذه الكلمات القليلة تعلم منها كيف كان اعتذار الخليفة و خروجه من المأزق الذى وضع فيه ، و بالطبع كان يخطب قبل ذلك و لكن شتان ما بين الخطابة قبل الخلافة و بعدها .

#### (ج) مقاطعة الخطيب :

ذكرنا فيما سبق أن يكون الخطيب ثابتاً فى خطابته متمكناً من أدائه ، و الأمثلة كثيرة نذكر منها :

كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخطب و إذا برجل يعترض عليه هو فوق المنبر ، لأنه كان يلبس قميصين و قد أعطى كلا من الآخرين تميصاً واحداً ، فلما تبين له أن ابنه عبد الله أعطاه قميصه ، قال المعترض الآن قل نسمع .

و خاطر - أى راهن - رجل أن يقوم إلى عمرو بن العاص و هو فى

الخطبه فيسأله عن أمه ، فقام إليه و قال : أيها الأمير من أمك ؟  
ففطن عمرو إلى أنها مراهنه ، فقال له : هي النابغة بنت عبد الله  
أصابتها رماح العرّب فبيعت بعكاظ ، اشتراها عبد الله بن جدعان فوه بها  
للعاص بن وائل ، فولدت فأنجبت فإن كانوا جعلوا لك شيئاً فخذ .  
وبهذه الطريقة الصراحة استطاع عمرو بن العاص أن يفلت من الحرج  
الذي سببه له هذا المعترض .

إلى آخر هذا الجانب الكبير الذي يضيق المقام عن ذكره .

### ٣ - ما يطلب من الخطيب الداعية جملة :

١ - أن يكون غالباً بما يقول فاهماً له على الوجه الصحيح ، لأن الجاهل  
يفسد أكثر مما يصلح ، قال تعالى ﴿ وَ لَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتِكُمُ الْكُذِبَ  
هَذَا حَلَالٌ وَ هَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ تَا  
يَفْلِحُونَ ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

و قال الحسن البصرى : العامل على غير علم كالسائر على غير طريق  
، و العامل على غير علم يفسد أكثر مما يصلح .

٢ - أن يكون عاملاً بعلمه : و هذه ناحية هامة لا ينبغي للخطيب الداعية  
أن يغفل عنها ، فكم من علماء جهابذة فى العلم لا ينتفع - غالباً - بحديثهم  
لأنهم فى ناحية و علمهم و حديثهم فى ناحية أخرى مما يكون عقبة فى  
سبيل الإصلاح .



و هيهات أن ينتفع بعلمهم ، فإنهم قد فقدوا الرشد في أنفسهم ، فكيف يرشدون غيرهم .

قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

و عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« رأيت ليلة أسرى بي رجلاً تقرض شفاههم بمقاريض من النار ، فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ »

فقال : الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر و ينسون أنفسهم و هم يتلون الكتاب أفلا يعقلون . »

و قال الحسن البصري : « الراعظ من وعظ الناس بعلمه لا بقوله »

و رحم الله من قال :

لا تنه عن خلق و تأتي مثله . . . عار عليك إذا فعلت عظيم

أبدأ بنفسك فإنها عن غيرها . . . فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يسمع ما تقول و يشقى . . . بالقول منك و ينفع التعليم

٣ - أن يكون خبيراً بما يدعو إليه ، لأن الدعوة إلى الله تعالى تعليم و تربية ، لا بد فيها من الدراية بأصول القواعد التربوية و الأحوال النفسية و الجاهل بهذه الطرق يخفق أكثر في مهمته ، و يضر من حيث يظن أو يعتقد أنه ينفع .

معنى هذا : أن الداعية يسير في دعوته مسترشداً بهذه الآية الكريمة  
﴿إِدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمُرُوعَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ .  
٤ - أن يكون الداعية عفيفاً يائماً مما عند الناس . بهذا يكون سيداً  
في قومه محبوباً لديهم .

أما إذا تطلع إلى دنياهم أدى هذا إلى تحقيره وسقوطه في نظرهم .  
فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله أوصني  
وأجز فقال : ي عليك باليأس مما في أيدي الناس فإنه الغنى ، وإياك  
والطمع فإنه الفقر الحاضر ، وصل صلاتك و أنت مودع وإياك وما  
يعتذر منه .

وقال الحسن البصري : « لا يزال الرجل كريماً على الناس حتى يطمع  
في دينارهم فإذا فعل ذلك استخفوا به و كرهوا حديثه و أبغضوه » .

وقال أعرابي لأهل البصرة : من سيديكم ؟

قالوا : الحسن . قال : بم سادكم ؟

قالوا : لاحتاج الناس إلى علمه و استغنى عن دينارهم .

فقال ما أحسن هذا .

٥ - أن يكون قوياً في بيانه . نصيحاً في لسانه :

ولذلك قال تعالى على لسان سيدنا موسى عليه السلام ﴿وَإِحْلِلْ عُقْدَةَ  
مِن لِّسَانِي ، يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ و قال تعالى : ﴿وَ أَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي  
لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ .

٦ - ان يكون حليماً واسع الصدر :

قال تعالى لإمام الداعين إلى الله ﴿ وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ .

٧ - ان يكون الداعية شجاعاً . يقول الحق و لو على نفسه . فما بالك إذا كان على غيره مهما كانت قيمة هذا الغير .

قال ﷺ « إذا رأيت امتي تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منهم » .

عن بى ذر الغفارى ﷺ قال :

« أو صانئى خليلى بخصال من الخير : أو صانئى أن لا أخافى الحق لومة لائم ، و أو صانئى أن أقول الحق و إن كان مرأ » .

٨ - ان يكون واثقاً بالله تعالى فيما وعد به عباده المخلصين الصادقين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ .

٩ - ان يكون متواضعاً بعيداً عن العجب .

قال ﷺ « ما نقصت صدقة من مال و ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا ، و ما تواضع أحداً لله إلا رفعه الله » .

١٠ - و ان يكون وقوراً . كبير الهمة . صابراً . ورعاً بعيداً عن الشبهات مخلص فى دعوته لله تعالى . عالماً باحوال من يدعوهم إليه عز و جل . إلى آخر هذه الصفات المتعددة التى ترجع كلها إلى ما ذكرناه .

## أصول الخطابة ومقوماتها

قلنا : إن الخطابة من فنون الكلام يقصد به التأثير في الجمهور عن طريق السمع والبصر معاً .

١ - فمما يدخل أثره عن طريق السمع هو :

أ - الأسلوب . ب - الإلقاء . ج - الصوت .

٢ - ومما يدخل أثره عن طريق البصر هو :

أ - الوقفة والهيئة . ب - الحركة والملامح .

و تلك هي مقومات هذا الفن وملاكه .

و نحن الآن على موعد لتتكم عن كل واحد من هذه المقومات :

### ١ - الأسلوب :

يقولون : إن من البيان لسحراً ، والخطيب الحصيف يمكنه أن يسحر الأفتدة بقوة فكرته و لحسن القائه و عذوبة كلامه و سهولة عرضه و وضوح فكرته .

و الخطيب لا يصل إلى الأذهان إلا عن طريق الأذان ، و للأذان ذوق في الجمال لابد من مراعاته و مرضاته ، أي أن الخطابة في الإتصال بالقلب عن طريق الأذان ، فالخطيب الحاذق هو الذي يصوغ خطبته في أسلوب تتخير له الألفاظ المتسقة و الجمل المترابطة و الفقرات المترابطة و الأساليب السهلة .

و الأفتتان فى تنوع الأسلوب و القصد فى ذلك يحسن أن يكون الخطيب ماماً بثروة كبيرة من آداب اللغة و مروياتها و أساليبها و ألفاظها .  
و على الخطيب أن يتجنب التكرار إذ هو عيب مخل فى الخطبة ، و الكلام لا يقاس بطوله ، بل بمقدار فائدته ، و لقد كان ﷺ أقل الناس كلاماً .  
و كانت خطبه مختصرة موجزة ، و المروى من خطبه صلوات الله و سلامه عليه قليل و مختصر ، و لكن فائدته عظيمة .  
قال النووى : يستحب كون الخطبة فصيحة بليغة مرتبة مبنية من غير تمطيط و لا تقصير ، و لا تكون ألفاظاً ملفقه لأنها لا تقع فى النفوس ، موقعاً كاملاً ، و لا تكون وحشية نافرة فإنها لا تحصل المقصود منها بل يختار ألفاظاً سهلة جزلة مفهومة ، و قال ابن القيم ، ، كذلك كانت خطبه ﷺ إنما هى تقرير لأصول الإيمان بالله لأولياته و أهل طاعته و ما أعد لأعدائه و أهل معصيته ، فيملأ القلوب من خطبته إيماناً و توحيداً و معرفة بالله و آلائه ، لا كخطب غيره التى تتناول أموراً مشتركة بين الخلائق أى ضعيفة الصلة بالدين فاقدة لتوجيهاته الواجبة .  
كما سنعرف مزيداً من التفصيل فى هذا الموضوع عند الكلام على هدى الرسول ﷺ فى خطبته .  
و على الخطيب أن يكون لسنا له بصر بآداب اللغة و طرائق المرويات ، نواقة بالشعر و النثر ، حتى يمكنه ذلك من التعبير عما فى ضميره ، و نقل

ما فى نفسه إلى نفوس الآخرين بعبارة رقيقة و أداء مستحب .

و نضع أمام الخطيب هذه الأمور لكي يواعيها فى تخير الأسلوب :

١ - توخى الأساليب السهلة .

٢ - الافتتان فى تنوع الأسلوب .

٣ - تخير الألفاظ .

٤ - الإعتماد على العاطفة و الشعور . بمعنى أن يكون الخطيب يقظ

القلب جياش و المشاعر صادق للهجة ، فعن جابر قال : كان رسول الله ﷺ

إذا خطب احمرت عيناه و علا صوته و اشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش

، يقول : صباحكم و مساءكم أى أتاكم العدو وقت الصباح أو المساء .

و هكذا .. فإنه لا يؤثر فى الناس إلا المتأثر ، إذا أن فاقد الشئ لا يعطيه

، و كلما كان الخطيب مخلصاً فى قوله معتقداً صدق كلامه كلما اتخذ سبيله

إلى القلوب ، فإن الكلام إذا خرج من القلب وقع فى القلب ، و إذا خرج من

اللسان لم يجاوز الأذان ، و كما أن الماء الذى علا صوته ينساب فى المجرى

المنخفض ، كذلك ذو العاطفة العالية هو الذى يتخذ من قمة الشعور ألفاظاً

و العواطف عبارات و أساليب تلهب الحس و توقظ النفس و تثير الحمية .

**٢- الإلقاء :**

لحسن الإلقاء أثر عظيم فى نجاح الخطبة ، و لذلك فهو من أجل ما

ينبغى إهتمام الخطيب به ، فقد تسمع خطبتين ذاتى موضوع واحد ، إلا أنه

يجذب أحدهما انتباهك ويثير إعجابك بحسن إلقائه وجمال عرضه ، وقد يكون أسلوب الخطبة نازلاً عن مقام البلاغة فيرفعه الخطيب القادر بفصاحة منطقته و عذوية إلقائه فيثير السامع و يلهبها بجمال إلقائه عن ضعف إنشائه .

و الإلقاء الحسن يتمثل في الوضوح و الطلاقة ، تمثيل المعاني و العواطف و ذلك بتغيير اللهجة و تنويع الصوت و فيهدأ الخطيب و يبطئ و يسرع ، و يغضب و يعجب ، و يسأل و يجيب ، و كل ذلك في استقامة لغة و سلامة منطق .

و يد عن اللمعة و ما يتبعه من كثرة اللججة و التلثم و الإلتجاء إلى جمل الإستعانة كتكرير أيها السادة - مثلاً - .  
و هكذا لا يبلغ الخطيب غايته إلا إذا كان حسن الإلقاء جميل الأداء قوى الروح ليواجه السامعين بالحق الواضح و الذكر المبين .

### ٣ - الصوت :

من الصفات الحسنة اللازمة للخطيب الصوت الجهورى و العناية برفعه روعة ضه في المواضع المختلفة ، إذ هو طريق الفكرة إلى الأذان فلا بد أن يكون جيداً حلو النغمة صافى الرنين خالص النبرات . و يجب على الخطيب أن يعر به و يقف على قوة إرتفاعه و مدى اتساعه حتى لا يكلفه فوق طاقته فيضحل و يتهدج ، و يحسن مع ذلك أن يبدأ به فى إنخفاض ، و تأن ثم

يرفعه رويداً رويداً حتى يبلغ به أقصى قوته ثم يردده بين الصعود والهبوط  
مغيراً في ميزانه ونغماته ووقفاته تبعاً للمعنى الذى يؤديه محاذراً ألا  
يخرج به عن مستواه .

#### ٤ - الوقفة والمهينة :

أقصد بالأولى : أن يكون الخطيب ثابت الجنان شجاع القلب لا يحمل  
شيئاً من الجبن والخور ولا يهاب أحداً إلا الله ، متمالك الأعصاب ،  
هادئ الانفاس مستقيم الصوت .  
و أقصد بالثانية : وضاعة الطلعة و حسن الهندام و جمال البزة ، و إن  
كانت هذه صفات كمالية قد يغنى عنها جمال الأسلوب و حسن الإلقاء .  
إلا أن هذه أمور تجب العناية بها . ذلك أن الخطيب مطمع أنظار الناس  
و محل تقديرهم .  
فإذا كان حسن المنظر جميل الهندام كان موضع تقدير و محل احترام  
، و إن كان على العكس من ذلك فإنه قد يلقي اعراضاً و نفوراً و قد قيل :  
إن معاوية لما رأى النخار مرتدياً عباءة رثة أنكر مكانه و هيأته ، حتى  
اضطر النخار إلى أن يقول : إن العباة لا تكلمك و لكن يكلمك من فيها .  
فالواجب على الخطيب أن يكون وحيها كى يوقره الكبير و يهابه الصغير  
و يأخذ كلامه الطريق إلى القلوب .  
و المقصود بالوجاهة ألا يحتقر العالم نفسه فى مظهره أو فى سيرته بل  
يتحفظ و يجعل هيأته مقبولة بين الناس .



قال رجل لعبد الله بن عمر « ما أليس ؟ قال : أليس ما لا يعيبك عليه العلماء و لا يزدريك فيه السفهاء » أى أن ملابس الخطيب يجب أن تكون بحيث لا يحتقره فيها الرعا ع و لا يظن غيرهم أنه يتكلف فى تجمله و تزيته . و من كلام الاسام عبد الرحمن بن الجوزى « على أهل العلم أن يظهرُوا مروءاتهم فى تزيينهم إكراماً للعلم و إجلالاً له » و يقول الإمام مالك « التواضع فى التقى والدين لا فى اللباس » .

#### ٥ - الحركة و الملامح :

و كلاهما مساعداً و يقصد بهما الإشارات التى يمكن أن تشارك مع الكلمات و النبزات كإشارات اليد التى تساعد على تثبيت الكلمات فى النفس . لأن الكلام إذا كان طريقه الأذن فالإشارة تشرك العين مع الأذن فى الإحاطة بالمعنى و تصويره .

و لذلك كانت الحركات عنصراً من عناصر العمل الروائى ، و هى كذلك جزءاً من أجزاء الفن الخطابى لنفعها و إفادتها .

فباستعمال إشارة اليد تؤكد المعنى و أسرار الوجه تكشف عن أسرار الضمير و الخطيب يستطيع أن يعبر بملامح وجهه و تغض الجبين عن اللذة و الألم و الرضا و السخط و النفور و الميل و السرور و الحزن ، و بالعيون عن العواطف المختلفة فيرفعها إلى السماء فى الألم الشديد و الدعاء و يخفضها إلى الأرض فى التفكير و الحيرة و الخشوع و الحياء أو يفتحها

عند الدهش والإعجاب ويطبقها عند التواضع والسكينة... وهكذا .  
يروى التاريخ القديم عن مصعب بن الزبير أنه باستعمال الإشارة اليدوية  
أثناء إلقائه لبعض آيات القرآن الكريم رسم في نفوس السامعين كل  
الذكريات الدينية التي تشير إليها هذه الآيات فيجد السامع نفسه في موكب  
من الذكريات التي تكاد الإشارة تجسدها تجسيداً .

إن مصعب بن الزبير قدم العراق فقال ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ،  
طَسِم ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِين ، تَلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمِ  
يُؤْمِنُونَ ، إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ  
يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

و أشار بيده إلى الشام حيث نشأ موسى عليه السلام و إلى حيث هاجر  
بقومه بعدما كان من أمر فرعون ، فكأنه أشار إلى مسرح تلك الحوادث  
فارتسمت في أذهان السامعين بعد أن مرت عليها مئات الأجيال .

ثم استفرد مصعب بن الزبير يقول ..

« و نريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض و نجعلهم أئمة  
و نجعلهم الوارثين ، و أشار بيده نحو الحجاره ثم قرأ ﴿ وَ نُمْكِن لَهُمْ فِي  
الْأَرْضِ وَ نَرَى فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ .

#### شروط نجاح الإشارة :

الخطيب الموفق هو الذي يضع الإشارة بالحركة في محلها و مجالها لذلك

- فلا صابقتها شروط ، نذكر منها ما يلي :
- ١ - أن يقتصد في استعمالها قدر الإمكان ، فلا يبالي ولا يتكلف ولا يكذب .
  - ٢ - أن تتفق مع المعنى فتبطن ، وتهدأ وتسرع وتثور تبعاً له .
  - ٣ - ألا تسبق الكلام وألا تأتي بعده .
  - ٤ - أن يكون حكيماً في استعمالها ، مناسبة لما ينطبق به لكي تجيء الإشارة جزءاً متمماً للكلام موضحة له ، وحتى يكون في استعمالها دقيقاً وموفقاً .